مَعَارِجُ الصُّعُودِ

إلى

تَفْسِيرِ سُورَةِ هُودٍ

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي

المولود سنة ١٣٢٥ هـ - المتوفى سنة ١٣٩٣ هـ

كتب عن فضيلة المفسر هذا التفسير تلميذه

عبد الله بن أحمد قادري

أثناء محاضراته التي ألقاها على طلاب كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية في المدينــــة المنـــورة ، ثم رتبه الكاتب وأخرجه في هذه الصورة .

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م

الناشر

دار المجتمع للنشر والتوزيع

جدة : ميدان الجامعة ص.ب ٤٠٨٤٥ جدة ٢١٥١١ ت الإدارة ٦٨٩١٤١٧ المكتبة ٦٨٩٤٤٦١

الخبر : شارع الأمير نايف ص.ب ٢٣٢١ الخبر ٣١٩٥٢ ت ٨٩٤١١٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة ابن الشيخ المُفسر رحمه الله

الحمد لله الذي رفع بالعلم درجات أهله ، وأثابهم على اكتسابه ونقله ، وأنعم عليهم بالتوفيق لدرسه وحمله ، والصلاة والسلام على سيدنا مُحمد عبده ورسوله ، خاتم أنبيائه ورُسُله ، هادي جميع الخلق إلى منهاج الحق وسُبله ، المُبالغ في تبليغ الرسالة بقوله وفعله ، الباذل جهده في إقامة دين الله وبيان فرعِه وأصله ، قال تعالى : « **هو الذي أرسل رسوله بالهُدى ودين الحق ليظهره على الدين كله** » . ورضى الله عن أصحابه أجمعين وأهل بيته ، وحشرنا معهم تحت ظل عرشه ، يوم لا ظل غير ظله .

أما بعد .. فإني قرأت وتصفحت مُعظم هذا الكتاب « معارج الصعود إلى تفسير سورة هود » لفضيلة والدي الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار — رحمه الله — والذي كتبه عنه ورتبه وقدم له وخرج أحاديثه وكمل ما فيه من نقص أو سقط تلميذه فضيلة الدكتور عبد الله بن أحمد قادري رئيس شعْبة الفقه بالدراسات العُليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة — حفظه الله — وقد أحسن بي الظن فطلب مني أن أقدم للكتاب[1] ، وقد جرت عادة العُلماء أن يطلبوا من مشايخهم أو من أقرانهم على الأقل أن يقدموا لمؤلفاتهم ويقرظوها أو يحكموا عليها .. وبما أني لا زلت في بداية طلب العلم ولم أصل بعد المكانة التي تمكنني من التقديم أو الحُكم على مثل هذا الكتاب الجليل ، لأن الحُكم على الشيء فرع عن تصوره أكتفى في التقديم بذكر النقاط التالية :

أولاً : لا شك أن هذا الكتاب من تأليف والدي وشيخي الشيخ محمد الأمين — رحمه الله — لما ذكره فضيلة الدكتور عبد الله في نسبة الكتاب

---

(١) حرصاً على توثيق نسبة الكتاب لوالد المقدم .

للمؤلف ، ولما سمعته من الشيخ رحمه الله في عطلة عام ١٣٨٦هـ حيث كنت أدرس عليه الأجرومية في النحو ــ أن أحد التلاميذ الأذكياء (اسمه قادري) كان يكتب عنه ما يلقي من المحاضرات في مادة التفسير بكلية الشريعة بالجامعة الإسلامية ، وكان معجباً بحرصه على الفائدة ، ولما أخبرني به بعض تلاميذ الشيخ رحمه الله وزملاء الدكتور عبد الله قادري حفظه الله أنه كتب عن الشيخ رحمه الله تفسير سورة هود ، ولتأثري حين بدأت بقراءة الكتاب ووصلت إلى تفسيره لقوله تعالى : « من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله » . الآية فإني تصورت الشيخ رحمه الله يتكلم أمامي فلم أتمالك فسالت دموعي . فإنا لله وإنا إليه راجعون وتغمده الله برحمته آمين .

ثانياً : ما ذكره فضيلة الدكتور عبد الله أنه بعض ما ارتسم في ذهنه من خواطر عن الشيخ رحمه الله هو وصف دقيق لما يتميز به رحمه الله وليس فيه مُبالغة وإنما هو واقع الشيخ رحمه الله كما عرفت منه في بيته وفي الحرم ومع كل الناس أثناء القائه للدروس أما الأوقات الأخرى فكان رحمه الله يُباسط جلساءه ويعاملهم على قدر عقولهم غير أنه لا يسمح لأي كائن من كان أن ينال من أعراض الناس في مجلسه .

ثالثاً : إن القاريء لهذا الكتاب يرى شخصية الدكتور عبد الله بن أحمد قادري من خلال المقدمة والتعليقات على الكتاب متمثلة في حُسن الأسلوب ، وجودة العرض ونسبة الفضل لأهله ، والشعور الصادق نحو العُلماء وبالأخص شيخه ، وأمانته العلمية ، وتواضعه الذي هو من أبرز صفاته حسب ما عرفته منه لما كان عميداً لكلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية ، (وبذكر التواضع) فقد سمعت الشيخ رحمه الله يثني على التواضع ويقول: « إنه الخصلة الوحيدة التي لا يحسد عليها مع أنها من أحسن الخصال ويتساءل : هل رأيتم أحداً يحسد على أنه متواضع ؟ فهنيئاً لمن طبع على التواضع ، وبعد هذا لا يسعني إلا أن أشكر فضيلة الدكتور عبد الله قادري وأبارك له في إخراج هذا الكتاب في هذه الحلة المرضية وأدعو الله أن يجزل له المثوبة على ما تحمله من مشاق في إبرازه إلى الوجود بعد

ما كان محاضرات غير مكتوبة ، وعلى وفائه لشيخه الذي يعد إخراج هذا الكتاب المثل الأعلى له والقدوة المُثلى فيه .

وفي الختام أرجو الله تعالى أن يكون هووعمله هذا بالنسبة إليه وإلى الشيخ رحمه الله داخلين في مصداق قوله ﷺ «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقةٍ جارية أو علمٍ ينتفع به أو ولدٍ صالحٍ يدعو له »[1] . ولا شك أن هذا الكتاب علم ينتفع به أو أن الدكتور عبد الله ولد صالح يدعو لشيخه إن شاء الله ، كما أرجوه تعالى أن يوفقني والدكتور عبد الله للصواب ويُجنبنا الخطأ في الدين ويوفقنا للعمل بما علمنا وأن يحفظنا بفضله ورحمته من فساد القصد أنه جواد كريم .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

محمد المختار بن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي

(١) خرجه مسلم في صحيحه في كتاب الوصية باب ما يلحق الإنسان ثوابه بعد موته ، ج ٥ ، ص٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون »(١) .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا »(٢) .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً »(٣) .

أما بعـــد ....

فإن خير الكلام كلام رب العالمين ، وخير الهدى هدى رسوله الأمين ، وكل كلام خالف كلام الله فهو الباطل ، وكل هدى خالف هدى محمد ﷺ فهو الضلال المبين .

لذلك كانت السعادة كل السعادة في سلوك صراط الله المستقيم الذي لا سبيل إليه إلا بالعلم النافع والعمل الصالح اللذين تضمنهما هذا القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . تحدى الله به الخلق كلهم إنسهم

---

(١) آل عمران : ١٠٢ . (٢) النساء : ١ . (٣) الأحزاب : ٧٠ ، ٧١ .

وجنهم أن يأتوا بآية مثله فعجزوا ، أخبر عن الغيب في الماضي والمستقبل فكانت أخباره كلها صدقاً ، وشرع للخلق أحكاماً تضبط حياتهم وسلوكهم فكانت كلها خيراً وعدلاً ، ولفت أنظار الخلق إلى عجائب الكون وأسراره في كل عصر وجيل فأدهشت عقولهم وأودعت في قلوب المنصفين الإيمان الحق بالبرهان والدليل .

لذلك قال تعالى لأعداء الملة القائمة على الحجج والبراهين :

« **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** »(1) .

وقال تعالى : « **أم يقولون افتراه كل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** »(2) .

وقال تعالى : « **أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** »(3) .

وقال تعالى : «**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** »(4) .

وأكد سبحانه وتعالى أن هذا القرآن يرشد إلى السبيل التي هي أقوم وأصوب السبل ، وبها يتميز الناس في الدنيا والآخرة ، فمن سلكها كان من ذوى الأعمال الصالحة مستحقاً للبشرى بثواب الله الجزيل في دار كرامته ومن صد عنها وحاد كان من المجرمين الذين نزل القرآن لينذرهم عذاب الله الأليم ، كما قال تعالى : « **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما** »(5) .

وقد أشار شخينا المفسر رحمه الله تعالى إلى أن هذه الآية الكريمة ـــ آية

---

(1) البقرة : ٢٣ .
(2) هـود : ١٣ .
(3) الطور : ٣٣ ، ٣٤ .
(4) الأسراء : ٨٨ .
(5) الأسراء : ٩ ، ١٠ .

الإسراء ـــ قد شملت كل ما في كتاب الله من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة ، فقال رحمه الله :

« وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها ، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة .. » ثم ذكر أمثلة لذلك للتنبيه بها على غيرها ولبيان ضعف عقول من كابر في الإيمان بها أو طعن فيها[١] .

ومما لا شك فيه أن السبيل الموصل إلى العلم بهدى القرآن العظيم للتي هي أقوم هم علماء الأمة الإسلامية الذين مكنهم الله من الجد والمثابرة على قراءته بتدبر وتعقل ، لفهم مراد الله منه والعمل به والدعوة إليه وتفسير معانيه وبيان أحكامه والغوص في بحار علومه ، كما قال تعالى : « **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا** »[٢] .

وقال تعالى : « **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** »[٣] وعلماء الهدى هم الذين غرست في قلوبهم خشية الله لجمعهم بين العلم بأسرار شريعته وتدبر أسرار عجائب خلقه في هذا الكون العظيم ، كما قال تعالى : « **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور** »[٤] .

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٤٠٩/٣ ـــ ٤٥٧) .
(٢) النساء : ٨٢ ، ٨٣ .
(٣) القمر : ١٥ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ .
(٤) فاطر : ٢٧ ـــ ٣٠ .

لذلك كان العلماء هم ورثة الأنبياء ، وكانت الخسارة الفادحة بموت أحدهم أعظم بأضعاف مضاعفة من موت أحد الصالحين من غيرهم ، لأن العلم يقبض بموتهم ، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضي الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا »(١) .

والناظر في التأريخ الإسلامي يجد السبق لعلماء القرون المفضلة : الأسبق فالأسبق ، إذا ما قاس فضلهم بفضل نتائج علمهم وثماره التي تصلح أحوال المجتمعات في دينها ودنياها بتحقيق مصالحها ودرء مفاسدها ، وتجعل المجتمع الإسلامي قائماً بوظيفته التي كلفه الله إياها من هداية الناس بنور الإيمان ورفع كلمة الحق وإرساء أُسس العدل ، وقيادة البشرية إلى شاطيء الأمان وبر السلام .

إن الناظر في ذلك بهذا المقياس يجد هرماً له قمة عالية يقف عليها الخلفاء الراشدون ومن التف حولهم من أصحاب رسول الله ﷺ ويجد في وسطه أمثال أئمة الحديث والفقه والتفسير ، كالبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، والإمام أبي حنيفة والإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل ، وابن جرير الطبري ونحوهم من أئمة الإسلام الأوائل .

وهكذا حتى يصل الناظر إلى سفح ذلك الهرم فيجد في العصور المتأخرة كثرة من المنتسبين إلى العلم ، ولكن كثيراً منهم غثاء كغثاء السيل ، غير أنه يرى عدداً من الرايات المرفوعة مشيرة إلى أعلام علم وهدى منح الله بهم الأمة الإسلامية يذكّرون بمن سبقهم من أئمة الإسلام من أمثال ابن تيمية وابن القيم وابن كثير والعز بن عبد السلام وغيرهم ، كما يجد في هذا العصر قلة ممن جمع الله في صدورهم من الهدى النافع زبدة علوم الأوائل وخلاصتها من أمثال شيخنا العلامة الكبير المفسر الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي آية عصره في حفظ كتاب الله والتبحر في علومه والإطلاع الواسع على سُنَّة رسوله

---

(١) البخاري (١/٣٣ ، ٣٤) .

ﷺ ، والإحاطة بدقائق الفقه وأصوله ، وسعة الإطلاع باللغة العربية وكل ما يتصل بها ، ومعرفة أنساب العرب والقبائل وكثير من أعلام الإسلام من الصحابة وغيرهم .

ويمتاز شيخنا المفسر ، رحمه الله باستخدامه كل علوم العربية وغيرها من العلوم الإسلامية في تفسير كتاب الله ومحاكمة الآراء والمعاني التي تقال في الكلمة أو الآية إلى ما غلب في القرآن نفسه ، ثم تفسيره بالسُنَّة ، ثم بما ورد عن السلف ، مع التعمق في فهم ذلك بالأساليب العربية .

ولقد أسعدني الله سبحانه وتعالى بتلقي العلم على يديه — وهو من نوادر المشايخ الذين أعتز بهم — خلال أربع سنوات دراسية في كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية من سنة ١٣٨٢ إلى ١٣٨٥هـ في مدينة رسول الله ﷺ ، حيث ألقى علينا محاضرات في الأجزاء المقررة في السنوات الأربع في التفسير .

فقد أخذنا في السنة الأولى ما يُقارب نصف سورة البقرة وفي السنة الثانية سورة المائدة وجزء من سورة الأنعام وفي السنة الثالثة سورة هود ، وسورة يوسف وسورة الرعد — بتوسع في الأولى ، وسرعة في الأخيرتين — وفي السنة الرابعة سورة النور ، وتفسيره لها شبيه بتفسير سورة هود في التوسع وكتبت تفسيرها كما كتبت تفسير سورة هود ، ولكنه فقد ولا يزال الأمل في الحصول عليه موجوداً .

كما ألقى علينا محاضرات في أصول الفقه فيما عدا السنة الثالثة فقد حرمنا من محاضراته بسبب تأثره ببعض الأوجاع .

وإذا كنت قد سعدت بتلقي العلم على يديه خلال أربع سنوات فإني قد ندمت ندماً شديداً على ما فاتني تسجيله من علمه الذي كان مثل الدر والجواهر النفيسة التي تلقى في رمال فلاة واسعة فتضيع فيها ، فلم أكتب عنه في السنة الأولى ولا الثانية إلا تعليقات خفيفة على هوامش الكتاب الذي كان بأيدينا في التفسير ، وهو فتح القدير للشوكاني .

وقد دفعني ذلك الندم إلى العزم على كتابة محاضراته في التفسير في السنتين الباقيتين : الثالثة والرابعة .

ولم نكن في ذلك الوقت نفكر في إحضار مسجل للصوت لأسباب : منها كبر حجم المسجلات ، حيث يستصعب حملها مع حمل الكتب ، ومنها أنها تحتاج إلى أشرطة كثيرة قد يصعب على الطالب شراؤها لقلة النفقة .

لذلك أعددت لمحاضرات الشيخ كراسات كافية من أول السنة ، وكنت احمل قلمين مملوءين كل يوم بالحبر احتياطاً إذا فرغ أحدهما أو تعثر أخذت الآخر .

وقد كان فضيلة شيخنا المفسر رحمه الله يكره أن يرى طالباً يكتب في وقت القائه المحاضرة ويغضب غضباً شديداً وكان ذلك من الأسباب التي ثبطتني عن الكتابة في السنتين السابقتين .

وكنت أضع الكراسة على فخذي وأسارقه النظر واكتب كل لفظة يقولها بسرعة هائلة ، حتى إن بعض سطور الكراسة التي أكتب فيها مباشرة لا تتسع إلا لكلمتين أو ثلاث من شدة السرعة .

والذي سوغ لي الكتابة مع كراهة الشيخ لها أمور :

الأمر الأول : الحرص على هذا العلم الغزير الذي يذهب فور سماعه إلا ما شاء الله ، والكتابة قيد العلم ، كما أن الحبال قيد الصيد .

الأمر الثاني :إنه يختبرنا في آخر السنة وأسئلته تشتمل على فقرات مما القاه ، ومن الصعب أن يجيب الطالب عليها إجابة سليمة إذا لم يكن ملماً بالمعاني التي ألقاها .

الأمر الثالث : علمي بأن سبب كراهة الشيخ للكتابة خشيته من أن يشغل الطالب نفسه عن الاستفادة من محاضراته ، ولو علم أن في الكتابة فائدة محققة لما كره ذلك .

الأمر الرابع : أنني لم أكن أفكر وقت الكتابة عن الشيخ في أن يكون ما أكتبه يمكن أن يعد على هيئة كتاب يطبع وينشر .

وقد يسر الله لي كتابة تفسير سورة هود بأكملها ما عدا محاضرتين فاتني حضورهما ، وسيأتي التنبيه عليهما في مكانهما .

وسيأتي ذكر تاريخ كل محاضرة في مكانها المناسب .

هذا وقد علم فضيلة شيخنا المفسر في آخر السنة عن قيامي بكتابة تفسير سورة هود فاعجبه ذلك وسر به .

والذي أخبره بذلك هو أحد زملائي من الشناقطة ، حيث استعار مني الكراسة قبل أيام الامتحان لينقل منها ما تيسر له استعداداً للامتحان[1] .

وحفظت الكراسة بعد أن أديت الامتحان ونسيتها مدة طويلة وكنت أعثر عليها بين وقت وآخر فأقرأ شيئاً منها من باب تذكر أيام الدراسة ، وبدأت أُفكر في تبييضها وترتيبها ثم نشرها في كتاب ــ مع العلم أنني كنت أُبيض كل محاضرة فور رجوعي من قاعة الدرس ــ ولكنه تبييض غير كاف لإخراجها في كتاب .

وكنت كلما عزمت على القيام بذلك أعقب عزمي فتور أما لنسيان أو كسل أو شغل ، وتارة أشعر بالخوف من وجود أخطاء في كتابتي تنسب لفضيلة الشيخ المفسر رحمه الله .

ثم عزمت في يوم من الأيام على قراءة هذا التفسير للنظر في كونه صالحاً للنشر ، فقرأته ولم أفرغ منه إلا وأنا ذو اقتناع تام بأن نشره أمر لابد منه ، لما فيه من العلم الغزير ، وبخاصة أنه نموذج لتفسير سورة كاملة لفضيلته ، وذلك غير موجود فيما أعلم ، لأن كتابه أضواء البيان لا يتعرض فيه إلا للآيات التي لها تفسير في آيات أُخرى ، أما هذه السورة ــ سورة هود ــ فإنه فسرها لفظة لفظة وآية آية وجملة جملة ، عدا بضع آيات فاتني حضورها .

وهذا التفسير يعتبر نموذجاً لتفسير فضيلة الشيخ فقد كان لتفسيره ثلاث حالات :

---

(١) هذا الزميل هو الأخ الشيخ حسين بن عبد الرحمن الذي يعمل مرشداً في الجيش السعودي في منطقة المدينة المنورة في الوقت الحاضر .

الحالة الأولى : الإسهاب والتوسع ، وهذا كان يحصل في المسجد النبوي في شهر رمضان من كل عام ، حيث كان يجلس من بعد صلاة العصر ويجتمع حوله الناس على اختلاف طبقاتهم فيفسر القرآن الكريم إلى أذان المغرب ، وقد كانت بعض الكلمات تأخذ منه محاضرة كاملة ، بل محاضرتين ، وكان كل الناس يستفيدون منه كل واحد بقدر علمه وثقافته ، ويستفيد عامة الناس بما يذكره من آداب متعلقة بالآيات ، وله أشرطة تمثل ذلك في مكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنــورة(١) .

الحالة الثانية : التوسط وعدم الإطالة أو الاقتضاب الشديد ويُمثل هذه الحالة تفسير سورة هود هذا .

الحالة الثالثة : الاقتضاب الشديد ، وهو المرور السريع على بعض المُفردات في الآية والاشارة السريعة إلى بعض معانيها وكان يلجأ إلى هذه الحالة في آخر السنة الدراسية عندما يرى أنه لا يمكن إكمال المنهج المقرر بأسلوب الحالة الثانية .

وهاتان الحالتان كان يقتضيهما المنهج الدراسي .

ولقد أقنعت نفسي بكتابة هذا التفسير وإخراجه في كتاب ، وإذا كان فيه شيء من الخطأ أو النقص فهو بطبيعة الحال منسوبة إلى الكاتب وليس إلى المُفسر .

وقد يتساءل القاريء ما الدليل أن هذا التفسير لفضيلة الشيخ المُفسر ؟

وللإجابة على ذلك اذكر الأمور الآتية :

الأمر الأول : أن الأصل هو إحسان المسلم الظن بأخيه المسلم لأن الأصل فيه الأمانة والصدق ، وكاتب هذا التفسير هو أحد هؤلاء المسلمين ، وقد أخبرت القاريء بأنني كتبت هذا التفسير عن فضيلة الشيخ ، فلا يجوز الشك في هذا الخبر إلا بقرينة .

الأمر الثاني : أن كل من قرأ على فضيلة الشيخ أو سمع محاضراته في المسجد النبوي الشريف أو في قاعات الدرس في كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية من

(١) في سور متفرقة غير كاملة ، لم يصل فيها إلى سورة هود .

زملائي في الدراسة أو غيرهم ممن هم قبلنا أو بعدنا إذا اطلع على هذا التفسير سوف لا يخالجه شك في أنه لفضيلة الشيخ .

الأمر الثالث : أن زملائي من جميع أنحاء المعمورة ، ومنهم المجدون في طلب العلم كانوا يعلمون أنني كتبت محاضرات الشيخ وكانوا يتعجبون من قدرتي على متابعة ذلك كتابة ، وكان كثير منهم يستعير مني كراستي لينقل منها ما يفيده في الامتحان ولا زال أكثرهم أحياء وسيطلعون على ذلك إن شاء الله .

ولا أزال أذكر أن أحد الزملاء ممن لهم صلة قوية بفضيلة الشيخ استعار مني الكراسة لينقل منها شيئاً ، وذكر لي في حينه أنه أخبر فضيلة الشيخ بما قمت به وأن الشيخ تعجب من ذلك وسر به[1] .

عملي في هذا التفسير :

أما ما قمت به في هذا التفسير فينقسم إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : كتابة محاضرة الشيخ في وقتها ، وكانت هذه المرحلة شاقة ، لثلاثة أسباب :

السبب الأول : سرعة القاء الشيخ الذي كان يتدفق كالسيل المنحدر مَن رأس جبل .

السبب الثاني : كثرة النصوص التي كان يوردها من القرآن والشواهد العربية ، وبعض الأحاديث النبوية ، وكنت إذا لم أدرك كل النص آخذ محل الشاهد منه ثم أحاول إتمامه فيما بعد .

السبب الثالث : إلزام نفسي بكتابة كل كلمة يقولها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

السبب الرابع : كوني أكتب خفية من الشيخ ومحاولتي التوفيق بين الكتابة ، وإظهار نفسي أمامه إذا التفت إليّ أنني لا أكتب ، بل منتبه له .

---

(١) هذا الزميل هو الشيخ حسين بن عبد الرحمن الشنقيطي الذي مضى ذكره قريباً .

وقد يسر الله أن كتب ابن فضيلة الشيخ مقدمة هذه الطبعة بين فيها إن والده رحمه الله ذكر له إنني كتبت عنه ، وهذه شهادة وثيقة تدعم ما ذكرت ..

وكان السطر يمتليء بكلمات قليلة جداً بسبب السرعة وبعض الكلمات قد يصعب أن اقرأها بسهولة ، فاضطر للتأمل فيها حتي أتذكرها أو أسأل الشيخ عنها

في محاضرة أخرى وكنا نهاب أن نسأله لعلمنا بأنه لا يرغب سماع الأسئلة التافهة ونخشى أن تكون بعض أسئلتنا من هذا النوع ، إضافة إلى أن السؤال في الدرس اللاحق عما مضى في الدرس السابق قد يجعله يفسر ذلك بعدم انتباه السائل .

المرحلة الثانية : هي أنني كنت عندما أعود إلى المنزل من قاعة الدرس أباشر بدأ تبييض محاضرة ذلك اليوم فاستغرق في ذلك أكثر من ضعف وقت المحاضرة ، لأنني اكتب بتأن وأحاول حل ما أشكل وكتابة بعض النصوص التي لم أدرك كتابتها مع فضيلة الشيخ .

أما المرحلة الثالثة : فهي هذه الأخيرة وهي تتضمن الأمور الآتية :

الأمر الأول : تقسيم آيات السورة إلى مجموعات ، كل مجموعة تكون ذات موضوع عام في نظري .

وهي كما يلي :

المجموعة الأولى	من أول	السورة	إلى الآية رقم : ١١
المجموعة الثانية	من	الآية رقم : ١٢	إلى الآية رقم : ٢٤
المجموعة الثالثة	من	الآية رقم : ٢٥	إلى الآية رقم : ٣٥
المجموعة الرابعة	من	الآية رقم : ٣٦	إلى الآية رقم : ٤٩
المجموعة الخامسة	من	الآية رقم : ٥٠	إلى الآية رقم : ٦٠
المجموعة السادسة	من	الآية رقم : ٦١	إلى الآية رقم : ٦٨
المجموعة السابعة	من	الآية رقم : ٦٩	إلى الآية رقم : ٧٦
المجموعة الثامنة	من	الآية رقم : ٧٧	إلى الآية رقم : ٨٣
المجموعة التاسعة	من	الآية رقم : ٨٤	إلى الآية رقم : ٩٥
المجموعة العاشرة	من	الآية رقم : ٩٦	إلى الآية رقم : ٩٩

المجموعة الحادية عشرة من الآية رقم : ١٠٠ إلى الآية رقم : ١٢٣ آخرالسورة.

ويتبع كلّ مجموعة تفسيرها ، حيث توضع الآية أو الكلمة من القرآن بين قوسين ، ويتلوها تفسيرها .

الأمر الثاني : ترقيم الآيات التي استدل بها الشيخ أثناء تفسيره ، وهي كثيرة ، واكمال الآية أو الآيات حسب ما يقتضيه الاستشهاد ، وذكر السورة التي فيها الآية أو الآيات .

الأمر الخامس : تخريج الأحاديث التي ذكرها الشيخ نصاً أو بالمعنى بذكر المصدر ، والدرجة إن لم يكن في الصحيحين .

وقد كنت عزمت على عزو الأقوال التي يذكرها الشيخ في تفسير الآية إلى أهلها وذكر مصادرها من كتب التفسير ، ولكني رأيت أن ذلك يحتاج إلى وقت طويل وتتبع لكتب التفسير التي قلما تقرأ كتاباً منها إلا وجدت الشيخ قد رجع إليه وأخذ منه مؤيداً أو منتقداً .

فلا شك أنه رجع إلى جميع أُمهات كتب التفسير المتداولة ، مثل جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري ، والجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ، وهو قوي الصلة به ويتبعه في ترجيح كثير من الأقوال ، والبحر المحيط لابن حيان ، والتفسير الكبير للفخر الرازي ، والكشاف للزمخشري ، وفتح القدير للشوكاني . ولم يقتصر على كتب التفسير ، بل يرجع إلى كتب الحديث كالأمهات الست وكتب التاريخ ، وكتب الأدب وكتب اللغة ولا سيما النحو ، كما سنرى كثيراً من أبيات الفية ابن مالك ، مفرقة في مواضع عدة للاستشهاد بها على القواعد التي يتعرض لها .

وقد لا أجد فيما بين يدي من الكتب تكملة لبعض الشواهد العربية فادعه كما هو .

بعض ما ارتسم في ذهني من خواطر عن الشيخ .

لقد كان رحمه الله حريصاً كل الحرص على حضوره قاعة الدرس في أول الوقت والغالب أنه لا يتقدم ، أما التأخر عن الوقت ولو قليلاً فلا أذكر أنه حصل .

وكانت تتردد على لسانه عبارة يخاطبنا بها أول جلوسه على الكرسي ، وبعد انتهائه من تفسير كلمة أو آية ، وهي : « اقروا يا إخوان ضَيَّعْتُ[1] الوقت » وكنا نتعجب من ذلك ، لأن الطلبة لا يمزحون معه ولا يمزح بعضهم مع بعض ، وأسئلتهم له قليلة جداً ويحترمونه ويهابون أن يخرجوا عن الدرس في أي موضوع آخـــر .

وحاولنا تحليل تكرار الشيخ لتلك العبارة بدون سبب واضح لنا ، فبدا لبعضنا أنه ربما كان في أيام طلبه العلم أو تدريسه لزملائه أو تلامذته كان يرى من بعض الحاضرين خروجاً عن الدرس أو تباطؤاً في القراءة فكان يقول لهم تلك العبارة ، ثم ألفها فأصبحت تتردد على لسانه .

وكان فضيلة الشيخ قوي العاطفة يتفاعل مع تفسيره للآيات ويظهر لمن يراه ويسمعه أنه يفسر ويتفكر ويتعجب ويخاف ويحزن ويسر بحسب ما في الآيات من المعاني .

كان يحرك يديه ويتحرك هو على مقعده بدون شعور من شدة تفاعله مع معاني الآيات ، فكان مقعده يزحف حتى يصل إلى المقعد الذي يقابله من مقاعد الطلاب .

وكان يسره جداً أن يسمع سؤالاً من أحد الطلاب فيه إشكال يحتاج إلى حل ، كما كان يأسف أن يسمع سؤالاً تافهاً يدل على قلة العلم أو الذكاء عند الطالب ، وكان يقول لصاحب السؤال التافه : يا أخانا من جاء بك إلى هنا ! إشارة منه إلى أنه كان ينبغي أن يكون في مستوى أقل من هذا المستوى .

وكان تارة يقول بعد أن يشرح : والله ما أنا داري يا إخوان . (يعني هل فهمتم أولاً) .

وكان يحب أن يسمع قراءة الطالب الذي يجيد القراءة باللغة العربية الفصحى ولا يلحن ، سواء في قراءة القرآن أو قراءة مذكراته في أُصول الفقه ، ويكره

---

(١) مراده : ضيعتم .

كراهة شديدة **أن يقرأ** من يلحن في قراءته حتى كان الطلاب في الغالب لا يحرص إلا القليل النادر منهم على القراءة أمام الشيخ .

وكان يدخل قاعة الدرس وهو مريض لا يكاد يستطيع الكلام من وجع حلقه ، ولكنه بعد قليل من بدء المحاضرة ينطلق صوته وينسى أنه مريض لشدة تفاعله مع المعاني التي يلقيها .

وعندما اشتدت آلامه وضعف صوته كثيراً استعمل مكبر الصوت ولم ندرك ذلك ونحن معه إلا في أيامنا الأخيرة في الكلية ، واستمر كذلك في السنوات الأخرى بعد أن تخرجنا .

وكان شديد النفور من الفتوى سواء في الفصل الدراسي ـــ أي قاعة الدرس ـــ أو في المسجد أو غيره ، ويقول للسائل : اسأل غيري يا أخانا ـــ وإذا أحرج أجاب جواباً مختصراً بما رجحه بعض أهل العلم ويقول وأنا أقول الله تعالى أعلـم .

وكان يكره كراهة شديدة من لا يحترم أئمة الفقه ويرد أقوالهم وهو غير أهل لأن يقف هذا الموقف ، وله كلام في هذا المعنى ستجده عند قوله تعالى في آخر السورة : « **ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك** »[١] . وكان يثني على ذوى العلم لعلمهم ويكره منهم تشددهم ضد العلماء الكبار كما هو الحال مع ابن حزم الظاهري .

أما أدعياء الاجتهاد الذين يجهلون قواعد العلوم الأساسية فكانت كراهته لهم أشد لفرط جهلهم وغلوهم في وضع أنفسهم في غير موضعها .

اعتـــذار :

لقد فاتتني في سورة هود محاضرتان لم أتمكن من حضورهما :

المحاضرة الأولى : كانت في جزء من الآية الأولى في السورة وهو قوله تعالى : « **الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت** » ولا أدري عن سبب غيابي إلا أني على

(١) الآيتان : ١١٨ ، ١١٩ .

يقين أنه كان لعذر يمنعني من الحضور ، لأني لم أكن أغيب عن محاضرات لأساتذة تقل فائدة محاضراتهم بأضعاف مضاعفة عن محاضرات شيخنا المفسر ، أما محاضراته فكنت أحاول أن أتغلب على أي عذر قد يمنعني من حضورها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

والمحاضرة الثانية : كانت السادسة عشرة من قوله تعالى : « **ولا تمسوها بسوء** » رقم ٦٤ ، لى قوله تعالى : « **ألا بعدا لثمود** » : ٦٨ والآية التي تليها ، وهي قوله تعالى : « **لقد جاءت رُسلنا إبراهيم** » : **٦٩** .

وقد حاولت أن أسد الفراغ بما تيسر لي من المعاني التي جمعتها من كتب التفسير ومن **كلام للشيخ** في هذه السورة في آيات مشابهة ومن كتابه أضواء **البيان ــ إن وجد شيئاً منه مناسباً . وكتبت ذلك ووضحت في نفس المكان أنني قمت بذلك بسبب غيابي** .

هذا مع العلم أن الآية : ٦٩ لم أتعرض لها بشيء غير أني نقلت ما وجدته يتعلق بها في أضواء البيان .

وإني اعتذر للقاريء بإقحام نفسي في مكان لست أهلاً له ، والقصد سد الفراغ ، وقد أشرت إلى مراجعي في كلتا المحاضرتين في مكان كل منهما .

وقد سميت هذا التفسير :

معارج الصعود إلى تفسير سورة هود[1] .

اسأل الله أن ينفعني وكل قاريء له به وأن يثيب صاحبه الثواب الجزيل وأن يأجرني على ما بذلت من جهد في إخراجه ويغفر لي ما قد يكون حصل مني من خطإ في **كتابتي عن شيخنا المفسر رحمه الله ، وما وجده القاريء من صواب فهو** لصاحبه وما وجد من خطأ فمن زلة قلمي .

صلتي بالشيخ :

لقد كان غالب اتصالي بالشيخ في قاعة الدرس بالكلية ، ولكنه كان كثيراً بالنسبة لأيام الدراسة ، لأنه كان يلقي علينا محاضرات التفسير ومحاضرات أصول

(١) قصدت بهذه المعارج المراحل التي مررت بها في إخراج هذا الكتاب . المرحلة الأولى كتابية في الفصل ، والمرحلة الثانية تبييضية مبدئياً ، والمرحلة الثالثة إخراجه في هذه الصورة .

الفقه ، وحضرت بعض محاضراته في المسجد النبوي ، وبعض محاضراته العامة في دار الحديث .

أما ما عدا ذلك فكان قليلاً جداً ، ولا أذكر أني زرته في منزله إلا مرتين لمرضه ، وكنت أسأله بعض الأسئلة في خارج قاعة الدرس ، وقد أجده جالساً في المسجد النبوي وحده قبل إقامة إحدى الصلوات أو بعدها فاسأله بعض الأسئلة ، وكان غالبها في قواعد النحو .

ولكنه زارني بعد مضي اثنتي عشرة سنة من وفاته في منزلي .

إن الذي يقرأ هذا العنوان مجرداً قد يرميني بالتخريف ، ولكن انتظر أيها القاريء لأحكي لك ما جرى :

لقد قمت بترتيب تفسير هذه السورة وتبييض الكتاب في خلال شهر تقريباً ، مع أعمالي الأخرى ، وبعد أن فرغت من ذلك تكاسلت عن كتابة هذه المقدمة التي تعتبر مهمة لتعريف القاريء بالكتاب ، وبدأت في أعمال أخرى .

وبعد خمسة أيام تقريباً من فراغي من التبييض كنت نائماً بعد صلاة الفجر في يوم الأربعاء الموافق ١٤٠٥/٥/٢٣ ، ونومي بعد الفجر قليل ، كان هذا اليوم **من هذا القليل ، فرأيت فضيلة شيخنا قاعداً على كرسي وأمامه صفوف من** المقاعد عليها بعض زملائي وأنا قاعد أمامه مباشرة ، وهو في غاية الصحة ووجهه يتلألأ نوراً ، ولحيته ليست كما عهدتها بيضاء بل هي سوداء فيها قليل من الشيب **مفرق ، وكان المكان الذي رأيته فيه فسيحاً لا بناء به والوقت شبيه بما قُبيل طلوع** الشمس ، ففرحت به جداً وبادرته بقولي : لقد فرغت من تبييض تفسير سورة هود وأرجوا أن تأخذه لتطلع عليه وتصحح ما تجد به من أخطاء فأجابني بعبارة لم أتذكر لفظها ولكن معناها إبداء سروره بهذا العمل ، ثم قال لي : لا أستطيع أن أطلع على ذلك ، فحزنت حزناً شديداً لاعتذاره واستيقظت وأنا على تلك الحال فعلمت سبب اعتذار الشيخ .

ومضى يوم الأربعاء ويوم الخميس ، وفي يوم الجمعة الموافق ١٤٠٥/٥/٢٥هـ رأيت الشيخ مرة أخرى قُبيل أذان الفجر الثاني بخمس دقائق

تقريباً ، وهو قاعد في الأرض مع لفيف من زملائي الذين درسوا عليه ، وكان أحدهم ــ وليس أنا ــ واقفاً يُفسر بعض الآيات تصورت وقتها أنها من سورة التوبة ، وكان الشيخ مصغياً إليه مسروراً جداً ، واستيقظت قبل أذان الفجر بقليل ، وأنا أقول في نفسي : إن زيارة الشيخ لي في يومين متقاربين قد تكون استحثاثاً لي لإخراج هذا الكتاب ، وهذه المرة كان الشيخ فيها في عنفوان شبابه ، له لحية صغيرة بدأ شعرها يخرج وهو غير ذلك الشيخ الكبير السن .

ولقد أحسست بعد هذه الرؤيا بنشاط عجيب وحماس شديد لكتابة المقدمة والفهرسة ، فبدأت كتابة هذه المقدمة بعد صلاة الفجر مباشرة من يوم الجمعة المذكور ، وها أنا قد فرغت منها في يوم الأحد الموافق ١٤٠٥/٥/٢٧هـ في مكتبتي بمنزلي بالعوالي في المدينة المنورة بعد صلاة الظهر ، فلله الحمد والمنة .

أما ترجمة شيخنا المفسر رحمه الله فأكتفي منها بما يلي :

ولد رحمه الله في سنة ١٣٢٥هـ في مسقط رأسه : « تَنْبَه » من أعمال مديرية كيفا بشنقيط وهي دولة موريتانيا الإسلامية الآن .

حفظ القرآن وعُمره عشر سنوات ، ودرس مباديء العلوم والأدب واللغة والفقه المالكي وبقية العلوم على أخواله وغيرهم من مشايخه .

ثم أصبح مدرساً ومُفتياً وقاضياً ، واشتهر بالقضاء أكثر .

سافر للحج واتصل ببعض العلماء في طريقه وذاكر معهم وأعجبوا به وله كتاب عن رحلته ، وقد طبع هذا الكتاب .

أحبه علماء المملكة العربية وبعض أُمرائها وطلبوا منه البقاء في المملكة فبقى وأفاد بما معه من علوم واستفاد في رجوعه للحديث وقراءة المذاهب الفقهية غير مذهب مالك وأصبح يرجح الحكم حسب الدليل ودرّس في المعهد العلمي بالرياض وفي كلية الشريعة . ثم انتقل إلى الجامعة الإسلامية .

وله مؤلفات : منها أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب .

وآيات الصفات ، ومذكرة في أصول الفقه على روضة الناظر وغيرها

توفى رحمه الله ضحى يوم الخميس ١٣٩٣/١٢/١٧هـ بمكة المكرمة بعد أدائه **مناسك الحج ، وصلى المسلمون عليه بعد صلاة الظهر من يوم وفاته ، أم الناس في** الصلاة عليه فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله **بن باز ،** كما صلى عليه المسلمون في المسجد النبوي صلاة الغائب بعد صلاة العشاء من مساء الأحد ، أمهم إمام المسجد النبوي وخطيبه فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح(١) .

رحم الله الشيخ رحمة واسعة ووفق أبناءه وتلاميذه للسير على منهاجه في العناية بكتاب الله وفهم معانيه والعمل بها ، والله وحده المستعان وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

---

(١) راجع ترجمة الشيخ في أضواء البيان (١/٣ ــ ٦٤) طبع الأمير أحمد بن عبد العزيز آل سعود ، وكاتب الترجمة هو فضيلة الشيخ عطية بن محمد سالم وهو ألصق بالشيخ لملازمته له مدة طويلة .

مَعَارِجُ الصُّعُودِ

إِلَى

تَفْسِيرِ سُورَةِ هُودٍ

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي

المولود سنة ١٣٢٥ هـ - المتوفى سنة ١٣٩٣ هـ

كتب عن فضيلة المفسر هذا التفسير تلميذه

عبد الله بن أحمد قادري

أثناء محاضراته التي ألقاها على طلاب كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية في المدينــــة المنورة ، ثم رتبه الكاتب وأخرجه في هــــذه الصورة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾
أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ
كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ
يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾
۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ
عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ
إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ
أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ
مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾
وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ
لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ
مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

١ - مقصد الوحي ووظيفة الرسول ﷺ
وموقف قومه منه

الحمد لله والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه في ربه إلى يوم لقاه .

أما بعـــد ..

فليعلم أنه قد فاتتني المحاضرة الأولى التي ألقاها فضيلة الشيخ المفسر ، وكانت تتعلق بالبسملة وبقوله تعالى : « الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت »

لذلك اضطررت أن أسجل باختصار ما يتيسر لسد الفراغ مستعيناً بالله ثم

بمعلوماتي عن فضيلة الشيخ في ذلك مما سمعته عنه في مناسبات أ

كتابه أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الذي لو كان تفسيراً كاملاً لسور القرآن الكريم لما دعت الحاجة إلى كتابة تفسير هذه السورة الكريمة مما سمعناه منه مشافهة ، فأقول وبالله تعالى التوفيق :

اعلم أن العلماء اتفقوا على أن البسملة جزء من آية في سورة النمل واختلفوا فيما عدا ذلك .

فذهب الإمام الشافعي رحمه الله أنها آية في سورة الفاتحة ، وتردد فيها في السور الأخرى ، فتارة قال أنها آية من كل سورة ، ومرة قال ليست بآية إلا في سورة الفاتحة .

وذهب الإمام مالك رحمه الله أنها ليست آية من كل سورة ، وأخذ بكل قول من هذه الأقوال بعض العلماء[١] .

وقد أفاض المفسرون في تفسير البسملة وما يتعلق بها من أحكام سواء في قراءتها في الصلاة جهراً أو سراً أو غير ذلك ، ولا يتسع المقام لسرد ذلك ويمكن لمن أراد الإطلاع أن يراجع كتب التفسير[٢] .

وقال شيخنا رحمه الله — في تفسير سورة الفاتحة — : « قوله تعالى : « **الرحمن الرحيم** » هما وصفان لله تعالى ، واسمان من أسمائه الحسنى ، مشتقان من الرحمة على وجه المُبالغة ، والرحمن أشد مبالغة من الرحيم ، لأن الرحمن هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا وللمؤمنين في الآخرة ، والرحيم ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة ، وعلى هذا أكثر العلماء ، وفي كلام ابن جرير

---

(١) راجع تفسير : « الجامع لأحكام القرآن » للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، رحمه الله (٩٣/١) .

(٢) راجع تفسير القرطبي المذكور (٩١/١ — ١٠٧) ، وأحكام القرآن للإمام أبي بكر أحمد بن علي الجصاص (٦/١ — ١٨) وأحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي (٢/١ — ٤) .

ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا[١] . وفي تفسير بعض السلف ما يدل عليا **كما قاله ابن كثير[٢] . ويدل له الأثر المروي عن عيسى كما ذكره ابن كثير وغيره** أنه قال عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام : « الرحمن رحمان الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة »[٣] .

وقد أشار تعالى إلى هذا الذي ذكرنا حيث قال : « **ثم استوى على العرش الرحمن** »[٤] . وقال : « **الرحمن على العرش استوى** »[٥] فذكر الاستواء باسمه « **الرحمن** » ليعم جميع خلقه برحمته ، قاله ابن كثير[٦]. ومثله قوله تعالى : « **أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن** » . أي ومن رحمانيته لطفه بالطير وإمساكه إياها صافات وقابضات في جو السماء .

ومن أظهر الأدلة في ذلك قوله تعالى : « **الرحمن علم القرآن** إلى قوله تعالى : **فبأي آلاء ربكما تكذبان** »[٧] . وقال : « **وكان بالمؤمنين رحيما** »[٨] . فخصهم باسمه « **الرحيم** » فإن قيل : كيف يمكن الجمع بين ما قررتم وبين ما جاء في الدعاء المأثور : « رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما » . فالظاهر في الجواب ـــ والله أعلم ـــ أن الرحيم خاص بالمؤمنين كما ذكرنا ، لكنه لا يختص بهم في الآخرة بل يشمل رحمتهم في الدنيا أيضاً ، فيكون معنى رحيمهما رحمته ـــ بالمؤمنين فيهما .

والدليل على أنه رحيم بالمؤمنين في الدنيا أيضاً أن ذلك هو ظاهر قوله تعالى : « **هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً** »[٩] . لأن صلاته عليهم وصلاة ملائكته وإخراجه إياهم من

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي (١/٢ــ٤) .
(٢) ، (٣) تفسير القرآن العظيم (١/١٧ ـــ ٢١) .
(٤) الفرقان : ٥٩ .
(٥) طه٥ .
(٦) تفسير القرآن العظيم (١/٢١) .
(٧) الرحمن : ١ ــ ١٣ .
(٨) ،(٩) الأحزاب : ٤٣ .

الظلمات إلى النور رحمة بهم في الدنيا ، وإن كانت سبب الرحمة في الآخرة أيضاً ، وكذلك قوله تعالى : « **لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العُسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم** »(١) . فإنه جاء فيه بالباء المتعلقة بالرحيم الجارة للضمير الواقع على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار ، وتوبته عليهم رحمة في الدنيا ، وإن كانت سبب الرحمة في الآخرة أيضاً »(٢) .

قوله تعالى : « **الر** » هذا من الحروف المقطعة في أوائل السور وللعلماء فيها **قولان رئيسان :**

القول الأول : أن لها معاني لا يعلمها إلا الله ، فلا يجوز الخوض فيها لأحد ، لأن هذه الحروف مما لم يعهد في كلام العرب التعبير بها على نحو ما ورد في القرآن الكريم ، ولم يبينها رسول الله ﷺ ، والأصل فيما لا يعرف عن طريق الشرع واللغة تفويضه إلى الله تعالى ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه ، قال القرطبي ، رحمه الله : « اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور ، فقال عامر الشعبي ، وسُفيان الثوري وجماعة من المحدثين : هي سر الله في القرآن ، ولله في كل كتاب من كتبه سر . فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه ، ولا يجب أن يتكلم فيها ، ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت ، وروى هذا القول عن أبي بكر الصديق ، وعلى بن أبي طالب رضي الله عنهما »(٣) .

القول الثاني : أن لها معاني معروفة عند العلماء ، وليست من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ـــ عند من يقول : إن المتشابه لا يعلمه إلا الله ـــ أو أن معانيها معلومة ـــ ولو كانت من المتشابه عند من يقول : إن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه(٤) .

---

(١) التوبة : ١١٧ .　　(٢) أضواء البيان (١/١٠١ ـــ ١٠٣) .
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/١٥٤) ، وراجع تفسير ابن كثير (١/٣٥ ـــ ٣٦) .
(٤) راجع أقوال المفسرين للآية الكريمة : « **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم**) . آل عمران : ٧ في تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/٣٤٦) وغيره ، وأضواء البيان .

وقد اختلف أهل هذا القول اختلافاً كثيراً في المراد بهذه الحروف فقال بعضهم : إنها أسماء للسور المفتتحة بها .

وقال آخرون : إنها أسماء لله تعالى .

وقال جماعة : إنها اسماء للرسول ﷺ .

ورجح بعض المحققين أن المقصود من هذه الحروف الإشارة إلى عجز العرب عن الإتيان بمثل هذا القرآن الذي يتألف من نفس الحروف التي يتألف منها كلام العرب ، ويشهد لهذا ذكر القرآن الكريم بعد هذه الحروف في السور المفتتحة بها ، ونصره شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره[1]. وإليه مال شيخنا المفسر رحمه الله فقال : « وأما القول الذي يدل استقراء القرآن على رجحانه ، فهو أن الحروف المقطعة ذكرت في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يخاطبون بها ، وحكى هذا القول الرازي في تفسيره[2] عن المبرد وجمع من المحققين ، وحكاه القرطبي[3] عن الفراء وقطرب ونصره الزمخشري في الكشاف[4] قال ابن كثير : وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية ، وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزى ، وحكاه لي عن ابن تيمية[5] .

ووجه شهادة استقراء القرآن لهذا القول أن السور التي افتتحت بالحروف المقطعة يذكر فيها دائماً عقب الحروف المقطعة الانتصار للقرآن وبيان إعجازه ، وأنه الحق الذي لا شك فيه .

وذكر ذلك بعدها دائماً دليل استقرائي على أن الحروف المقطعة قصد بها إظهار إعجاز القرآن وأنه حق[6] ثم ساق رحم الله الحروف المقطعة التي ذكرت في أوائل السور من سورة البقرة إلى سورة ق والقرآن المجيد .

قلت : وهو واضح في هذه السورة الكريمة ــ اعني سورة هود ــ فإنه ذكر بعد هذه الحروف : « **الر** » الكتاب العزيز : « كتاب » وهو خبر لمبتدإ محذوف تقديره : هذا[7] وهو ــ في الأصل ــ مصدر كتب بمعنى جمع ، ثم سمى

(١) راجع الجامع لأحكام القرآن (١/١٥٥) وتفسير القرآن العظيم (١/٣٨) ، والكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل (١/٩٥) وما بعدها . (٢) (٢/٦) .

(٣) ، (٤) ، (٥) سبق ذكر هذه المراجع في الصفحة السابقة .

(٦) أضواء البيان (٣/٥ ــ ٧) طبع الأمير أحمد ابن عبد العزيز آل سعود .

(٧) أشار إلى ذلك ابن حرير في تفسيره (١١/١٧٩) ومثله القرطبي (٩/٢) .

به المكتوب فيه كتاباً ، والكتاب ــ في الأصل ــ اسم للصحيفة مع المكتوب فيه ، واطلق على الجيش كتيبة لاجتماعه ، وتكتبت الخيل صارت كتائب[1] والمراد به هنا القرآن الكريم المشتمل على السور والآيات التي احتواها المصحف الشريف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس ، **كما قال** تعالى : « **الم ذلك الكتاب لا ريب فيه** »[2] .

قوله تعالى : « **أحكمت آياته** » من حكم ، وهو يأتي بمعنى منع وأتقن وكلاهما مراد هنا ، لأن القرآن الكريم أحكم بمعنى منع الخلل والفساد أن يأتياه ، وهو متقن في أخباره لا يدخلها كذب ، وفي أحكامه العادلة التي لا يعتريها ظلم[3] .

قال ابن جرير رحمه الله : « وأولى القولين بالصواب قول من قال : أحكم الله آياته من الدّخل والخلل والباطل .. وذلك أن إحكام الشيء إصلاحه وإتقانه ، وإحكام آيات القرآن إحكامها من خلل يكون فيها أو باطل يقدر ذو زيغ أن يطعن فيها من قبله »[4]

وقال شيخنا المفسر رحمه الله في معنى المادة في اللغة : « اعلم أن الحكم في اللغة هو المنع ، ومنه قيل للقضاء حكم ، لأنه يمنع من غير المقضي تقول : حكمه كنصره ، وأحكمه كأكرمه ، وحكمه بالتضعيف بمعنى منعه ، ومنه قول جرير :

أبني أُمية أحكموا سفهاءكم . إني أخاف عليكمُ أن تندموا

وقول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

لنا في كل يوم من معد سباب أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

---

(١) راجع الجامع لأحكام القرآن (١٥٨/١) والمُفردات للراغب (مادة كتب) .
(٢) البقرة : ١ ، ٢ .
(٣) راجع القاموس المحيط (مادة : حكم) والمُفردات للراغب الأصفهاني ، نفس المادة .
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨٠/١١) وراجع تفسير القرآن العظيم (٤٣٥/٢) ، والجامع لأحكام القرآن (٢/٩) .

وقال في معنى الإحكام عرفاً : « معنى كونه محكماً : أنه في غاية الإحكام[1]، أي الاتقان ، في ألفاظه ، ومعانيه ، وإعجازه ، أخباره صدق ، وأحكامه عدل ، لا تعتريه وصمة ولا عيب ، لافي الألفاظ ولافي المعاني[2] .

وقوله تعالى : « **آياته** » الآيات جمع آية ، والآية في اللغة العلامة ، وتطلق على العبرة ، كما قال تعالى : « **لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين** »[3] .

وقد وصف الله تعالى آيات القرآن كلها بالإحكام ، كما في هذه الآية : « **أحكمت آياته** » ووصفها تعالى بأنها كلها متشابهة كما في قوله تعالى : « **الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد** »[4] . ووصف تعالى بعض آياته بالإحكام وبعضها بالتشابه كما في قوله تعالى : « **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب** »[5] .

وقد يفهم من لا علم له بحقائق التنزيل وتفسير علماء المسلمين له أن في ذلك تعارضاً أو اضطراباً ، لذلك تصدى لبيان ذلك ودفع ما قد يتوهم من تعارض شيخنا المفسر رحمه الله ، فقال : قوله تعالى : « **هو الذي أنزل عليكم الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات** » الآية .

هذه الآية الكريمة تدل على أن من القرآن محكماً ، ومنه متشابهاً وقد جاءت آية أُخرى تدل على أن كله محكم ، وآية تدل على أن كله متشابه ، أما التي تدل على إحكامه فهي قوله تعالى : « **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** »[6] . وأما التي تدل على أن كله متشابه فهي قوله تعالى : « **كتاباً متشابهاً**

(١) مذكرة أُصول الفقه ص ٧ طبع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .
(٢) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ــ تكملة أضواء البيان (٤٧/١٠) .
(٣) يوسف ٧ وراجع لسان العرب .
(٤) الزمر : ٢٣ . (٥) آل عمران : ٧ . (٦) هي آية هود الأولى التي نحن بصدد تفسيرها .

مثاني »[1] . ووجه الجمع بين هذه الآيات أن معنى كون كله محكماً . أنه في غاية الإحكام ، أي الاتقان في ألفاظه ومعانيه ، أخباره صدق ، وأحكامه عدل ، لا تعتريه وصمة ولا عيب ، لا في الألفاظ ولا في المعاني .

ومعنى كون متشابهاً أن آياته يشبه بعضها بعضاً في الحُسن والصدق والإعجاز والسلامة من جميع العيوب ، ومعنى كون بعضه محكماً وبعضه متشابهاً ، أن المحكم منه ، هو واضح المعنى لكل الناس ، كقوله : « **ولا تقربوا الزنا** »[2] . و « **لا تجعل مع الله إلهاً آخر** »[3] . والمتشابه هو ما خفى علمه على غير الراسخين في العلم ، بناء على أن الواو في قوله تعالى : « **والراسخون في العلم** »[4] عاطفة ، أو هو ما استأثر الله بعلمه ، كمعاني الحروف المقطعة في أوائل السور ، بناء على أن الواو في قوله تعالى : « **والراسخون في العلم** » استئنافية لا عاطفة »[5] .

فالإحكام العام لآي القرآن الكريم هو كونها متقنة صادقة الأخبار عادلة الأحكام .. والتشابه العام كون بعضها يشبه بعضاً في ذلك وفي السلامة من العيوب والخلل .. وإحكام بعضها كونها واضحة لا غموض فيها لكل الناس ، وتشابه بعضها في كون معانيها قد تخفي على غير الراسخين في العلم ، أو عليهم وعلى غيرهم .

وجملة أحكمت محلها الرفع نعت لكتاب[6] أي محكمة آياته قوله تعالى : « **ثم فصلت** » تفصيل الشيء جعله مفصلاً أي مبيناً واضحاً لا إبهام فيه ، وفي معنى تفصيل الآيات هنا وجوه :

الأول : أن المراد بينت بدلائل التوحيد والنبوة والأحكام والمواعظ والقصص .

---

(١) وهي آية الزمر السابقة . (٢) الأسراء : ٣٢ . (٣) الأسراء :٢٢ .

(٤) هي آية آل عمران السابقة .

(٥) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (٤٧/١٠ ــ ٤٨) . ومن أقرب مراجع الشيخ في هذا ــ فيما يبدو لي ــ تفسير القرآن العظيم لابن كثير رحمه الله (٣٤٤/١ ــ ٣٤٥) ، وراجع كتاب البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٦٨/٢) وما بعدها .

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٢/٩) والكشاف (٢٥٨/٢) .

الثاني : أنها جعلت فصولاً ، سورة سورة وآية آية .

الثالث : أنها فرقت في التنزيل وما نزلت جملة واحدة .

الرابع : أنها جعلت فصولاً : حلالاً وحراماً ، وأمثالاً ، وترغيباً وترهيباً ومواعظ وأمراً ونهياً ، لكل معنى فيها فصل قد أفرد به غير مختلط بغيره[1] وهذه الوجوه وغيرها تدخل في معنى تفصيل الآيات ، فهي من اختلاف التنوع وليست من اختلاف التضاد .

وقال ابن كثير رحمه الله : « **أحكمت أياته ثم فصلت** » **أي هي محكمة في** لفظها مفصلة في معناها ، فهو كامل صورة ومعنى ، وهذا ما روى عن مجاهد واختاره ابن جرير »[2] .

وإذا كان معنى التفصيل إنزال القرآن منجماً بعد أن أنزل إلى السماء الدنيا جملة ، فإن ثم هنا تكون على بابها من الترتيب والتراخي الزمني ، أما إذا أُريد به المعاني الأخرى فإنها لا تكون على بابها ، وإنما تكون للترتيب الذكري ، قال الزمخشري : « فإن قلت : ما معنى ثم ؟ قلت : ليس معناها التراخي في الوقت ولكن في الحال ، كما تقول : هي محكمة أحسن الأحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل ، وفلان كريم الأصل ثم كريم الفعل »[3] ومجيء ثم لمجرد الترتيب الذكري وارد في اللغة العربية ، وقد تعرض لذلك شيخنا المفسر رحمه الله عند قوله تعالى في سورة البقرة : « **ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس** »[4] على رأي جماهير العلماء بأن الآية نزلت آمرة لقريش أن يقفوا بعرفات كما يقف الناس ، إذ كانت قريش تقف بالمزدلفة وترى أن ذلك أليق بها من الوقوف بعرفات لأن مزدلفة من الحرم وعرفات ليست منها ، واستشهد الشيخ علي مجيء ثم للترتيب الذكري بقوله تعالى : « **فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة**

(١) راجع التفسير الكبير للرازي (١٨٧/١٧) والبحر المحيط لأبي حيان (٢٠٠/٥) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣/٩) والكشاف للزمخشري (٥٧/٢) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٣٥/٢) وراجع جامع البيان عن تأويل أي القرآن لابن جرير الطبري (١٧٩/١١ — ١٨٠) .

(٣) الكشاف (٢٥٨/٢) وراجع التفسير الكبير للرازي (١٧٩/١٧) والبحر المحيط لابن حيان (٢٠٠/٥) .

(٤) البقرة : ١٩٩ .

أو مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة »[١] .

وبقول الشاعر :

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده[٢]

قوله تعالى : « **من لدن حكيم خبير** »[٣] .

قال : سبق القول : إن في قوله تعالى : « **احكمت آياته ثم فصلت** » دليلاً على جواز تأخير البيان إلى وقت الحاجة ، كما هو مذهب جمهور العلماء[٤] .

« **من لدن** » أي من عند « **الحكيم** » هو الذي يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها ، والحكمة وضع الأمور في مواضعها وإيقاعها في مواقعها ، وليس المراد بالحكمة ما يعنيه المنطقيون الفلسفة ، ولا بالحكماء الفلاسفة ، بل هم العلماء والفقهاء الشرعيون عندنا .

واصل هذه المادة (ح ك م) المنع .

وكلما كثر عند الشخص العلم النافع التام كان أكثر حكمة ، وكلما نقص علمه كان أقل حكمة ، فالحكيم الكامل من يحيط علمه بكل شيء فلا تخفى عليه خافية ، وهذا خاص بالخالق سبحانه وتعالى ، لذلك لا يجري عليه لو وليت ، بخلاف غيره من المخلوقين فإنه قد يعمل العمل يظنه في غاية من الاتقان ، ثم يتبين له أنه جهل وخرق ، وقد قال رسول الله ﷺ : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدى »[٥] فجرت عليه لو مع أنه سيد الخلق وينزل عليه الوحي صباحاً ومساء ، بخلاف رب العالمين .

---

(١) البلد : ١٣ — ١٧ .

(٢) راجع أضواء البيان (٢٠٣/١) ومغنى اللبيب لابن هشام الأنصاري (١٢٤/١ — ١٢٥) طبع لاهور ، باكستان .

هذا آخر ما حرصت على كتابتهَ على ما فاتني من درس الشيخ الأول وبالله تعالى التوفيق .

(٣) من هنا يبدأ تفسير شيخنا ، رحمه الله ، وكان ذلك في الدرس الثاني في تاريخ ١٣٨٤/٦/٧هـ .

(٤) قلت : وهذا يدل أنه يرى أن ثم جاءت هنا على بابها في الترتيب الزمني .

(٥) البخاري (١٢٨/٨) ومسلم (٨٧٩/٢) من حديث عائشة .

وقالت الخنساء :

ترى الأمور سواء وهي مقبلة   وفي عواقبها تبيان ما التبسا

و « الخبير » في اللغة أخص من العليم ، **فلا** تطلق مادة « خبر » إلا على ما من شأنه أن يخفي ، ولذا يُقال : « على الخبير سقطت » ، وقال الشاعر :

خبير بنو لهب فلاتك ملغياً   مقالة لهبي إذا الطير مرت

والله عز وجل يقول : « **ولا ينبئك مثل خبير** » (١) .

ويُقال : أنا عالم أن الواحد نصف الاثنين ، ولا يُقال : أنا خبير بذلك ، فالخبير هو العالم بخفايا الأشياء وحقائقها ، وهذا الوصف من أكبر الدواعي لإعظام الله ومراقبته وطاعته في أمره ونهيه ، لأنه مطلع على أسرار الضار والنافع ، وكل التشريعات التي يطبقها الآن أكثر الدول غير تشريع الله هو تشريع أخرق جاهل .

قوله تعالى : « **ألّا تعبدوا إلا الله** » تحتمل « أن » المدغمة في « لا » معنيين : الأول : كونها مصدرية ، بناء على التحقيق من أن المصدرية تكون في الجُمل الإنشائية ، وعلى هذا فلا إشكال فالمصدر المنسبك من أن وما دخلت عليه مجرور بحرف جر محذوف ، تقديره : بأن ، أو لأن ، وحذف حرف الجر مع أنْ وكذا أنّ مطرد ، كما قال ابن مالك :

وعد لازماً بحرف جر   وإن حذف فالنصب للمنجر

نقلاً ، وفي أنّ وأنْ يطرد   مع أمن لبس كعجبت أن يدوا

واختلف في محل أنّ وأن من الإعراب أهو النصب أم الجر ؟ وفائدة هذا الخلاف تظهر في التابع ، فالخليل والكسائي يقولان : محله النصب ، والأخفش الصغير يقول : محله الجر ، ومن شواهده : قول الشاعر :

فما زرت ليلى أن تكون حبيبة   إلى ولا دين بها أنا طالبه

---

(١) فاطر : ١٤ .

وجوز سيبويه الأمرين(١) .

والذين خالفوا الأخفش خرجوا ما استشهد به على عطف التوهم ، على تقدير وجوده ، فإنه جائز ، ومنه قول الشاعر :

بدالي أني لست مدرك ما مضى ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جارياً

بخفض « سابق » عطفاً على ما توهمه الشاعر من دخول حرف الجر الذي هو الباء على خبر ليس ، وهو مدرك ، على حد قول ابن مالك :

وبعد ما وليس جر البا الخبر (وبعد لا ونفي كان قد يجر) .

المعنى الثاني : أن تكون أن تفسيرية ، وضابط أنْ التفسيرية أن يتقدمها معنى القول دون حروفه ، وهو هنا ظاهر ، لأن التفصيل فيه معنى القول .

وهنا يرد سؤال ، وهو : كيف يفسر التفصيل بالتوحيد والاستغفار والتوبة فقط ، مع أن الواجبات كثيرة جداً ؟

والجواب أن الاستغفار والتوبة يشملان كل الواجبات والمحرمات (٢) . وهناك جواب آخر أجيب به عن قوله تعالى في سورة الأنبياء : « **قل إنما يوحى إليّ أنما إلٰهكم إلٰه واحد فهل أنتم مسلمون** » (٣) . إذ حصر الوحي في الألوهية ، والجواب أن توحيد الألوهية هو معنى كلمة : « لا إله إلا الله » وهي بلا شك متضمنة لجميع الشرائع فيدخل في ذلك فعل كل واجب ، وغيره ، كالمندوب ، وترك كل محرم وغيره ، كالمكروه .

والعبادة في اللغة : الذل والخضوع ، فكل مذلل معبد ، ومنه قيل للرقيق عبد ، وقال الشاعر :

تبارى عتاقاً ناجيات وأتبعت وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد

---

(١) راجع شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (٢/١٥١ — ١٥٢) إلا أنه نسب في الأشموني مذهب النصب إلى سيبويه — مع الفراء — ولم يذكر أنه جوز الجر ، شرح الأشموني على الألفية ، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، نشر دار الكتاب العربي بيروت (١/١٩٧ — ١٩٨) .

(٢) لأن الذي يترك الواجب أو يفعل المحرم ويتوب توبة نصوحا لا يترك أمر الله ونهيه ، ولأن التوحيد يستلزم الطاعة .

(٣) الأنبياء : ١٠٨ ، وراجع أضواء البيان (٣/٧ — ٨)

وفي الإصطلاح : التقرب إلى الله جل وعلا بامتثال ما شرع وأمر به ، واجتناب ما نهى عنه على وجه الخضوع والذل والمحبة .

والمعنى : لا تتقربوا لأحد بشيء مما أمرتم بالتقرب به إليه عز وجل .

والاستثناء في قوله : « إلا الله » مفرغ ، أي لا تعبدوا أحداً إلا الله ، وقد أشار ابن مالك إلى الاستثناء المفرغ بقوله في الألفية :

وإن يفرغ سابق إلا لما   بعدُ يكن كما لو إلا عدما

وقوله تعالى : « **نذير وبشير** » أي نذير إن عبدتم معه غيره ، بشير إن عبدتموه وحده .

ونذير فعيل بمعنى مُفعِل ، وهو كثير ، ومنه : عذاب أليم ، أي مؤلم ، ووجع بمعنى موجع ، والمنذر اسم فاعل الإنذار وهو الإعلام والتهديد المقترن بتخويف خاص ، فالنسبة بين الإنذار والإعلام العموم والخصوص المطلق .

وبشير ، أي مبشر بما عنده لكم من الخير والرحمة ، والبشارة هي الإخبار بما يسر ، وربما أطلقت على ما يسوء ، كما قال تعالى : « **فبشرهم بعذاب أليم** »[١] .

وقال الشاعر :

يبشرني الغراب ببين أهلي   فقلت له ثكلتك من بشير

وهو عند علماء البلاغة من الاستعارة العنادية ، ومعناها المضادة والمناقضة[٢] .

قوله تعالى : « **وأن استغفروا ربكم** » معطوف على قوله تعالى : « **ألا تعبدوا** » من عطف الأمر على النهي ، وهو جائز كثير ، وكذلك العكس ، لأنه من عطف الجمل الإنشائية على مثلها .

والاستغفار طلب المغفرة ، والغفر الستر والتغطية ، والمراد ستر الأمور

---

(١) آل عمران : ٢١ ، والتوبة : ٣٤ ، والانشقاق : ٢٤ .

(٢) سيأتي زيادة بيان لهذه الاستعارة عند تفسير قوله تعالى : « **بئس الرفد المرفود** » الآية : ٩٩ .

وتغطيتها بعفو الله عز وجل ، وليس المراد الاستغفار باللسان مع تصميم القلب على ما لا ينبغي ، فإن هذا تلاعب وليس استغفاراً .

قوله تعالى : « **ثم توبوا إليه** » أي ارجعوا إليه تائبين من كل ذنب بالندم والإقلاع والعزم على عدم العود ، وفائدة الترتيب بثم كون الإنسان قد يستغفر ثم يبقى متلبساً بما لا ينبغي فيتوب إلى الله منه والتراخي يفيد أن كل ذنب يذنبه في المستقبل يجب عليه أن يتوب إلى الله منه .

قوله تعالى : « **يمتعكم** » مجزوم في جواب الطلب بشرط مقدر ، أي إن تعبدوا الله يمتعكم ، والمتعاطفات بالواو ــ وهي الشروط هنا ــ لا يتعين المشروط إلا بجميعها ، بخلاف المتعاطفات بأو فإنه يتعين بأحدها ، أو ببعضها .

ومتّع على وزن فعل بتشديد العين ، قياس مصدره التفعيل كالتمتيع ، إلا أنه سمع الفَعَال ، كسحاب ، بمعنى التفعيل ، كبيَّن بياناً وطلق طلاقاً ، ومنه ــ هنا ــ متاعاً .

والمراد بالمتاع حصول البُلْغة والراحة في الشئون الدنيوية ، فيشمل جلب النفع ودفع الضر ، ومثله الحياة الطيبة المذكورة في سورة النحل[1] والدليل أن المراد به التمتيع الدنيوي قوله تعالى بعد ذلك : « **ويؤت كل ذي فضل فضله** » وكذلك قوله تعالى في نفس السورة في قصة هود مع قومه : « **ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم** »[2] . ومما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى : « **إلى أجل مسمى** » فإن النعيم الذي له أجل مسمى ــ أي محدود ينتهي عنده ــ هو نعيم الدنيا ، أما نعم الآخرة فلا منتهى لها[3] .

وفي هذا ترغيب للمذنبين في التوبة إلى الله واستغفاره والبعد عن معاصيه .

قوله تعالى : « **ويؤت كل ذي فضل فضله** » معطوف على قوله : يمتعكم ، ومعناه : يعطي ، من آتى .

---

(١) يشير شيخنا رحمه الله إلى الآية رقم ٩٧ من سورة النحل ، وهي قوله تعالى : « **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** » .

(٢) الآية : ٥٢ .

(٣) راجع أضواء البيان (٣/ ٩) .

« **كل ذي فضل فضله** »أي كل ذي عبادة وطاعة ، يعطيه فضله ، أي ثوابه الجزيل في الآخرة ، وبذلك يجمع الله لمن أطاعه بين متاع الدنيا وثواب الآخرة .

قوله تعالى : « **وإن تولوا** » يحتمل أن يكون ماضياً مسنداً للغائبين ، ويحتمل أن يكون مضارعاً مسنداً للمخاطبين ، على حذف إحدى التائين ، كما قال ابن مالك في الألفية :

وما بتائين ابتدى قد يقتصر ‍ ‍ ‍ فيه على تا كتبين العبر

وهذا الأخير هو المتعين هنا بدليل الخطاب قبله[1] وبعده[2] .

والتولي الأعراض والصدود ، أي إن تعرضوا عما فصل في هذا القرآن العظيم ..

قوله : « **فإني أخاف عليكم** » الخوف يكون من الأمر المشكوك فيه في المستقبل ، وربما أطلق على الأمر اليقيني ، ومنه قول الشاعر :

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة ‍ ‍ ‍ تروي عظامي من نداها عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فإنني ‍ ‍ ‍ أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

قوله تعالى : « **عذاب يوم كبير** » كبير نعت لعذاب عند جماعة وخفض للمجاورة ، وهو نعت ليوم عند آخرين ، ووصف اليوم بالكبر يدل على عظم عذابه الكائن فيه .

قوله تعالى : « **إلى الله مرجعكم** »[3] مرجع مصدر ميمي ، أي رجوعكم والقياس فيه وفيما ماثله فتح العين ، ولكنه كسر سماعاً ، والسماع مقدم على القياس :

« **إن السماع مانع القياس** » .

والنكتة في تقديم المعمول « إلى الله » إفادة الحصر ، أي إليه وحده لا إلى غيره ، ومعناه أنكم ترجعون إليه يوم القيامة ، لأنه يحييكم بعد موتكم ويُحاسبكم على أعمالكم .

---

(١) في قوله تعالى : « **يمتعكم** » . ‍ ‍ ‍ (٢) في قوله تعالى : « **فإني أخاف عليكم** » .

(٣) ابتداء المحاضرة الثالثة في يوم الأربعاء ١٣٨٤/٦/٨هـ .

قوله : « **وهو على كل شيء قدير** » أي قادر ، وهذه الصفة التي هي صفة القدرة هي التي يوجد الله جل وعلا بها الممكنات ، وهو تعالى قادر على ما يشاء وما لم يشأ ، مثال ذلك أنه تعالى شاء إيمان أبي بكر وهدايته وقد هداه للإيمان ، ولم يشأ إيمان أبي جهل ، وهو قادر عليه ، ولم تتعلق به مشيئته فلم يوجده .

وكل صفات الله عز وجل من الكمال بحيث لو تصور شيء من المبالغة في الصفة فهي فوق ذلك .

وأما قوله تعالى : « **وهو على جمعهم إذا يشاء قدير** »(١) فهو معلق بإذا ، والمعلق بإذا يفيد تحقق الشيء ، فهو يدل على اليقين .

والشيء يطلق على كل موجود ، ويطلق على الله تعالى لأنه موجود ، كما قال تعالى : « **قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم** »(٢) ولا يطلق على المعدوم خلافاً للمعتزلة ، ولا دليل لهم في قوله تعالى : « **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** »(٣) لأنه أطلق عليه شيء نظراً لتحقق وقوعه وتيقنه .

قوله تعالى : « **ألا إنهم يثنون صدورهم** » وفي قراءة ابن عباس : « تثنوني صدورهم » واختلف في معنى ثنائهم صدورهم على أقوال :

القول الأول : أنهم يعرضون عن الحق ويزعمون أن كفرهم يخفي على الله جل وعلا ، ومن أساليب العرب أن يُقال : أقام صدرهُ إذا اتجه إلى الشيء ، وثناه إذا اعوج عنه ، ومن إطلاق إقامة الصدر على ما ذكر قول الشنفري :

أقيموا بني عمي صدور مطيكم ... فإني إلى قوم سواكم لأميل

ومن إطلاقهم الاعوجاج على الانثناء قول الشاعر :

خليليّ عوجا بارك الله فيكما ... على دارمي من صدور الركائب

أي ميلاً إليها .

القول الثاني : إنهم يعطفون صدورهم ويضمونها على ما في داخلها من الكفر الذي يخفونه ، ويدل لهذا قوله تعالى : **ليستخفوا منه** » .

(١) الشورى : ٢٩ . (٢) الأنعام : ١٩ . (٣) يس : ٨٢ .

القول الثالث : أنها نزلت في المنافقين ، كانوا إذا مر بهم النبي ﷺ جعلوا ثيابهم عليهم وتغطوا بها منه ، وعلى هذا يكون الضمير في « منه » عائداً إلى النبي ﷺ .

والظاهر أن الضمير يعود إلى الله جل وعلا وأن بعض الكفار كانوا يستخفون بكفرهم ويظنون أن الله لا يعلم ذلك .

القول الرابع : أنها نزلت في بعض المسلمين ، كانوا لا يجامعون أزواجهم ، ولا يقضون حاجتهم إلا إذا كانوا في ستر من الله عز وجل يستحيون أن يكونوا بدون حجاب .

والاستخفاء : الاستتار ، وهذا من جهل الكفار الذين كان بعضهم يغلق على نفسه الأبواب ويتغطى بالثياب ويعمل ما يريد من المعاصي ، ظناً منه أن الله لا يعلم ذلك .

قوله تعالى : « **ألا حين يستغشون ثيابهم** » أي يجعلونها عليهم ويتغطون بها ، وهذا مثل ما فعل قوم نوح مع نبيهم ، كما قال تعالى : « **وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً** »(١) .

قوله تعالى : « **يعلم ما يسرون وما يعلنون** » أي إنه تعالى يعلم ما يخفون ، بل أخفى مما يخفون ، ويعلم ما يظهرون ، قال الله تعالى في سورة طه : « **يعلم السر وأخفى** »(٢) فهو يعلم ما يخطر على القلب وما لا يخطر عليه مما سيخطر فيما بعد ، وهل يجهل خطرات القلوب خالقها ؟

قوله تعالى : « **إنه عليم بذات الصدور** » أي بالضمائر المكنونة التي هي صاحبة الصدور ، وخطراتها(٣) والصدر هو محل العقل والفكر ، كما قال تعالى : « **إنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور** »(٤) . فالآية تدل أن المركز الرئيسي للعقل هو الصدر خلافاً لما زعمه الفلاسفة القائلون : إن مركزه

---

(١) نوح : ٧ .
(٢) طه : ٧ .
(٣) راجع أضواء البيان (٩/٣ — ١٣) .
(٤) القصص : ٤٦ .

الدماغ ، استدلالاً منهم بكون خلل الدماغ يكون خللاً في العقل ، ووفق جماعة بين الرأيين بأن قالوا : هو في القلب وله اتصال بالدماغ ، فسلامته مشروطة بسلامة الدماغ ، والشرط خارج عن الماهية كما هو معروف .

قوله تعالى : « **وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها** » الدابة اسم فاعل دب مؤنثة بالتاء ، وهي شاملة لكل ما يدب ، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم ، بل هي من صيغه ، ولكنها تفيده ظاهراً ، إلا إذا زيدت قبلها مِن فإنها تفيد العموم نصاً ، كما هنا ، وهذا أحد المواضع الثلاثة التي تفيد فيها النكرة التنصيص على العموم . والموضع الثاني إذا بنيت النكرة على الفتح مع لا النافية للجنس ، كما قال ابن مالك في الألفية :

وركب المفرد فاتحاً كلا   حول ولا قوة ....

الموضع الثالث : أن تكون النكرة ملازمة للنفي ، كديار ، ولا تطرد زيادة من للتنصيص على العموم إلا في ثلاثة مواضع :

الموضع الأول : قبل المبتدأ ، كما هنا .

الموضع الثاني : قبل الفاعل ، كقوله تعالى : « **لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون** »(١) .

الموضع الثالث : قبل المفعول به ، كقوله تعالى : « **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** »(٢) . وليس المراد هنا من الدابة العرف الخاص قطعاً(٣) .

و « على » في قوله تعالى : « **على الله رزقها** » تدل على لزوم هذا الشيء ، والله سبحانه هو الذي التزم بذلك بدون أن يلزمه أحد من خلقه .

والرزق ما يسوقه الله لخلقه ، ومنه الإنسان ، ليقيم به شئون حياته وبعضهم

---

(١) القصص : ٤٦ .   (٢) الأنبياء : ٢٥ .

(٣) والعرف الخاص هو ذوات الحافر التي تركب ، وليس مراداً قطعاً لما ذكر من إرادة العموم الذي أفادت من التنصيص عليه ، وذلك واضح من شمول رزق الله لكل ما دب ، ولو أريد العرف الخاص لضاع هذا الشمول راجع المادة في القاموس المحيط ، والمفردات للراغب الأصفهاني .

لا يطلقه إلا على ما كان حلالاً ، وليس الحرام عندهم رزقاً بل هو معصية ارتكبها صاحبها من عند نفسه ، والصحيح أن ذلك كله بمشيئة الله وقدرته ، كما هو مذهب أهل السُنَّة .

قوله تعالى : « **ويعلم مستقرها ومستودعها** » المستقر مكان الاستقرار والمستودع مكان الاستيداع ، وكل فعل زاد على ثلاثة أحرف فاسم مكانه واسم زمانه واسم مفعوله كلها ومصدره الميمي تكون على زنة اسم المفعول ، كما في هذا الموضع .

والاستقرار السكون وعدم الحركة ، هذا أصله ، والمراد بالمستقر هنا الأرض التي تحيا عليها الدواب ، والمستودع المكان الذي تموت فيه ، وقيل المستقر في الأرحام ، والمستودع في الأصلاب والآية شاملة للجميع ، فأي محل استقرت فيه أو استودعت فيه فهو عالم به وبها ، ومتكفل بجميع رزقها ، وعلمه محيط بكل شيء .

قوله تعالى : « **كل في كتاب مبين** » أي بين ، والكتاب هو اللوح المحفوظ ، والعرب تستعمل أبان وبيّن متعديين ولازمين فمن أمثلة اللازم في أبان قول الشاعر :

وإذا آباؤنا وأبوك عدوا أبان المقرفات من العراب

وقول الآخر :

ولو دب ذر فوق ضاحي جلدها لأبان من آثارهن حدور

ومنه اسم الفاعل مبين ، كما في الآية هنا ، بمعنى ظاهر ، والمتعدى بمعنى أظهر وهو في الغالب الأكثر استعمالاً .

قوله تعالى : « **وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء** » أصل الخلق التقدير ، تقول : خلقه إذا قدره ، ومنه قول الشاعر :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى

ولما كان الله جل وعلا إذا قدر أمراً نفذه لا يستعصى عليه شيء صار الخلق في حقه يطلق على ما يقدره وما يفريه ، والمعنى أنه تعالى خلق السموات والأرض . أي قدرها ثم فراها .

والسماء تطلق في اللغة على كل ما علاك ، ومنه قوله تعالى : « **فليمدد بسبب إلى السماء** »[١] أي بحبل إلى سقف البيت[٢] .

وقال الشاعر :

وقد يسمى سماء كل مرتفع وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

والمراد بالسموات هنا السبع الطباق التي طرقها الرسول ﷺ ليلة الإسراء وكانت لها أبواب كما في الصحيح[٣] .

والمراد بالأرض الأرضون السبع ، ولم يأت لفظ الأرض مجموعاً في القرآن ، وإنما عرف أنها سبع من قوله تعالى : « **ومن الأرض مثلهن** »[٤] .

والذين ينكرون وجود السموات في غاية من الجهل والسفه ، ولا شك أن هذا الرب العظيم الذي يخلق هذه المخلوقات العظيمة هو الجدير بالطاعة والعبادة وحده ، كما أنه هو الخالق وحده .

قوله تعالى : « **في ستة أيام** »[٥] جاء تفصيل هذه الأيام في سورة « حم » السجدة في قوله جل وعلا : « **قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين** » وهما الأحد والاثنين « **وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء** » أي هذه في يومين ، وهما الثلاثاء والأربعاء ، وهما بالإضافة إلى اليومين الذين خلق فيهما الأرض أربعة أيام « **للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين** »

(١) الحج : ١٥ .
(٢) راجع جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (١٢٥/١٧) .
(٣) راجع صحيح البخاري (٢٤٨/٤ ــ ٢٥٠) وصحيح مسلم (١٤٥/١) وما بعدها .
(٤) الطلاق : ١٢ .
(٥) من هنا بدأت المحاضرة الرابعة في ١٣٨٤/٦/١١هـ .

وهما الخميس والجمعة وفي آخر يوم الجمعة خلق آدم عليه السلام « **وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم** »[1] .

وهنا يرد سؤال ، وهو : إن الأيام إنما عرفت بالشمس والقمر وقد سميت ــ أي الأيام ــ قبل خلقهما ــ أي الشمس والقمر ــ فما الجواب عن ذلك ؟

الجواب أن الله جل وعلا عالم بمقدار الأيام قبل خلق الشمس والقمر ، وإيجاده إياهما لا يزيده علماً بها ، وهو الذي سماها قبل وجود الشمس والقمر الذي هو خالقهما .

وإنما خلق السموات والأرض وما فيهما في ستة أيام مع أنه قادر على خلق ذلك كله في أقل من لحظة ليرى خلقه (ويعلمهم) (الرفق والتثبت في الأمور .. وحكمة أخرى خلقها في ستة أيام لأن لكل شيء عنده أجلاً »[2] .

والعرش أصله سرير المُلك ، ويطلق على السقف ، والمراد به هنا عرش الرحمن الذي ذكره الله عز وجل في سبعة مواضع من كتابه وأنه استوى عليه سبحانه وتعالى[3] .

---

(١) فصلت : ٩ ــ ١٢ .

(٢) ينتهي كلام شيخنا المفسر عند قوله : ليرى خلقه ولم أتمكن من كتابة ما بعده لسرعة كلامه ، وما بين القوسين الأولين أثبته أنا لأصل به كلام المفسر بما بين القوسين الأخيرين ، وهو من كلام القرطبي رحمه الله في تفسيره (٢١٩/٧) . وراجع التفسير الكبير للفخر الرازي (٩٩/١٤) .

(٣) المواضع السبعة التي أشار إليها شيخنا المفسر هي :

الموضع الأول : قوله تعالى : « **إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش** » الآية : ٥٤ من سورة الأعراف .

الموضع الثاني : قوله تعالى : « **إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر** » الآية : ٣ من سورة يونس .

الموضع الثالث : قوله تعالى : « **الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر** » الآية : ٢ من سورة الرعد .

الموضع الرابع : قوله تعالى : « **تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العُلى الرحمن على العرش استوى** » الآيتان : ٤ ، ٥ من سورة طه . =

وفي هذه الآية دلالة على أن العرش موجود قبل خلق السموات والأرض وإن الماء كان تحته ، ولم تكن حينئذ أرض ولا سماء ، وهو سبحانه وتعالى أعلم بكيفية استوائه على عرشه .

قوله تعالى : **ليبلوكم أيكم أحسن عملا** » بين الله جل وعلا في هذه الآية أن الحكمة في خلق السموات والأرض وما فيهما إنما هي الابتلاء والاختبار وأن خلقه لذلك ليس للعب ولا للعبث ، كما قال تعالى : « **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار** »[1] إنما خلقهما كي يجعلهما عبراً وآيات ، ويخلق فيهما خلقاً يأمرهم وينهاهم ويبين لهم الخير والشر ويدعوهم إلى الأول ويحذرهم من الثاني ، حتى يظهر من يخافه ويعلم أنه رقيب عليه ، فيقوم مقام المشفق الخائف ، ومن لا يخافه ولا يؤثر فيه الزاجر الأعظم والواعظ الأكبر الذي هو درجة الإحسان ، فعل كل ذلك سبحانه لتظهر عدالته وفضله وكرمه بجزاء الظالمين العاصين ما يستحقون من عذاب ، وإثابة المطيعين الخاضعين ، فإنه لو كان هناك صفة الرحمة فقط لما كان مقتضى الخوف منه موجوداً ، كما أنه لو وجدت صفة العظمة والجبروت فقط لما كان هناك ما يقتضي طمع المخلوق في إثابته وفضله وكرمه .

وهنا قد يسأل طالب النجاح عن الطريق التي يتوصل بها إلى الفوز برضا الله جل وعلا .

والجواب : أن جبريل عليه السلام قد بين هذه السبيل التي تضمن لسالكها النجاح ، فقد جاء إلى الرسول ﷺ وسأله عن أصول الدين ــ أركان الإسلام والإيمان ــ وعن السبيل الموصلة إلى تحقيقها ، فقال : « أخبرني عن

= **الموضع الخامس** : قوله تعالى : « **الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً** » الآية : ٥٩ من سورة الفرقان .

الموضع السادس : قوله تعالى : « **الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون** » الآية : ٤ من سورة السجدة .

الموضع السابع : قوله تعالى : « **هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير** » الآية : ٤ من سورة الحديد . وراجع تفسير القرآن العظيم (٤٣٨/٢) .

(١) ص : ٢٨ .

الإحسان »[1] . وكان قصده تعليم الصحابة ، رضي الله عنهم ذلك فبين الرسول ﷺ أن الإحسان هو هذا الزاجر الأعظم والواعظ الأكبر الذي هو مراقبة الله عز وجل واستحضار أنه عالم بما يفعل العبد في سره وعلنه ، فقال له : « **الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** »[1] .

ويضرب لهذا مثال ، وهو ما إذا كان الناس بحضرة ملك جبار ، سيافه قائم على رأسه ، وسيفه يقطر دماً ، وعنده بناته وجواريه ، فهل يخطر ببال الحاضرين أن ينتهكوا له حرمة ؟ كلا . ولا شك أن الله عز وجل ــ وله المثل الأعلى ــ أعظم بطشاً على انتهاك حُرماته ، وحماه في الأرض محارمه .

ولا يكون إحسان العمل إلا بوجود هذا الزاجر الأعظم والواعظ الأكبر الذي يقتضي الإخلاص لله ومطابقة العمل لشرعه المبني على العقيدة الصحيحة لأن العقيدة كالأساس للفروع .

قوله تعالى : « **ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت** » اجتمع ــ هنا ــ شرط ، وهو : « إن » وقسم محذوف دلت عليه اللام الموطئة ، والجواب هنا جواب القسم ، وهو قوله : « ليقولن » ، ولو كان جواباً للشرط لاقترن بالفاء بدلاً من اللام ، وهو مبني على القاعدة النحوية : إذا اجتمع شرط وقسم حذف جواب المتأخر منهما ، كما قال ابن مالك في الألفية :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم   جواب ما أخرت فهو ملتزم

أي لئن أخبرتهم بإحيائهم بعد الموت للجزاء لكذبوك يا مُحمد ، ولقالوا : ما كلامك هذا إلا سحر ، أي خيالات لا حقائق ، قبحهم الله .

والسحر يطلق في اللغة على كل شيء خاف ، والعرب تقول : أخفى من السحر للشيء البالغ الغاية في الخفاء .

والتحقيق أن السحر أنواعٍ لا تقل عن عشرة ، ومنها ما هو خيالي ومنها ما هو حقيقي ، ومنها ما هو كُفر ، ومنها ما هو دونه .

---

(١) مسلم (١/٣٦ ــ ٤٠) .

كما قال تعالى في الخيالي : « **فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** »[1] .

وقال في الحقيقي : « **قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد** »[2] إذ لو لم يكن حقيقة لما استعيذ منه ، وقال تعالى : « **واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يُعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم** »[3] .

وقد بسطنا الكلام على هذا في سورة طه في الجزء الرابع من كتابنا أضواء البيان[4] .

وهذه سُنَّة الله سبحانه وتعالى في خلقه (الخارجين عن طاعته)[5] ما يرسل إليهم من رسول إلا استهزءوا به ووصفوه بأنه ساحر أو مجنون ، والله عز وجل يعجب منهم كيف يتفقون على هذه الصفة الذميمة في عداوة الأنبياء وسبهم لهم بألفاظ متحدة مع طول الزمن بينهم ، كما قال تعالى : « **كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون** »[6] . أي أتواصوا بهذا التكذيب وهذا الوصف الجائر ؟ ، ثم قال : « **بل هم قوم طاغون** » . أي إنهم تشابهوا في الطغيان ومجاوزة الحد « **تشابهت قلوبهم** »[7] فاتحدت أهدافهم ومواقفهم .

قوله تعالى : « **ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه** » ؟!

---

(1) طه : ٦٦ .
(2) الفلق : ١ ــ ٤ .
(3) البقرة : ١٠٢ .
(4) الجزء الرابع ص ٤٣٧ ــ ٤٣٨ .
(5) ما بين القوسين يقتضيه السياق .
(6) الذاريات : ٥٢ ــ ٥٣ .
(7) الآية من سورة البقرة : ١١٨ وهي : « **وقال الذين لا يعلمون لولا يُكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون** » .

جرت سُنَّة الله الكونية أن الكفار يستبطؤن نزول العذاب ويستعجلونه ، كما قال تعالى : « **وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب** »[1] أي آتنا نصيبنا من العذاب وأصل القط كتاب جوائز الملك للناس ، قال الشاعر :

ولا الملك النُعمان حين لقيته بغبطته يعطي القطوط ويأفق

والآيات الدالة على استعجالهم العذاب كثيرة جداً .

أي ولئن أخرنا عنهم العذاب إمهالاً لا إهمالاً وغفلة « إلى أمة معدودة » أي برهة من الزمن ، ولفظ الأمة يطلق على أربعة أمور وكلها في القرآن الكريم :

الأول : البرهة من الزمن ، كما في هذا الموضع .

الثاني : الطائفة المجتمعة من الناس على مذهب واحد وطريقة واحدة وهو الأكثر استعمالاً ، كقوله تعالى : « **كان الناس أُمة واحدة** »[2] .

الثالث : الرجل المقتدى به ، كقوله تعالى : « **إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين** »[3] .

الرابع : الدين والملة ، كقوله تعالى : « **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** »[4] وقال تعالى : « **بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أُمة وإنا علَى آثارهم مهتدون** »[5] .

ومنه بهذا المعنى قول الشاعر :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

وبعضهم يرجع الأمة في ذلك كله إلى شيء واحد هو الطائفة المجتمعة سواء كانت من الناس أو من الزمن أو أو من الدين ، أما إطلاقها على الرجل المقتد به فلأنه صار بسبب رتبته بمنزلة الأمة فكأنه طائفة مجتمعة .

و « معدودة » معناها محدودة ، أي أجل محدود ، وهو ما عناه الله تعالى بقوله : « **ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون** »[6] .

---

(١) ص : ١٦ . (٢) البقرة : ٢١٣ . (٣) النحل : ١٢٠ .
(٤) الأنبياء : ٩٢ . (٥) الزخرف : ٢٢ . (٦) العنكبوت : ٥٣ .

قوله تعالى : « **ليقولن ما يحبسه** » أي أي شيء يمنع العذاب ويؤخره ؟ وهم يريدون أن ذلك كذب لا وجود له ، قبحهم الله وأخزاهم .

ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم » ألا حرف تنبيه ، وفي هذه الآية شاهد عربي يستدل به على جواز تقدم خبر ليس عليها ، وقد أشار ابن مالك في الألفية إلى منعه ، فقال : ومنع سبق خبر ليس اصطفى .

والتحقيق جوازه ، لأن معمول الخبر ، وهو « يوم » العامل فيه « مصروفاً » قد تقدم على ليس وتقدم المعمول يدل على تقدم عامله من باب أولى(١) .

« ليس مصروفاً عنهم » أي لا راد له عنهم ، ولا قبل لهم بدفعه والصرف الإزالة والأبعاد .

قوله تعالى : « **وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن** » أي أحاط ولا تكاد تجد حاق إلا في إحاطة الشر خاصة .

قال الشاعر :

أحطنا بهم حتى إذا ما تبينوا   بما قد رأوا مالوا جميعاً إلى السلم(٢)

وقوله تعالى : « **ما كانوا به يستهزؤن** » أي العذاب الذي استعجلوه استهزاء به عندما أخبرهم به الرسول ﷺ (٣) .

قوله تعالى : « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور »(٤) .

---

(١) قال أبو عبد الله محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي ــ بعد أن حكى الخلاف : وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقدم خبر ليس عليها ، ولا بشموله إلا ما دل عليه ظاهر هذه الآية ، وقول الشاعر :

فيأبى فما يزداد إلا لجاجة   وكنت أبياً في الخفا لست أقدم

(٢) هكذا استشهد شيخنا المفسر بهذا البيت وفيه أحاط ، وليس حاق ولم يتضح لي وجه الاستدلال به ، لأن أحاط يستعمل في الخير والشر على ما يظهر من أمثلة معاجم اللغة .

(٣) ما بين المعقوفين الحقته تكملة ، لأني لم أجد للشيخ فيه كلاماً ، راجع الجامع لأحكام القرآن (١٠/٩) والتفسير الكبير للرازي (١٨٩/١٧) والكشاف (٢٦٠/٢) .

(٤) من هنا تبدأ المحاضرة الخامسة في ١٣٨٤/٦/١٤هـ .

هذه الآية الكريمة بيان لآيات متعددة في القرآن الكريم ، فقد ذكر الله جل وعلا في مواضع من كتابه أن عادة الإنسان الجزع عندما يصيبه شر من فقر ومرض وغيرهما ، والبطر عندما يحصل له خير من عافية وغنى وغيرهما، فهو معيب في كلا طرفي الابتلاء « **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** »[1] . فهو لا ينجح في الأمرين ، إذ لا يشكر نعمة ولا يصبر على نقمة ، وقد أشار الله في هذه الآية أن هذه الصفة الذميمة من صفات الكفار ، حيث استثنى المؤمنين بذكر صفاتهم ، بقوله : « **إلا الذين صبروا** » كما يأتي .

وقد بين النبي ﷺ بياناً شافياً ــ والسُّنَّة خير ما يفسر بها القرآن بعد القرآن ــ أن المؤمن بخلاف الكافر في هذا الابتلاء ، يشكر عند السراء ويصبر عند الضراء : « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً ، وليس ذلك إلا للمؤمن »[2] . ومعنى الحديث واضح في الآية فإن قوله تعالى : « **صبروا** » يدل على عدم جزعهم عند الشر ، وقوله : « **وعملوا الصالحات** » يدل على الشكر عند النعم[3] . وفي ذلك بيان للصفات الحميدة التي يتحلى بها المؤمن وللصفات الذميمة التي هي من صفات الكفار .

قوله : « **ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة** » أي حلاوة النعم والخير الذي ندره عليه ، « **ثم نزعناها منه** » بأن أبدلناه بالغنى فقراً وبالعافية مرضاً وبالخير شراً .

« **إنه ليؤس كفور** » أي كثير اليأس والقنوط والكفر والجحود ، لا يصبر عند ضراء ولا يشكر عند سراء .

قوله تعالى : « **ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور** » النعماء اسم مصدر بمعنى النعمة مؤنث بألف التأنيث الممدودة ، أي إن تفضلنا عليه بإزالة النقمة وإبدالها نعمة ، والنعماء تشمل الرزق والعافية والخصب والغنى والضراء تشمل المرض والجدب والفقر .

---

(١) الأنبياء : ٣٥ .

(٢) راجع صحيح مسلم (٤/٢٢٩٥) وفي بعض الفاظه هنا تقديم وتأخير .

(٣) يقصد الآية الآتية التي فيها الاستثناء .

« **إنه لفرح** » أي كثير الفرح بالدنيا ، والفرح بالدنيا مذموم وإنما الفرح المحمود الطيب هو الفرح بالإيمان والهداية والتوفيق كما قال تعالى : « **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** »[١] .

فخور كثير الفخر والخيلاء ، وهما ممقوتان لا يحبهما الله تعالى كما قال جل وعلا : « **ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور** »[٢] .

قوله تعالى : « **إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير** » .

هذا استثناء من الله جل وعلا لعباده المؤمنين البريئين من صفات الكفار ، المتصفين بالصفات الحميدة من النجاح فيما امتحنوا فيه ، فهم يصبرون عند المصائب ، ويشكرون عند النعم ، والصبر حبس النفس ويستعمل لازماً ومتعدياً ، ومن استعماله متعدياً قوله تعالى : « **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم** »[٣] .

وقول الشاعر :

فصبرت عارفة بذلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع

فالمؤمنون يصبرون ابتغاء وجه الله وهو يجازيهم على ذلك ، كما قال تعالى : « **وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** »[٤] .

وقال تعالى : « **إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب** »[٥] .

« **وعملوا الصالحات** » جمع صالحة ، وهي تطلق في اللغة ــ وكذلك الحسنة ـ على الخصلة الحميدة متناسى فيهما الوصفية ، كأسماء الأجناس ، ومن ذلك قول أبي العاص :

---

(١) يونس : ٥٨ . (٢) لقمان : ١٨ . (٣) الكهف : ٢٨ .
(٤) البقرة : ١٥٥ ، ١٥٦ . (٥) الزمر : ١٠ .

بنت الأمين جزاك الله صالحة　　　وكل بعل سيثنى بالذي علما

وقال الآخر :

الحب مشغلة عن كل صالحة　　　وسكرة الحب تنفي سكرة الوسن

« **أولئك لهم مغفرة وأجر كبير** » الإشارة تعود إلى الذين تقدمت صفاتهم ، وهم الصابرون العاملون الصالحات ، أي يستر الله ذنوبهم جزاء صبرهم وشكرهم ، والأجر في اللغة جزاء العمل ، ووصف هنا بأنه كبير ، لأن أجرهم الجنة ، « وفيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »(١) . كما قال تعالى : « **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من مرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** »(٢) .

(١) يشير شيخنا المفسر رحمه الله إلى حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : قال الله : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » البخاري (١٩٦/٨) وراجع صحيح مسلم (١٧٦/١) .

(٢) السجدة : ١٧ .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ
وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ
مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾
أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ
وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾
فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ
ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ
﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ
مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ
عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ
مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ
مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ
مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنۡ
أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ
عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ
رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾

٢ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

قوله تعالى : « **فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك** » .

كان النبي ﷺ يشق عليه تكذيب قومه له ، وادعاء أنه ساحر وكاهن وشاعر ، والقرآن سحر وكهانة وشعر فحرضه الله جل وعلا أن يبلغ ما أوحى إليه ، لأن ذلك هو وظيفته ولا يلتفت إلى شدة إنكارهم وتكذيبهم .

واختلف في « لعل » هنا على أوجه أظهرها أمران ، وأظهر الأمرين عندي آخرهما :

الأول : أنها للاشفاق ، وهذا ليس بمناسب كل المناسبة .

الثاني : ـــ وهو الأظهر ـــ أنه قصد بها النهي والزجر ، كما يقول للعبد : لعلك تفرط في الأمر الفلاني ، والقصد من ذلك توبيخه وزجره عن التفريط .

والمعنى : إياك يا محمد أن تترك بعض ما يوحى إليك أو يضيق به صدرك . والمقرر في اللغة أن « لعل » في المحبوب للترجى ، وفي المكروه للإشفاق ـــ والإشفاق شدة الخوف مع شفقة .

والمراد بقوله تعالى : « **تارك بعض ما يوحى إليك** » أي مما يشق على الكفار سماعه ودعوتهم إليه ، والضمير في : « به » يعود إلى « **بعض ما يوحى إليك** » والصدر في قوله : « **صدرك** » فاعل .

وهنا يرد سؤال معروف في فن الصرف ، وهو : المعروف في الوصف من « ضاق » أنه على وزن فيعل ، فيقال : « ضيق » وهو صفة مشبهة ، فلم عدل عن هذا الوزن إلى فاعل فصار : « ضائق » ؟

والجواب : أن القاعدة أن كل صفة مشبهة أريد منها الدلالة على الحدوث والتجدد حولت إلى زنة اسم الفاعل ، فيعبر بفاعل تعبيراً محضاً صريحاً وقد عقد هذا المعنى ابن مالك في اللامية بقوله :

وفاعل صالح للكل إن قصد الـ ... حدوث نحو غداً ذا جافل جذلاً

ومن أمثلته في فيعل عند العرب قول الشاعر :

أبلغ خراشا أنني ميت ... كل امريء ذي حسب مائت

ومن أمثلته في فعيل قول الشاعر :

حسبت التقى والجود خير تجارة ... رباحاً إذا ما المرء أصبح ثاقلاً

ومنه أيضاً قول الآخر :

بمنزلة أما اللئيم فسامن (بها وكرام الناس باد شحوبها)[1]

ومن أمثلته في « فَعِل » قول الشاعر :

(وما أنا من رُزء وإن جل) جازع (ولا بسرور بعد موتك فادح)[2]

قوله تعالى : « **أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز** » .

المصدر المنسبك من أن وصلتها مجرور باللام ، أي فلعلك تارك ذلك لأجل تعنتهم وقولهم .. إلخ .

والكنز المراد به الذهب والفضة ، و « **لولا** » بمعنى : هلا ، للتحضيض والتحضيضِ الطلب بحث وشدة ، والمعنى أنهم يقولون : إذا كنت رسولاً من عند الله فلم لا نرى معك شيئاً من الغنى والكنوز ، وأنت مثلنا تأكل الطعام وتمشي في الأسواق وغير ذلك ؟ : « **وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أوتكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً** »[3] .

وقوله تعالى : « **أوجاء معه ملك** » أي ليأمر الناس باتباعه ويشهد له بالرسالة ، حتى نصدقه ، وقد بين تعالى في سورة الفرقان أن طلبهم لمجيء الملك معه هو لأن يكون نذيراً معه . وهذا من تعنتهم الشديد مع أنهم لا يهمون بالإيمان به مهما جاءهم به من معجزات وخوارق ، كما قال تعالى : « **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً** »[4] .

---

(١) الذي أدركته من كلام الشيخ هو ما قبل المعقوفين ، وما بينهما استدركته من البحر المحيط للرازي (٥/٢٠٧) والكشاف للزمخشري (٢/٢٦١) .

(٢) لم أدرك في كتابتي عن الشيخ إلا كلمة « جازع » وقد أكملت البيت من كتاب المساعد لابن عقيل على تسهيل الفوائد لابن مالك (٢/٢٢٢) .

(٣) الفرقان : ٧ ، ٨ .

(٤) الأسراء : ٩٠ — ٩٣ .

قوله تعالى : « **إنما أنت نذير** » أي لم نرسلك لتأتيهم بما يقترحون عليك من الآيات ، وليس ذلك من وظيفتك ، وإنما وظيفتك أن تنذرهم وتخوفهم عقوبة ربهم الذي كفروا به مؤيداً بالمعجزات الدالة على صدق رسالتك .

وقد بين الله جل وعلا أنه أنزل آية عظيمة يُستنكر أن يُطلب غيرها من المعجزات ، لأنها كافية لمريد الحق ، وهي كتابه العزيز ، كما قال تعالى : « **أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون** »[1] .

ـــ وهنا سئل شيخنا المفسر ، رحمه الله ـــ عن سبب عدم ذكر البشارة مع النذارة مع أنها من أعظم الدواعي للرغبة فيما عند الله ؟

فأجاب : إن البشارة قد ذكرها الله في عدة مواضع من كتابه ـــ ومنه ما سبق في أول هذه السورة ـــ وإنما لم يذكرها هنا ، لأن المقام يقتضي الإنذار لأنه هو المناسب للمعاند والمتعنت ، فإن المعاند لا بشارة له ، وإنما البشارة للمستجيب المتقي ، كما قال تعالى : « **فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لُداً** »[2] .

قوله تعالى : « **والله على كل شيء وكيل** » أي هو تعالى الذي إن شاء جاءهم بما يقترحون من نزول الملائكة وإيتائك كنزاً أو غير ذلك ، فهو القادر عليه وعلى غيره ، الحفيظ على كل شيء ـــ وأما أنت يا مُحمد فما عليك إلا البلاغ .

والوكيل الحافظ الذي تسند إليه الأمور ليكفي غيره ، وهو من أسماء الله تعالى ، لأنه هو الذي تسند إليه الأمور وتفوض فيجلب الخير ويصرف الشر ، وهو القائم بجميع الشؤون : « **رب المشرق والمغرب لا إلٰه إلا هو فاتخذه وكيلا** »[3] .

قوله تعالى : **أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا**

---

(١) العنكبوت : ٥١ . (٢) مريم : ٩٧ . (١) المزمل : ٩ .

من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » . « أم » هذه هي المنقطعة ، وهى التي لم تتقدمها همزة التسوية ولا الهمزة المغنية عن أي ، بخلاف المتصلة التي أشار إليها ابن مالك في الألفية بقوله :

وأم بها اعطف إثر همز التسوية ... أو همزة عن لفظ أي مغنية

وتفسر المنقطعة بثلاثة تفسيرات :

الأول : بمعنى همزة الإنكار .

الثاني : بمعنى بل الاضرابية .

الثالث : بمعناهما معاً ، وهو الأكثر .

وعليه يكون المعنى : بل ــ إضراب انتقال من الكلام السابق إلى غيره ــ أيقولون افتراه ، أي اختلقه كذباً على الله ، والله جل وعلا قد نفى أن يكون القرآن مفترى ، كما قال تعالى : « **وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه** » الآية[1] .

وقد أجابهم الله سبحانه جواباً ألقمهم الحجر ، وبين عجزهم وكذبهم بقوله بعد ذلك : « **قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات** » أي إن كان في إمكان البشر أن يفترى هذا القرآن الذي نسبتم إلى أنني افتريته ، فافتروا جزءاً يسيراً منه ، فأتوا بعشر سور مثله مفتريات كما زعمتم أنه يفترى ، وإذا عجزتم عن ذلك فكيف تدعون أنه وضع بشر والبشر عاجز عن الإتيان بجزء منه ؟ وهذا من البراهين الدالة على صدق الرسول ﷺ وصدق رسالته .

وقد تحداهم الله تعالى في سورة البقرة أن يأتوا بسورة مثله ، فقال جل وعلا : « **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** »[2] .

ثم بين أنهم عاجزون عن ذلك بقوله : « **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا** » ثم بين

(١) يونس : ٣٧ ، ٣٨ .
(٢) البقرة : ٢٣ ، ٢٤ .

إقامة الحجة عليهم بقوله : « **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** »[1] .

كما تحداهم في سورة يونس بقوله : « **فأتوا بسورة مثله** »[2] . فقد تحداهم في البقرة ويونس بسورة واحدة ، وتحداهم هنا في سورة هود بعشر ، وتحداهم في سورة الطور به كله ، كما قال تعالى : « **أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فإني معكم من المتربصين أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** »[3] .

وبين جل وعلا في سورة بني إسرائيل أن كل المخلوقات عاجزة عن الإتيان بمثله ولو اجتمعت متساندة على ذلك كما قال تعالى : « **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** »[4] .

وبين جل وعلا هنا أن الإعجاز القرآني دليل قطعي وبرهان يقيني على صدق الوحي وصحة الرسالة . « **وإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله** » .

وقوله تعالى : « **فأتوا** » صيغة الأمر للتعجيز هنا ، وقد تقرر في فن المعاني أن من معاني افعل قصد التعجيز .

« بعشر سور مثله »[5] أي في الفصاحة والبلاغة وصدق الأخبار وعدل الأحكام ، فإن هذه الأمور ، مع ما يذكر الله من بدائع صنعه من إعجاز القرآن ، إذا لا يتجرأ أحد أن يقول : أنا خلقت السماوات والأرض ، ونصبت الجبال .. إلا رمى بالجنون والسفه ، بخلاف رب السموات والأرض جل وعلا .

قوله تعالى : « **وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** » أي اطلبوا كل من تقدرون أن تسعينوا به من غير الله عز وجل إن لم تكونوا مستطيعين على ذلك الافتراء بأنفسكم فليفتر لكم من تعلمون أنهم يناصرونكم ، وفي هذا غاية التعجيز ، كما سبق في آية الإسراء أنه لو اجتمعت الإنس والجن

---

(١) البقرة : ٢٣ ، ٢٤ . (٢) سبقت قريباً (٣) الطور : ٣٠ — ٣٤ .
(٤) الأسراء : ٨٨ . (٥) من هنا بدأت المحاضرة السادسة في ١٣٨٤/٦/١٦هـ .

متعاونين على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لما قدروا . وإذا ثبت عجزهم عن الإتيان بمثله ثبت كذبهم في دعوى الافتراء وتبين أنهم غير صادقين في ذلك .

قوله تعالى : « **فإن لم يستجيبوا لكم** » أي لم يجيبوا طلبكم ، وإتيان استفعل بمعنى أَفعل كثير وهو لغة عربية فصحى ، كما قال الشاعر :

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

أي إن عجزوا عن مناصرتكم على افتراء شيء مثل القرآن : « **فاعلموا إنما أنزل بعلم الله** » أي فليترتب على ذلك العجز منكم وممن دعوتموهم فلم يجيبوكم اليقين عندكم[1] أن هذا القرآن إنما نزل من عند الله وبعلمه ، لا كما زعمتم أنه مفترى ، ومادة « علم » تطلق على اليقين الذي لا تختلجه الشكوك ، وإطلاقها على الظن نادر ، ومنه قوله تعالى : « **فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار** »[2] .

وعلم الله جل وعلا محيط بكل شيء ، وهو يعلم أنكم افتريتم ادعاءكم افتراء وإنما عبر بالعلم لأن كل إتقان إنما يكون على قدر العلم به ، وكل نقص يكون على قدره من الجهل ، فالعلم التام يترتب عليه الاتقان التام .

وفي هذه الآية الكريمة الرد الواضح الصريح على القدرية الذين يزعمون أن الله جل وعلا عليم بلا علم ، قادر بلا قدرة ، فإنه تعالى قال : « **فاعلموا أنما أنزل بعلم الله** » .

« **وألّا إلٰه إلا هو** » أي واعلموا أنه لا رب سواه ولا معبود غيره ، وهو الذي أيد رسوله بالمعجزات ، وسيخذل كل من عانده وافترى عليه الكذب ، و « أن » مخففة من الثقيلة ، لعطفها على « أنّ » المثقلة قبلها ، واسمها عند علماء

---

(١) قيل : أن الخطاب في قوله :« **فإن لم يستجيبوا لكم** »للكفار الذين ادعوا أن القرآن مفترى ، أي إن لم يستجب لطلبكم من دعوتموهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن « **فاعلمو انما أنزل بعلم الله** » إلخ ، وقيل الخطاب للمؤمنين ، أي إن لم يستجب الكفار لدعوتكم فاعلموا انما أُنزل بعلم الله ، أي فاثبتوا ودوموا على ذلك ، راجع الكشاف (٢٦٢/٢) .

(٢) الممتحنة : ١٠ .

العربية ضمير شأن محذوف ، والجملة بعدها خبرها ، كما عقد ابن مالك ذلك في الألفية بقوله :

وإن تخفف أن فاسمها استكن والخبر اجعل جملة من بعد أن

وإتيان اسمها ظاهراً ـــ غير ضمير شأن ـــ نادر .

ومنه قول الشاعر :

فلو أنك في يوم الرخاء سألتني طلاقك لم أبخل (وأنت صديق)[1]

وقول الآخر :

بأنْك ربيع وغيث مريع وأنْك هناك تكون الثمالا

والفرق بين أن المخففة وأن المصدرية من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أنّ أنْ المخففة تتمحض لذلك ، إذا ما تقدمها ما يدل على اليقين ، كما في هذا الموضع .

الوجه الثاني : أن المصدرية تتمحض لمصدريتها إذا لم يتقدمها ما يدل على اليقين أو الرجحان .

الوجه الثالث : أنهما يصح أن يقدر كل منهما إذا تقدم ما يدل على الرجحان فقط .

« وما » في قوله : « أنما » كافة ، وسميت كافة ، لأنها إذا اتصلت بإنّ أو إحدى أخواتها كفتها عن العمل ، إلا في ليتما ، وقد عقد ذلك ابن مالك في الخُلاصة بقوله :

ووصل ما بذى الحروف مبطل إعمالها وقد يبقى العمل

قوله تعالى : « **فهل أنتم مسلمون** » صيغة الاستفهام معناها هنا الأمر ، أي فأسلموا ، ما دمتم تيقنتم أن ذلك من عند الله وأنه لا معبود لكم حقاً مسواه .

---

(١) فاتني مع الشيخ جملة : وأنت صديق وقد أكملتها من كتاب المساعد على تسهيل الفوائد (١/٣٣٠) .

وقد تقرر في فن المعاني أن من المعاني التي تأتي لها صيغ الاستفهام الأمر ، ولذا لما نزلت آية المائدة في تحريم الخمر وكان في آخرها قوله تعالى : « **فهل أنتم منتهون** »[1] قال عمر : انتهينا ، ونظير قوله تعالى هنا : « **فهل أنتم مسلمون** » قوله في سورة البقرة : « **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار** »[2] . أي بالإسلام وعدم الشك في القرآن .

قوله تعالى : « **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون** » .

الذين يعملون لله جل وعلا أعمال طاعة مخلصين له بها قسمان :

القسم الأول : قوم لهم همم عالية آمنوا به وعملوا له ، رغبة فيما عنده وخوفاً من عقابه ، وهؤلاء يجازيهم الله بأعمالهم في الآخرة بثوابه وعفوه ومغفرته ، ويدخلهم الجنة ، كما أنه يؤتيهم رزقهم وما كتب لهم في الدنيا .

القسم الثاني : قوم كفرة ، لم يؤمنوا بالله بل قصرت به هممهم عن ذلك ولكنهم يعملون بعض الأعمال الصالحة يتقربون بها إلى الله عز وجل كصلة الرحم وبر الوالدين ، والصدقة ، والتنفيس عن المكروبين ، وهؤلاء يجازيهم الله بما عملوا من طاعة في الدنيا ، وأما في الآخرة فلا تنفعهم . وكان بعض المشركين يتقربون إلى الله ويخلصون له بعض الأعمال مع كفرهم ، خصوصاً وقت الشدة . وكان سبب إسلام عكرمة ابن أبي جهل أنه ركب مرة في البحر إلى الحبشة ، فماجت بهم مياه البحر واشتدت الرياح ، فإذا الركاب يحض بعضهم بعضاً على الالتجاء إلى الله تعالى ودعائه وحده لينجيهم من ذلك الكرب ، فاعتبر عكرمة ، وقال : إذا كان غير الله من الآلهة لا ينفع في مثل هذه الشدة ، فما فائدتنا في عبادتهم ؟ ثم عاهد الله على نفسه إن أنجاه الله فرجع سالماً ليضعن يده في يد محمد ﷺ فيسلم على يديه ، وكان ما أراد ، فرجع فأسلم[3] .

وقد كان الكفار يطلبون من الله أن يؤتيهم حسناتهم في الدنيا ، بخلاف

---

(١) المائدة : ٩١ . (٢) البقرة : ٢٤

(٣) راجع الإصابة لابن حجر (٢/٤٨٩ ــ ٤٩٠) مطبعة مصطفى محمد بمصر .

المؤمنين فإنهم يجمعون بين الأمرين ، قال تعالى عن الكفار : « **فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق** » وقال عن المؤمنين : « **ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** »[١] .

قوله تعالى : « **نوف إليهم أعمالهم فيها** » أي نجازيهم ونوصل إليهم أعمالهم في الدنيا ، جزاء وافياً ، كما قال تعالى : « **من كان يريد حرث الآخرة نزدله في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب** »[٢] .

وقد ثبت عن النبي ﷺ في صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن الكافر يجازي بعمله في الدنيا ، ولا ينفعه في الآخرة[٣] بخلاف المؤمن .

ويجب تقييد هذه الآيات والأحاديث الدالة على أن الله تعالى يجازي الكفار بأعمالهم التي ظاهرها الصلاح في الدنيا بمشيئته كما نص على ذلك في سورة الاسراء بقوله تعالى : « **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً** »[٤] .

وعلى ذلك فإن الكافر قد يوجد صفر اليدين في الدنيا والآخرة ومما يدل على ذلك قوله تعالى : « **ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خيرٌ اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين** »[٥] .

قوله تعالى : « **وهم فيها لا يبخسون** » أي لا ينقصون شيئاً من أجور أعمالهم التي أرادوا بها وجه الله مع بقائهم على كفرهم في الدنيا بل يجازيهم بها في هذه الحياة .

---

(١) البقرة : ٢٠٠ ، ٢٠١ .	(٢) الشورى : ٢٠ .

(٣) الحديث الذي في صحيح مسلم ، وفيه المعنى الذي أشار إليه شيخنا المفسر رحمه الله من حديث عائشة ، ونصه : (قالت : قلت يا رسول الله ، ابن جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعة ؟) قال : « لا ينفعه . إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » مسلم (١٩٦/١) ولم أهتد إلى حديث في مسلم عن أنس ويجوز أن يكون حصل مني خطأ أو أن الشيخ وهو يفسر من حفظه وهم فيه أو أن لأنس رضي الله عنه حديثاً غير هذا لم اوفق للوقوف عليه .

(٤) الأسراء : ١٨ .	(٥) الحج : ١١ .

قوله تعالى : « **أولئك ليس لهم في الآخرة إلا النار** » أشير إليهم بالبعيد تنبيهاً على أنه ينبغي البعد منهم ومن صفاتهم الخبيثة وأعمالهم القبيحة التي استوجبوا بسببها النار فلم يكن لهم جزاء سواها في الآخرة ، أما ما عملوا من أعمال طيبة فقد جوزوا بها في الدنيا « وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » أي ما صنعوا في الدنيا من عمل بطل في الآخرة ، لأنه لا يقبل منهم بدون إيمان .

وهنا يرد سؤال يحتاج إلى جواب ، وهو أن الله عز وجل أخبر أن أعمال الكفار الطيبة في الدنيا يجازيهم بها في الدنيا ، والحبوط إنما هو في الآخرة كما في هذه الآية ، مع أنه في بعض الآيات أخبر أن أعمالهم حبطت في الدنيا والآخرة ، فما التوفيق بين الأمرين ؟

والجواب : أنهم إن وجد لهم تمتع في الدنيا ونعيم وزخرف وصحة وغير ذلك فإن ذلك لا يُنافي إحباط العمل لأن المراد إحباط العمل الذي يعتد به وله أهمية من الأعمال الصالحة المقبولة التي تفتح لها أبواب السماء ، وتعصم دماءهم وأموالهم ، وتدخلهم الجنة .

أما التمتيعات الدنيوية فليست بشيء ، والدنيا كلها لا تزن عند الله شيئاً ، ولو كانت تزن عنده شيئاً لما أعطى الكفار منها شيئاً كما قال تعالى : « **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكؤن وزخرفاً وإن كل ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين** »(١) .

والحبوط الهلاك والاضمحلال ، وهو مشتق من الحبط ، وهو نبت إذا أكلته البهائم انتفخت فماتت ، ثم استعمل حقيقة عرفية في هلاك الأعمال بانعدام ثمراتها .

والباطل الزائل المضمحل ، وكل زائل مضمحل تسميه العرب باطلاً وضده الحق ، ويجمع باطل على أباطيل على غير قياس ، والقياس بواطل ، وهو مسموع والمشهور أباطيل ، قال ابن مالك :

(١) الزخرف : ٣٣ ــ ٣٥ .

وحائد عن القياس كلما خالف في البابين حكماً رسماً

ومن ظن أن أباطيل جمع أبطولة فقد أخطأ ، والصحيح ما ذكرنا والمراد بقوله : « ما كانوا يعملون » من خير وطاعة ، مع كفرهم فإنه لا ينفع ، بدليل أن الكافر لوحج ثم أسلم أن ذلك لا يسقط عنه حجة الإسلام ، والصحيح أن قوله : « **وباطل ما كانوا يعملون** » تأكيد لقوله : « **وحبط ما صنعوا فيها** » .

قوله تعالى : **أفمن كان على بينة من ربه** »[1] .

القاعدة المقرؤة أن حرف العطف المقترن بهمزة الاستفهام لا يخلو من أحد أمرين :

الأول : أن الهمزة متعلقة بجملة محذوفة دل المقام عليها ، وحرف العطف عاطف للجملة المذكورة على الجملة المحذوفة ، فيكون التقدير على هذا : أيستوي من لا يريد إلا الحياة الدنيا وقد امتلأ قلبه بالكفر وهو في غاية من الجهل (وهو ما يفيده قوله تعالى : « **من كان يريد الحياة الدنيا** .... » وقد تقدم) والمؤمن العالم الذي على هدى ؟ ولهذا الوجه أمثلة كثيرة في القرآن وغيره من الشواهد العربية .

ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى : « **أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً** » **الآية**[2] .

ومن الشواهد العربية قول الشاعر :

(دعاني إليها القلب إني لأمره سميع فما أدري) أرشد طلابها[3]

أي أم غي ، وهو ما أشار إليه ابن مالك في الخلاصة بقوله وحذف متبوع بدا هنا استبح .

---

(١) من هنا بدأت المحاضرة السابعة في ١٣٨٤/٦/٤هـ .

(٢) فاطر : ٨ .

(٣) لم ادرك مع الشيخ إلا محل الشاهد : أرشد طلابها وتكملة البيت من كتاب : المساعد على تسهيل الفوائد (٤٧٤/٢) .

الوجه الثاني : أن أداة الاستفهام متزحلقة عن محلها ، فتقدمت لفظاً لكونها لها الصدارة ، وأصل محلها التأخر ، فيكون التقدير على هذا : **فأمن ... إلخ** .

« على بينة » البينة كل دليل واضح يوضح الحق ولا يترك فيه لبساً ، بدليل قاطع ، أو شهود ، وأقوال العلماء فيها ترجع إلى ذلك ، فهي البرهان المؤيد بالعلم .

« ويتلوه » الضمير ، قيل يرجع إلى « من » والصحيح أنه راجع إلى البينة ، لأنها مذكرة في المعنى ، وإن كانت مؤنثة في اللفظ ، والمعنى ويتبعه — أي يتبع الدليل والبرهان ، ومن إتيان تلا بمعنى تبع قوله تعالى : « **والقمر إذا تلاها** »[1] أي تبعها .

لما ذكر جلا وعلا حال الكفار المعاندين ، بين أن صفات النبي ﷺ والمسلمين غير صفاتهم ، فأولئك جهلة ، كل ما يريدون ويقصدون هو الحياة الدنيا ، وهؤلاء على علم وبينة وبرهان ، قصدهم الوحيد هو رضا الله والآخرة ونعيمها .

« شاهد » الشاهد كل ما يؤيد الحق ، ومنه الشهود على الحقوق والمراد به القرآن بقرينة عطف جنسه عليه ، وهو قوله تعالى : « **ومن قبله كتاب موسى** » فالنبي ﷺ وأصحابه على نور وبرهان هو التوحيد الذي يمده ويتبعه هذا الشاهد الذي هو القرآن ، وقيل المراد بالبينة الفطرة التي كان عليها رسول ﷺ ، لأنه جاءه الوحي وهو يتحنث في غار حراء ، فتلاه أي تلا هذا النور الفطري الوحي ، وليس في تفسير الشاهد بالقرآن تكرار ، إذ المراد من كان على علم ونور ودين تتبعه الشواهد المؤيدة له . وبعضهم يفسر الشاهد بالنبي ﷺ مستدلاً بورود ذلك وصفاله في القرآن ، كقوله تعالى : « **إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً** »[2] .

« منه » الضمير يعود إلى القرآن ، أو إلى الله تعالى .

قوله تعالى : « **ومن قبله كتاب موسى** » أي ومن قبل هذا الشاهد التالي للبينة شاهد آخر ، وهو كتاب موسى ، والمراد به التوراة .

---

(١) الشمس : ٢ .

(٢) الفتح : ٨

« إماماً ورحمة » الإمام كل من يقتدى به في الخير ، وربما أطلق على من يقتدى به في الشر ، وهو نادر ، كقوله تعالى : « **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار** »(١) والرحمة هي النعمة العظمى التي أنعم الله بها على الناس ، وهي دينه الذي تضمنته الكتب السماوية ، لأن فيها خير البشرية في دينها ودنياها .

« أولئك يؤمنون به » الإشارة راجعة إلى : « من » في قوله : « **أفمن كان على بينة** » باعتبار المعنى ، ومراعاة اللفظ والمعنى في القرآن كثيرة ، والذين يمنعون مراعاة اللفظ بعد مراعاة المعنى ، يرد عليهم قوله تعالى : « **ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً** »(٢) .

فقد روعي لفظ : « من » الموصولة فعاد الضمير إليها مفرداً في قوله : « **يؤمن** » « **ويعمل** » ثم روعي المعنى في قوله : « **خالدين فيها** » ثم روعي اللفظ مرة أخرى في قوله : « **قد أحسن الله له رزقاً** » .

والضمير في قوله : « **يؤمنون به** » يعود إلى شاهد الذي هو القرآن الكريم أي يؤمنون بهذا الكتاب ، لأن أنوار الإيمان ودلائله قد تتابعت لهم .

قوله تعالى : « **ومن يكفر به من الأحزاب** » الأحزاب جمع مكسر محلى بأل الاستغراقية ، والمراد كل حزب ، سواء كان من النصارى ، أو من اليهود ، أو من المجوس ، أو من غيرهم ، ممن شملهم وصف الكفر .

« **فالنار موعده** » أي إذا بلغهم هذا الشاهد ولم يؤمنوا به فهم في النار وفي هذا دليل على عموم رسالة نبينا ﷺ ، وقد دلت على ذلك آيات قرآنية كثيرة ، منها قوله تعالى : « **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون** »(٣) وقوله تعالى : « **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً** »(٤) وقوله تعالى : « **تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً** »(٥) .

---

(١) القصص : ٤١ .
(٢) الطلاق : ١١ .
(٣) سبأ : ٢٨ .
(٤) الأعراف : ١٥٨ .
(٥) الفرقان : ١ .

والموعد يأتي اسم زمان ، واسم مكان ، ومصدراً ميمياً ، والمراد به هنا اسم المكان ، أي مكان وعده ، ومنه : « **وإن جهنم لموعدهم أجمعين** »(١) .

قوله تعالى : « **فلاتك في مرية منه** » المرية الشك ، وأصل « تك » تكن ، حذفت نونها للتخفيف ، وذلك جائز إذا دخل عليها جازم ، كما هنا والتحقيق أنه يجوز الحذف سواء كانت بعد النون أل أم لا ، وبعضهم يقيد الجواز بما إذا لم تكن بعده أل ، ومن الأمثلة ، لم تك المرآة وقد أشار ابن مالك في الخلاصة إلى الجواز مطلقاً بقوله :

ومن مضارع لكان منجزم تحذف نون وهو حذف ما التزم

والضمير في « منه » يعود إلى الشاهد ، أي لا تكن في شك في كون ذلك الشاهد حقاً ، والنبي ﷺ لا يشك ، ولكنه قد يؤمر وينهى تشريعاً لغيره ، ومن أمثلة ذلك بالإجماع قوله تعالى في سورة الإسراء : « **إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً** ، **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** » الآية(٢) فقد خاطب الله الرسول ﷺ ليشرع لأمته بدليل أن أبويه لم يكونا موجودين وقت الخطاب ، بل قد ماتا قبل ذلك بزمن ، فهو من باب : « إياك أعني واسمعي يا جارة » .

قوله تعالى : « **إنه الحق من ربك** » أي هذا القرآن هو الحق ، الثابت الذي لا يزول ولا يضمحل ، والمراد أنه مطابق للواقع لا كذب فيه ، كائن مبدؤه « من ربك » وليس من غيره .

« **ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** » هذه الآية تدل أن أكثر الناس ليسوا بمؤمنين ، فأهل النار هم الأكثر ، كما بين ذلك في آيات كثيرة وأحاديث ، كما قال تعالى : « **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** »(٣) وقال تعالى : « **ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين** »(٤) .

وقد بينت الأحاديث الصحيحة أن نصيب النار تسعة وتسعون وتسعمائة من الألف ، وأن نصيب الجنة واحد من الألف(٥) .

---

(١) الحجر : ٤٣ . (٢) الأسراء : ٢٣ ــ ٢٤ . (٣) يوسف : ١٠٣ . (٤) الصافات : ٧١ .

(٥) راجع صحيح البخاري (١٩٥/٧ ــ ١٩٦) وصحيح مسلم (٢٠٠/١ ــ ٢٠٢) .

قوله تعالى : « **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً** » أي لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله ، ككفار مكة الذين ادعوا أن رسول الله ﷺ ساحر وشاعر وكاهن ، وأن القرآن سحر وشعر وكهانة « **أولئك** » أي المكذبون المفترون « **يعرضون** » للمجازاة فيجدون غب الخلود في النار .

« **ويقول الأشهاد** » جمع شاهد ، وجمع الفاعل على أفعال نادر ، والمراد الذين يشهدون عليهم في المحشر ، ومنهم الملائكة الموكلون بهم .

« **هؤلاء الذين كذبوا على ربهم** » أي بادعاء الأولاد له والشركاء تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

« **ألا لعنة الله على الظالمين** » « ألا » حرف تنبيه ومن فوائدها إحضار ذهن السامع لما بعدها ، والظالمون هم الذين يضعون الأشياء في غير مواضعها ، لأن من يعبد غير الله تعالى يضع العبادة في غير موضعها ، وإنما أظهر في محل الإضمار ، أي لم يقل : إلا لعنة الله عليهم ليسجل الصفة المستوجبة للعن عليهم ، وهي الظلم ، وذلك شامل لهم ولكل من اتصف بصفتهم .

قوله تعالى : « **الذين يصدون عن سبيل الله** » هذا الفعل « **صد** » يستعمل لازماً ومتعدياً ، وهو هنا متعد ، وحذف المفعول لإفادة التعميم ، أي يصدون الناس ، وهم أنفسهم يصدون أيضاً ، أي يعرضون بدليل قوله : « **ويبغونها عوجا** » بعد ذلك ، ومصدر المتعدى من صد الصد ، كما قال ابن مالك في الخلاصة :

فَعْل قياس مصدر المعدى ... من ذي ثلاثة كردردا

ومضارعه مضموم العين لا غير ، ومصدر اللازم الصدود على وزن فعول ، كما قال ابن مالك في الخلاصة أيضاً :

وفعل اللازم مثل قَعَدا ... له فعول باطراً كغدا

ويجوز في مضارعه كسر العين وضمها .

والسبيل هي الطريق ، وأضيفت إلى الله لأنه هو الذي شرعها ووعد سالكيها بالثواب ، كما وعد مجتنبيها بالعقاب ، وهي تذكر وتؤنث .

قوله تعالى : « **ويبغونها عوجاً** »[1] الضمير راجع إلى السبيل فهي مؤنثة هنا ، ومن إعادة الضمير إلى السبيل مذكراً قوله تعالى : « **وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً** »[2] .

ومعنى « **يبغونها عوجاً** » أي يطلبون تلك السبيل لأن تكون معوجة ، وقوله : « **عوجاً** » مصدر نعت به ، أي في حال كونها عوجاء ، ووقوع المصدر المنكر حالاً جائز في اللغة العربية ، وإليه أشار ابن مالك في الألفية بقوله :

ومصدر منكر حالاً يقع بكثرة كبغتة زيد طلع

ومما يدخل في طلبهم اعوجاج السبيل الكفر واداعاء الأولاد والشركاء لله تعالى .

قوله تعالى : « **وهم بالآخرة هم كافرون** » أعاد الضمير للتوكيد أي لتوكيد كفرهم ، و « الآخرة » نعت لمحذوف ، أي الدار الآخرة وحذف المنعوت والنعت جائز إذا سلم السياق من التباس المعنى ، كما قال ابن مالك في الألفية :

وما من المنعوت والنعت عقل يجوز حذفه وفي النعت يقل

قوله تعالى : « **أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض** » تعود الإشارة إلى من تقدمت صفاتهم ، التي هي الظلم ، والصد عن سبيل الله ، وابتغاء العوج فيها ، ومعجزين جمع المعجز ، وهو اسم فاعل أعجز ، وهو متعد ومفعوله هنا محذوف ، تقديره : ربهم ، والمراد أنهم لا يفوتون الله سبحانه كما يحدث لبعض الناس في عصيان الملوك ، ثم الفرار منهم ، فلا يستطيع الملوك القبض عليهم ، بخلاف رب العالمين ، فلا يفوته شيء ، كما قال تعالى : « **وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم** »[3] .

« **وما كان لهم من دون الله من أولياء** » أي ما كان ولن يكون لهم غيره أولياء ، والولي في اللغة كل من انعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ، ويجعله

(١) من هنا بدأت المحاضرة الثامنة في ١٣٨٤/٧/٦هـ .
(٢) الأعراف : ١٤٦ .
(٣) التوبة : ٣ .

يواليك ، والمراد : ليس لهم أولياء يدفعون عنهم عذاب الله ويمنعونهم من ذلك ، والأولياء جمع ولي على وزن فعيل ، والقاعدة الصرفية أن فعيلاً إذا كان وصفاً معتل اللام ـــ كما هنا ـــ أو مضعفاً كحبيب اطرد جمعه على أفعلاء ، وإذا لم يكن معتلاً ولا مضعفاً فجمعه على فعلاء ، ككريم وكرماء ، وقد عقد ذلك ابن مالك في الخلاصة ، فقال :

ولكَريم وبخيل فعلا كذا لما ضاهاهما قد جعلا
وناب عنه أفعلاء في المعل لا ما ومضعف وغير ذاك قل

و « من » في قوله : « **من أولياء** » دالة على تنصيص عموم النفي ، كما سبق « **يضاعف لهم العذاب** » أي يضاعف لهم ضعفاً مكان إضلالهم وصدهم غيرهم ، وضعفا مكان ابتغائهم اعوجاج الطريق ، كما قال تعالى : « **وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم** »(١) وقال تعالى : « **ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون** »(٢) .

وثبت عن الرسول ﷺ قوله : « من سَّن سُنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من اوزارهم شيء »(٣) .

قوله تعالى : « **ما كانوا يستطيعون السمع وما كان يبصرون** » في تفسير هذه الآية للسلف أوجه :

الوجه الأول : أن المراد بها ما سبق من الأولياء المذكورين في قوله تعالى: «**وما كان لهم من دون الله من أولياء** » ، وصاحب هذا القول قد أبعد النجعة ، والمعنى أن الأصنام لا تستطيع ذلك ، كما قال تعالى : « **ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون** »(٤) وقال تعالى عن إبراهيم : « **إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً** »(٥) .

---

(١) العنكبوت : ١٣ .
(٢) النحل : ٢٥ .
(٣) راجع صحيح مسلم (٢/٧٠٥) .
(٤) الأعراف : ١٩٥ .
(٥) مريم : ٤٢ .

الوجه الثاني : ــ وعليه الأكثر ــ أنه متعلق بما يليه ، وذلك أن الله ختم على قلوبهم وعلى سمعهم ، والمختوم على قلبه وعلى سمعه لا يفهم ولا يسمع ، وهو ظاهر ، كما قال تعالى : « **الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا** »(١) أي لما جعل على قلوبهم من الأكنة ، وعلى أسماعهم من الوقر ، وعلى أبصارهم من الغشاوة .

وعلى هذا الوجه يرد إشكال يحتج به الجبرية ، وهو : إذا كان الله ختم على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة ، فإن المختوم على قلبه وسمعه ، لا يستطيع السمع والفهم ، لأجل الختم والطبع فهو مجبور ، وليس بمختار .

والجواب أن الله تعالى قد بين أن ذلك الختم والطبع والأكنة والغشاوة المانعة من الفهم للحق والسماع إنما سببه المسارعة إلى الكفر والكذب والتكذيب للرُسل اختياراً منهم ، فعاقبهم الله بذلك جزاء وفاقاً والجزاء من جنس العمل ، كما قال تعالى : « **فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً** »(٢) فكفرهم هو السبب في ذلك .

وقال تعالى : « **ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون** »(٣) .

وقال تعالى : « **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين** »(٤) .

وقال تعالى : « **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون** »(٥) .

وقال تعالى : « **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** »(٦) ويفهم من هذا أن من أطاع الله نور قلبه ، وقد قال تعالى : مصرحاً بذلك في قوله :

(١) الكهف : ١٠١ . (٢) النساء : ١٥٥ . (٣) المنافقون : ٣ .
(٤) الصف : ٥ . (٥) الأنعام : ١١٠ . (٦) سورة المطففين : ١٤ .

« والذين اهتدوا زادهم هدى وأتاهم تقواهم »[1] .

الوجه الثالث : أن ذلك جار على أسلوب عربي ، وهو أنه يعبر بعدم الاستطاعة عن الكراهة الشديدة جداً ، فيقول الذي يكره شخصاً كراهة شديدة ، لا أستطيع أن أكلمه وهو يستطيع ذلك ، ولكنه يعبر بعدم الاستطاعة عن شدة بغضه له وكراهته ، فالكفار لشدة كراهتهم للحق والقرآن ونفورهم عن ذلك نزلوا بمنزلة الذين لا يستطيعون السمع والإبصار والفهم كما قال تعالى عن قوم أول الرُسل ، نوح عليه السلام : **« وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً »**[2] بل إن الله تعالى حكى عن الكفار أنهم يكادون يضربون الذي يقرأ عليهم القرآن ، كما قال تعالى : **« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا »**[3] وقال تعالى عن قوم آخر الرُسل ﷺ : **« وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »**[4] .

فالسمع والبصر المنفيان هما النافعان المفيدان ، كما قال تعالى : **« ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذْ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن »**[5] .

قوله تعالى : **« أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون »** الإشارة إلى الذين تقدمت صفاتهم ، ودلت آيات أخرى أنهم خسروا أيضاً أهليهم ، كما قال تعالى : **« قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين »**[6] .

والمعنى أنهم رزؤا وغبنوا فيها ، يوضح ذلك أن غاية أماني الكفار يوم القيامة الموت والعدم ، كما قال تعالى : **« ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم**

---

(١) محمد : ١٧ . (٢) نوح : ٧ . (٣) الحج : ٧٢ . (٤) فصلت : ٢٦ .
(٥) الأحقاف : ٢٦ وراجع أضواء البيان (١٥/٣ — ١٧) . (٦) الزمر : ١٥ .

ماكثون »[١] . وهذا يدل على تمام الحسرة والخسران ، لأن حياتهم سيئة كلها كما قال تعالى : « **والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور** »[٢] .

« **وضل عنهم ما كانوا يفترون** » معنى ضل ــ هنا ــ غاب واضمحل ، يقال : ضل السمن في الطعام إذا اضمحل وغاب ، ومنه قوله تعالى : « **وقالوا أءِذا ضللنا في الأرض أءنا لفي خلق جديد** »[٣] أي اختلطت أجسادنا بها فغابت ، ومن هنا سمي الدفن ضلالاً ومنه قول الشاعر :

فآب مضلوه بعين جلية .

وقول الآخر :

ألم تسأل فتخبرك الديار   عن الحى المضلل أين ساروا

ومعنى الآية : غاب واضمحل ما افتروه في الدنيا من الشفعاء ، والافتراء الاختلاق ، وقد كانوا يعبدون غيره سبحانه ويدعون أن آلهتهم تشفع لهم عنده سبحانه وتعالى ، كما قال تعالى :

« **ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون** »[٤] .

و « ما » في قوله : « ما كانوا » اسم موصول ، وضمير الربط العائد إليه محذوف ، لأنه منصوب بالفعل ، والتقدير يفترونه وحذف العائد إلى الموصول مطرد في مثل ذلك ، كما قال ابن مالك في الخلاصة :

....   والحذف عندهم كثير منجلى
في عائد متصل إن انتصب   بفعل أو وصف كمن نرجو يهب

قوله تعالى : « **لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون** » .

---

(١) الزخرف : ٧٧ .   (٢) فاطر : ٣٦ .   (٣) السجدة : ١٠ .   (٤) يونس : ١٨ .

في جرم وجهان :

الوجه الأول : أن الكلمتين : « لا » و « جرم » بمعنى كلمة واحدة ، وهو : حقاً ، فهي للإثبات . والتحقيق أن العرب وضعته لذلك ، وهي مركبة تركيب خمسة عشر ، ويعود إلى هذا القول قول من فسرها ،بلا بد أولا محالة .

القول الثاني : أن « لا » نافيه ، و « جرم » معناه كسب ، والمعنى لا،ليس الأمر كما يزعم الكفار ، بل أن كفرهم كسب لهم الخسران الأعظم يوم القيامة ، وفاعل جرم ضمير مستتر يعود إلى الكفر والمصدر المسبوك من أن وصلتها في محل نصب مفعول جرم أي كسب لهم كفرهم الخسران .

« **في الآخرة** » أي في الدار الآخرة .

« **هم الأخسرون** » أي الأكثرون خسراناً ، لأنها صيغة تفضيل دالة على زيادة خسرانهم وكثرته .

وأصل الخسران نقص مال التاجر ، وهو في الاصطلاح الشرعي غبن العبد في حظوظه من الله تعالى . وهذا يحض المسلم على الحرص على عدم الغبن ، وقد أقسم الله تعالى أن هذا الخسران لا ينجو منه إلا من جمع صفات معينة ذكرها الله في سورة العصر وهي الإيمان بالله وبصفات جلاله وبكتبه والبعث والأنبياء وكل ما يشمله اسم الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر .

قوله تعالى : « **إن الذين آمنو وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** » .

جرت العادة أن الله تعالى إذا ذكر ما عنده من النكال للكافرين بسبب كفرهم ، ذكر ما عنده من الثواب والجزاء الحسن للمؤمنين ، لأن مطامع الناس كلها تنحصر في أمرين :

الأول : جلب النفع . **والثاني** : دفع الضرر .

والعرف أنه إذا عطف على الإيمان العمل الصالح انصرف الإيمان إلى الإيمان

الأكبر ، وهو الإيمان القلبي أي يؤمنون بقلوبهم بكل ما يجب الإيمان به ، كما بينه الله ورسوله في عدة نصوص .

و « **الصالحات** » أي الخصلات الصالحات ، ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا اجتمعت فيه ثلاثة أمور :

الأول : أن يكون مطابقاً للشرع ، لأنه لا يقبل عمل غير مطابق لما شرع الله تعالى ، كما قال جل وعلا : « **أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله** »(١) .

الثاني : أن يكون العمل مخلصاً لله تعالى : بأن قصد به صاحبه وجه الله ونقاه من شوائب إرادة المخلوقين ، كما قال تعالى : « **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** »(٢) .

الثالث : أن يكون العمل مبنياً على أساس العقيدة الصالحة لأنها للعمل كالأساس للبناء ، ولذلك قال تعالى هنا : « **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** » فقدم الإيمان الذي هو العقيدة الصالحة على العمل .

أما أعمال الكفار فهي مضمحلة لأنها ليست مبنية على عقيدة صحيحة ، ولذلك كان الإيمان شرطاً في صحة العمل ، كما قال تعالى : « **ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** »(٣) .

بل صرح سبحانه وتعالى أنه أحبط أعمال الكفار كلية ، فلا تنفعهم بشيء كما قال تعالى : « **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** »(٤) . وقال تعالى : « **مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد** »(٥) . والصالحات : جمع صالحة ، وتطلق الصالحة ــ وكذا الحسنة ــ كاسم جنس تتناسى فيهما الوصفية ــ على الخصلة الحسنة ، ومنه قول أبي العاص :

(١) الشورى : ٢١ . (٢) البينة : ٥ . (٣) النساء : ١٢٤ .
(٤) الفرقان : ٢٣ . (٥) إبراهيم : ١٨ .

بنت الأمين جزاك الله صالحة وكل بعل سيثنى بالذي علما

وقول الآخر :

الحب مشغلة عن كل صالحة وسكرة الحب تنفي سكرة الوسن

قوله تعالى : « **وأخبتوا إلى ربهم** » الإخبات من الخبت ، وهو المنخفض المطمئن من الأرض . وإذاً فالإخبات الخشية تداخل القلوب فتظهر آثارها على الجسم ، ولهذا قيل : الإخبات الخشية والإطمئنان والتواضع .

« **أولئك أصحاب الجنة** » الإشارة إلى الذين تقدمت صفاتهم . والصحبة تطلق على كل شيئين وقعت بينهما ملازمة طويلة ، وإنما سموا أصحاب الجنة ، لأنهم ملازموها ، والجنة في اللغة البستان ، قال زهير :

(كأن عيني في غربَىْ مقتلة من النواضح) تسقى جنة سحقا[1]

والمراد بها هنا دار الكرامة التي أعدها الله لعباده المؤمنين ، وفيها نهر يطرد ، وغرفة عالية ، وشجرة مثمرة ، وزوجة حسناء ، بل فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

« **خالدون** » أي ماكثون ، والمراد بالخلود هنا الديمومة والبقاء الأبدي الذي لا انقطاع فيه ، كما قال تعالى : « **عطاء غير مجذوذ** »[2] وقال : « **إن هذا الرزقنا ما له من نفاد** »[3] .

قوله تعالى : « **مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون** » .

هذا توضيح لما مضى من قوله : « **ومن أظلم ممن افترى** » إلى قوله : « **هم الأخسرون** » ومن قوله : « **إن الذين آمنوا** » إلى قوله : « **خالدون** » فهم قسمان : فريق المؤمنين في الجنة ، وفريق الكفار في النار .

---

(١) الذي أدركته مع الشيخ هو محل الشاهد : تسقي جنة سحقا ، وقد أكملت ما فاتني من كتاب : مختار الشعر الجاهلي تحقيق مصطفى السقا (١/٢٤٧) .

(٢) هـود : ١٠٨ . (٣) ص : ٥٤ .

« **كالأعمى والأصم** » هذا مثل للفريق الكافر ، فهم عمي البصائر لا يرون الحق حقاً ، ولا الباطل باطلاً ، ولا الضار ضاراً ، ولا النافع نافعاً ، ولا الحسن حسناً ، ولا القبيح قبيحاً ، صم الأذان ، لا يسمعون الكلام الحسن الذي ينفعهم ، فيأخذون به ، ولا الكلام القبيح الذي يضرهم فيجتنبونه .

« **والسميع والبصير** » وهذا مثل للفريق المؤمن ، فهم يرون ببصائرهم ويعقلون ويسمعون ما ينفع فيأخذون به ، وما يضر فيجتنبونه . وقد جرت العادة أن الله تعالى يضرب الأمثال في القرآن للمعقولات بالمحسوسات ، حتى تصير المعقولات كالمحسوسات ، ولكن الله تعالى أخبر أنه لا يَنْفَع بالأمثال إلا الذين لهم بصائر وهو الفريق المؤمن ، كما قال تعالى : « **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** »[1] بل أخبر تعالى أن تلك الأمثال لا تزيد الكفار ، إلا ضلالاً ، كما قال تعالى :« **إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين** »[2] .

والأعمى والأصم صفتان مشبهتان من عمي وصمم ، وأكثر الكلاميين على أن العمى والصمم عدميان ، وبعضهم يقول : إنهما وجوديان ، والمراد بهما آفتان مانعتان من الإبصار والسمع ، والصفة المشبهة من فعِل بكسر العين إذا دلت على لون أو عاهة اطرد وزنها على أفعل كما هنا في الآفة والعاهة ، وكجذم فهو أجذم ، واللون كسود فهو أسود وحمر فهو أحمر .

والحقيقة أن البصر الحقيقي هو صلاح البصيرة ، ولا يضر عمى البصر مع نور البصيرة ، كما قال تعالى : « **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** »[3] .

وقال الشاعر :

إذا أبصر القلب الحقيقة والتقى   فإن عمى الأبصار ليس يضير

(١) العنكبوت : ٤٣ .   (٢) البقرة : ٢٦ .   (٣) الحج : ٤٦ .

والنور الإلٰهي والشعاع السماوي هو الذي يرى به الحق ، وآداب القرآن هي الزيت الذي يمد الإيمان فيزداد نوره .

« **هل يستويان مثلاً** » أي الفريقان السابقان هل تستوي صفاتهم وما يترتب عليها في الدنيا والآخرة ، ومثلاً تمييز محول عن الفاعل ، أي هل يستوي مثلهم ، ولا شك أن صفتهم لا تستوي ، وهم لا يستوون كما قال تعالى : « **أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم** »[1] .

« **أفلا تذكرون** » سبق الكلام على الهمزة مع حرف العطف[2] والتقدير هنا : أتغفلون فلا تتذكرون ، والتذكر الاتعاظ ، والتاء في تتذكرون يجوز إثباتها وحذفها على حد قول ابن مالك في الألفية :

وما بتائين ابتدى قد يقتصر   فيه على تا كتبين العبر

(١) الملك : ٢٢ .

(٢) في أول الآية رقم : ١٧ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾
أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ
﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا
مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ
ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ
﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً
مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ
أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ
قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ
أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ
أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا
لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ
إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ
نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ
هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ
قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

٣ ـ دعوة نوح قومه وموقفهم المتعنت منه ومن المؤمنين به

قوله تعالى : « **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه** » .

بدأ الله تعالى بقصص الأنبياء في هذه السورة تسلية للنبي ﷺ وبيان أن الشدة التي لاقاها من قومه قد لاقاها إخوانه من الأنبياء قبله ، كما قال تعالى : « **ما يقال لك إلا ما قد قيل للرُسل من قبلك** »[١] .

« **إني لكم نذير مبين** » الجملة مقول قول محذوف ، وحذف القول وإبقاء مقوله كثير جداً ، بخلاف حذف المقول وإبقاء القول ، ومنه قول الشاعر :

لنحن الأولى قلتم فأنَّى بليتم   برؤيتنا قبل اهتمام بكم رعباً

(١) فصلت : ٤٣ .

[1] ففي قصص الأنبياء تسلية للنبي ﷺ ، لأنه لم يقع له إلا ما وقع لإخوانه الرُسُل من قبل ، كما أن فيه تهديداً للمشركين ، لأنه يهددهم بأنه سينزل بهم ما أنزل بإخوانهم الكفار الأولين .

وإنما بدأ بنوح عليه السلام ، لأنه أول رسول أرسل إلى أهل الأرض حينما انتشر الشرك بينهم ، ويُسمى نوح عليه السلام « آدم الأصغر » لأن البشرية كلها بعده من ذريته ، كما قال تعالى : « **ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه من الكرب العظيم وجعلنا ذريته هم الباقين** »[2] .

والله تعالى لم يسم قوم نوح في القرآن ، وكذا قوم لوط ، وسمى قوم صالح ــ وهم ثمود ــ وقوم هود ــ وهم عاد ــ وقوم شعيب ــ وهم مدين ــ كما سيأتي ذلك في هذه السورة .

واللام في قوله : « ولقد » موطئة للقسم ، أي والله ، وجيء بضمير الجمع في قوله : « أرسلنا » للتعظيم ، وقد فصل الله تعالى قصة نوح مع قومه في سور عديدة من القرآن الكريم ، ومنها هذه السورة وخصه تعالى بسورة كاملة سميت باسمه والقوم اسم جمع لا واحد له من لفظه ، وهو في الأصل للرجال ويدخل فيه النساء تبعاً ، والدليل على إطلاقه ــ في الأصل ــ على الرجال قوله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن** »[3] .

وما أدرى ولست إخال أدرى   أقوم آل حصن أم نساء

ومما يدل على دخول النساء تبعاً في لفظ قوم قوله تعالى : « **وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين** »[4] .

« **إني لكم منه نذير مبين** » هذا تأكيد للنذارة لهم ، لأنهم ادعوا أن نوحاً عليه السلام كان مجنوناً وساحراً .. والنذير بمعنى منذر والانذار الإعلام المقترن

---

(١) من هنا بدأت المحاضرة التاسعة في ١٣٨٤/٧/٨هـ .
(٢) الصافات : ٧٥ ــ ٧٧ .
(٣) الحجرات : ١١ .
(٤) النمل : ٤٣ .

بالتهديد ، أي اعلمكم مهدداً لكم بعذاب الله إن لم تنتهوا عن تكذيبكم وكفركم وافترائكم الاتهامات الكاذبة ومعنى : مبين ، بين الانذار واضحه ، ويطلق أبان وبيّن لازمين ومتعدِيين ، ومبين هنا لازم ، ومن إطلاق أبان بمعنى ظهر لازماً قول الشاعر :

لو دب ذر فوق ضاحي جلدها ... لأبان من آثارهن حدود

وبعضهم يجعل قوله : « مبين » متعدياً ومفعوله محذوف ، تقديره : مبين كل ما ينفع ليعمل به ، وكل ما يضر ليجتنب ، وجملة « إني لكم » في محل نصب مقول قول محذوف ، وقد سبق .

« **أن لا تعبدو إلا الله** » المصدر متعلق بقوله : نذير ، والأظهر أنّ أنْ مفسرة ، أي منذركم عن عبادة غير الله ، وقيل حرف الجر مقدر قبل أن والتقدير : عن أن لا تعبدوا إلا الله .

« **إني أخاف عليكم** » في هذا الحرف « إني » قراءتان : الأولى بفتح الياء والثانية بإسكانها .

« **عذاب يوم أليم** » أي إن عبدتم غير الله .

وهنا سؤال ، وهو : كيف يعبر بالخوف عليهم مع أنهم واقع عليهم العذاب لا محالة ؟ والجواب : أن محل الخوف هو خشية الاستمرار في الكفر والضلال فيقع ويحل عليهم العذاب الذي هو جزاء كفرهم ، وقيل لا مانع من إطلاق الخوف مع اليقين من وقوع ما يخاف منه ، ومنه قوله تعالى : « **إلا أن يخافا ألّا يقيما حدود الله** »(1) .

وقول الشاعر :

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة ... تروي عظامي من نداها عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

---

(١) البقرة : ٢٢٩ .

وقوله : « أليم » نعت للعذاب ، وهو مجرور ، ففيه شاهد للخفض بالمجاورة ، وهو ظاهر ، وقد بينا هذا المبحث في سورة المائدة عند الكلام على آية الوضوء[1] .

وبعضهم يجعله نعتاً ليوم ، والعرب تنعت الظروف والأيام بالشدة لما يقع فيها من الشدة العظيمة ، ومنه قول الشاعر :

.... وقد سلكوك في يوم عصيب

« فقال الملأ » هم الأشراف والسادة ، ولم يصب من أطلقه على القوم من حيث هم ، لأنه خاص بالرؤساء ، وهم هنا الرؤساء العتاة المتمردون ، وسموا ملأ ، لأنهم يتمالؤن كلهم على من يعادون دفاعاً عن عقيدتهم ، وقيل لأنهم يملأون العيون ، وقيل لأنهم يملأون صدور المجالس .

« **الذين كفروا** »[2] .

« **ما نراك إلا بشراً مثلنا** » زعموا أن البشرية مانعة من الرسالة ، وهي أكثر ما ابتلاهم الله به وأكبر الموانع من إيمانهم بالرُسل ، كما قال تعالى : « **وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً** »[3] .

وقال تعالى : « **كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشرا منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر** »[4] .

وقال تعالى : « **ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون** »[5] .
وقال تعالى : « **وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً** »[6] .

---

(١) أضواء البيان (٧/٢) وما بعدها .

(٢) قال الشوكاني : « وفيه دليل على أن بعض أشراف قومه لم يكونوا كفرة » . فتح القدير (٤٧٠/٢) يعني أن وصف الملأ بالكافرين ، يفهم منه أن هناك بعض الملأ ليسوا كفاراً .

(٣) الاسراء : ٩٤ .

(٤) القمر : ٢٤ .

(٥) المؤمنون : ٣٤ .

(٦) الفرقان : ٧ .

وهذه شبهة فاسدة وقياس فاسد ، فإن الله تعالى لم يرسل رسولاً إلى أمة إلا وهو من جنس البشر ، ليتم الابتلاء ، كما قال تعالى : « **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى** »(١) . ولو أن الله تعالى أرسل إليهم ملائكة لما أطاقوا ذلك ، ولاضطروا أن يطلبوا رسولاً منهم ، ولاختلط عليهم الأمر ، كما قال جل وعلا : « **وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون** »(٢) .

وقد حكى الله تعالى عن قوم كل الرسل أنهم يحتجون بهذه الشبهة الفاسدة ، حيث قال تعالى : « **ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب قالت لهم رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مُسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد اباؤنا فأتونا بسلطان مبين قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون** »(٣) .

فكون الرسل بشراً سبب مانع عندهم من قبول دعوتهم وداع إلى تكذيب ما جاؤا به من عند الله ، وقد أقر لهم الرُسل أنهم بشر ولكنهم ردوا عليهم بأن الله جل وعلا يمن على من يشاء من عباده ، وقد من عليهم فلا اعتراض عليه .

والبشر الإنسان ، سمى بشراً لأن بشرته بادية لا يسترها شعر ولا وبر هذه هي الشبهه الأولى للكفار ، وهي كون الرسل بشراً مثل عامة الناس .

« وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأي» .

وهذه هي الشبهة الثانية ، وهي أنهم يقولون : لو كان ما عند الرسل فيه

---

(١) يوسف : ١٠٩ . (٢) الأعراف : ٨ ، ٩ . (٣) إبراهيم : ٩ — ١١ .

فائدة وذا أهمية لما كان المبادرون إليه هم الأراذل والضعفاء العقول الذين لا يستحقون أن تكون لهم درجة وميزان عند الله .

وهذه الشبهة من الأمور التي يتعجب منها ومن سخافة أهلها كما قال تعالى : « **أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** »(١) .

وقد أجرى الله العادة في عباده أن أول المسارعين لطاعة رسله هم الفقراء والضعفاء فيهم ، وهم أكثر أهل الجنة ، وأن أول من يبادر إلى التكذيب هم الأشراف والرؤساء ، لأنهم يحبون الرئاسة والشرف وأن يكونوا متبوعين لا تابعين ، وهم أكثر أهل النار يوم القيامة ، قال تعالى : « **وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون** »(٢) .

ولما سأل هرقل أبا سفيان عن أتباع النبي ﷺ ، قال له : أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ، قال : بل ضعفاؤهم — ظناً من أبي سفيان أن ذلك يطعن في رسالة النبي ﷺ — فقال هرقل : وكذلك أتباع الرسل(٣) .

والأراذل جمع الأرذل ، أي الأشد رذالة ، والرذالة التفاهة والدناءة وسقوط القيمة ، فالأراذل معناه الأسافل الدنيؤن الساقطو القيمة ، كما قالوا في موضع آخر مستنكرين إيمانهم برسل الله وقد اتبعهم الأراذل في زعمهم : « **قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** »(٤) .

ومرادهم أن الأشراف لم يتبعوكم يا من تدعون أنكم رسل الله ، وهم الذين عندهم عقل وروية ، وإنما اتبعكم الأسافل الذين لا عقول عندهم ولا روية .

« بادي الرأي » أي عند أول فكرة تعرض يتبعونها ولا يتثبتون حتى ينظروا ما يصلح وما يضر ، والأصح في إعراب « بادي » أنه ظرف ، العامل فيه قوله : « اتبعك » .

---

(١) الأعراف : ٤٩ .
(٢) سبأ : ٣٤ .
(٣) راجع قصة أبي سُفيان مع هرقل في صحيح البخاري (١/٤ — ٧) . وصحيح مسلم (١٣٩٣/٣ — ١٣٩٧) .
(٤) الشعراء : ١١١ .

« وما نرى لكم علينا من فضل » أصل الفضل الزيادة ، أي ليس لكم علينا ميزة وشرف تجعلكم بمنزلة الرسالة حتى نتبعكم ، لا أنت يا نوح ولا أتباعك .

« بل نظنكم كاذبين » أي مخبرين بخلاف الواقع ، وأصح الأقوال في تعريف الكذب أنه الإخبار بخلاف الواقع .

« قال يا قوم » أصله : يا قومي ، حذفت ياء المتكلم ، وبقيت الكسرة ، وهي إحدى خمس لغات في المنادي الصحيح الآخر المضاف إلى ياء المتكلم ، وقد عقدها ابن مالك في الخلاصة بقوله :

واجعل منادى صح إن يضعف ليا   كَعَبدِ عبدى عبدَ عبدَا عبديا

« أرأيتم إن كنت على بينة من ربي » أي أخبروني ، والمراد بطلب هذا الإخبار تعجيزهم ، والقامهم الحجر والجاؤهم إلى الإقرار بعدم الحجة على تكذيبهم .

أي أخبروني « إن كنت على بينة » أي برهان وحجة واضحة أني على إيمان وحق .

« من ربي » أي إن البينة صادرة من الله تعالى ، وليست مني أنا .

« فعميت عليكم » يجعل هذا بعض العلماء من القلب ، والقلب على نوعين :

النوع الأول : في المعاني ، والثاني في البديع ، وضابطه في البديع أن يقرأ الكلام من آخره كما يقرأ من أوله ، مثل قوله تعالى : « **وربك فكبر** » أي فكبر ربك ، وليس كلامنا الآن في هذا النوع ، بل في النوع الأول ، وهو القلب في المعاني ، وفيه خلاف :

فالبلاغيون لا يجوز عندهم إلا إذا تضمن إشارة لطيفة أو نكتة بلاغية ، كالتشبية المقلوب ، كما في قول الشاعر :

ومهمـــه مغبرة أرجـــاؤه   كأن لون أرضه سماؤه

وقول الآخر :

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

والنكتة فيه بيان أن المشبه صار في قوة هي فوق المشبه به .

والنحويون يجيزون ذلك ويرون أنه أسلوب عربي ، وأكثرهم أنه سماعي ، ومن ذلك قلب المفعول فاعلاً ، والفاعل مفعولاً ، لأن ذلك يورد طرافة في الكلام ، ومنه قوله تعالى هنا : « **فعميت عليكم** » بالتخفيف[1] ، والأصل فعميتم عنها ، ومنه قول الشاعر :

.... وقد تلفع بالقور العساقيل

والأصل : وقد تلفع بالعساقيل القور ، لأن القور الحجارة والعساقيل السراب .

وبعض العلماء لا يرى في الآية قلباً ، لأن من أساليب العرب أن يقال : عميت الطريق ، إذا اندرست وخفيت ، والأول أولى ، ومنه قوله تعالى : « **وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة** »[2] . والأصل أن العصبة هي التي تنوء بالمفاتيح لثقلها لأن العصبة هي التي تحمل المفاتيح .

« **فعميت** » أي انطمست وخفيت لطمس بصائركم ، لما جعل الله عليها من الغشاوة ، ولما طبع على قلوبكم بسبب كفركم .

« أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » يقول هذا على وجه الأسف ، أي أنجبركم على أن تأخذوا بهذه البينة وتنقادوا لها ، في حال أنكم صادون عنها مبغضون لها ، فكأنه يقول لهم : لا حيلة لي إلى قهركم ، ويتضح ذلك في قوله لهم فيما يأتي : « **ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم** »[3] .

وفي هذه الآية شاهد نحوي على أن الوصل للضمير المنصوب بالفعل الذي من

---

(١) والتشديد أيضاً كما في رواية حفص المعروفة في مصاحفنا ، ولعل الشيخ أشار إلى القراءتين وفاتني إحداهما .

(٢) القصص : ٧٦ .

(٣) في الآية : ٣٤ .

باب سأل أولى من الفصل ، فإن « نلزم » من هذا الباب وقد وصل ، ولم يقل : نلزمكم إياها ، وإلى ذلك أشار ابن مالك في الخلاصة بقوله :

وصل أو افصل هاء سلنيه وما أشبهه ....

(تقديم ابن مالك للوصل يؤذن بترجيحه عنده) .

والظاهر أن الضمير في قوله تعالى : « لها » راجع إلى البينة ، وقيل يعود إلى الرحمة .

« ويا قوم لا أسألكم عليه ما لا إن أجري إلا على الله » .

الضمير في : « عليه » يعود إلى ما دعاهم إليه من عبادة الله وفضله ورحمته وغيرها من الخير المعلوم من السياق ، أي لا أطلب منكم جعلا على ما أبلغكم إياه وأدعوكم إليه من الإيمان بالله وطاعته ، والذي يطلب جعلا وأجراً على ما يدعو إليه هو الذي قد يظن به السوء ، أنه إنما دعا لمصلحة نفسه .

وهذه الآية تدل أن الرُسُل عليهم الصلاة والسلام لا يأخذون عوضاً على دعوتهم للناس ، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً .

من ذلك قول الله جل وعلا : « **وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم متهدون** »[١] . وقوله تعالى : « **أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون** »[٢] .

وقوله تعالى : « **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد** »[٣] .

ومعنى قوله تعالى : « **قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى** »[٤] . أي أن تراعوا مودتي في القُربى التي بيني وبينكم ، فلا تؤذوني ، وليس هذا جعلاً ، لأن مراعاة المودة بالقربى أمر عادي مبذول للأسود والأحمر ، وقيل معنى الآية : أن توادوني في قرابتي بعدي ، والأول أوضح .

(١) يس : ٢٠ ، ٢١ .
(٢) القلم : ٤٦ .
(٣) سبأ : ٤٧ .
(٤) الشورى : ٢٣ .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة وأمثالها أن ورثة الرُسُل عليهم السلام لا ينبغي لهم أن يأخذوا جعلاً على تعليمهم القرآن والدين ، بل يعلمون مجاناً ، وقد بينا في أول سورة هود هذه في كتابنا « أضواء البيان » اختلاف العُلماء في ذلك وما جاء في هذه المسألة من النهي[١] . وعلوم الوحي موروثة عن الأنبياءِ فلا يؤخذ عنها عوض .

وقال بعض العلماء : إن أخذ الأجر ليس ممنوعاً ، بل هو جائز وقد نص عليه الرسول ﷺ بقوله : « إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله »[٢] .

قالوا : والحديث ــ وإن كان ورد في سبب خاص ، وهو الرقية ، فلا عبرة بخصوص السبب ، بل العبرة بعموم اللفظ فهو ــ يتناول السبب وغيره ، كالتعليم ، بدليل العموم .

ومن أدلتهم أيضاً حديث سهل بن سعد الساعدي ، رضي الله عنه ، في المرأة التي عرضت نفسها ولم يتزوجها الرسول ﷺ ، فطلب بعض الصحابة منه أن يزوجه إياها فزوجه بما معه من القرآن[٣] .

وقيل : إن المراد إكرام ذلك الرجل بسبب ما يحفظه من القرآن ، والواقع أن الحديث يدل على أخذ العوض في الجملة .

أما ما يجعله ولاة الأمور للعلماء من المساعدة على تسهيل مهمتهم والتفرغ لما ينفع الناس ، فليس من الأجر الممنوع ، بل هو من الإعانة على الخير ، لأنه إذا

---

(١) أضواء البيان (٣/٢٠ ــ ٢٥) .

(٢) صحيح البخاري (٧/٢٣) . وراجع نفس المصدر أيضاً (٣/٥٣) .

(٣) ونص الحديث عن سهل : (أن امرأة عرضت نفسها على النبي ﷺ ، فقال له رجل : يا رسول الله زوجنيها ، فقال : « ما عندك » ؟ قال : ما عندي شيء ، قال : « اذهب فالتمس ولو خاتماً من حديد » . فذهب ثم رجع ، فقال : لا والله ما وجدت شيئاً ولا خاتماً من حديد ، لكن هذا إزاري ، ولها نصفه ، قال سهل : وماله رداء ، فقال النبي ﷺ : « وما تصنع بإزارك إن لبسته لم يكن عليها منه شيء ، وإن لبسته لم يكن عليك منه شيء » ، فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام فرآه النبي ﷺ ، فدعاه أو دعى له ، فقال له : « ماذا معك من القرآن » ؟ فقال له : معي سورة كذا وسورة كذا ، لسور يُعددها ، فقال النبي ﷺ : « أملكناكها بما معك من القرآن » . صحيح البخاري (٦/١٢٩ ــ ١٣٠) .

لم يُجعل لهم شيء فسيضطرون إلى ترك الاشتغال بما لا يقوم به غيرهم ، ليكدحوا على أنفسهم .

ولهذا حينما ولى أبو بكر رضي الله عنه ، وأراد أن يذهب إلى السوق ليبيع بعض الثياب ويتجر فيها لكسب رزقه منعه الصحابة من ذلك وأشاروا عليه أن يأخذ ما يكفيه من بيت مال المسلمين ، لأنه محبوس في خدمتهم ، فمثل هذا ليس فيه حرج[١] .

وبعض العلماء يرون المنع مطلقاً بحجة أنه لا يخلو أخذه عوضاً من تناول الأجر على ما يجب عليه تبليغه ، كالرسل عليهم السلام .

والتحقيق إن شاء الله أن التعفف لمن رزقه الله تعالى ما يكفيه أفضل من الأخذ ، سواء كان من بيت المال أو من غيره ، وأن المحتاج الذي لو لم يأخذ شيئاً لما استطاع القيام بالواجب الذي لا يقوم به غيره لا مانع من أخذه ما يكفيه .

قوله تعالى : « **إن أجري إلا على الله** » الأجر جزاء العمل ، أي ما جزاء عملي وتحملي المشاق ومكابدتي في التبليغ إلا عند الله جل وعلا ، وقد ذكر الله تعالى عن بقية الرسل كلهم أنهم قالوا كما قال نوح هنا في سورة الشعراء[٢] .

وإنما عبر بعلى في قوله : « **على الله** » المفيدة للالتزام ، لأن الله تعالى أوحى إليه أنه التزمه وجعله على نفسه .

وفي الكلام حذف دل عليه المقام ، كأنهم قالوا : إذا كنت تقول : إنك رسول وتريدنا أن نتبعك ، فاطرد هؤلاء الأراذل الأسافل من عندك ، فقال الله تعالى عنه ، رداً عليهم .

« وما أنا بطارد الذين آمنوا » وقد عبر نبي الله نوح عليه السلاح تعبيراً يرفع قدر الذين وصفوهم بأنهم أراذل بقوله :«**الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم**» مقابلة لما وصفوهم به ومضادة لكلامهم فيهم وإكراماً لاتباعه المسلمين .

---

(١) راجع قصة أبي بكر المشار إليها في تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٧٨ .
(٢) آية : ١١٠ ، وما بعدها .

و « طارد » يجوز أن يكون محلها النصب ، على أن ما حجازية وأن تكون مجرورة بالباء ، على أنها تميمية ، والباء هنا مؤكدة للنفي ، والإسناد الخبري المنفي يؤكد بالباء : كما يؤكد الإسناد الخبري المثبت باللام ، وقد ، وإنّ ، ونحوها ، والطرد الإبعاد والتنحية ، وكأنّ نبي الله نوحاً عليه السلام يقول لهم : وصفهم يقتضي تقريبهم ، وليس إبعادهم .

« ملاقو ربهم » ملاقو على وزن مفاعو ، لأن لامه التي هي الياء محذوفة ، وأصله ملاقيو ، ولما حُذفت الياء جعلت كسرة القاف ضمة ، مجانسة للواو ، وحذف الياء مطرد في جمع التصحيح ، وهو مضاف إلى رب من « ربهم » من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله .

قوله تعالى : « **ولكني أراكم قوماً تجهلون** » أي من صفاتكم الذميمة الجهل الذي يجعلكم لا تفرقون بين حق من باطل ، والجهل قيل عدمي وقيل وجودي ، وبعضهم يفرق بين الجهل المركب والجهل البسيط . والصحيح أن الجهل عدم العلم بما من شأنه أن يعلم .

« **ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون** » هذا تفسير لما قبله من ملاقاة أتباعه لربهم ، أي لأني إن طردتهم بغير ذنب فمن يدفع عني عذابه بسبب تلك الجريمة لوحصلت مني عند ملاقاته « **أفلا تذكرون** » أي تتعظون .

قوله تعالى : « **ولا أقول لكم عندي خزائن الله** » .

(١) الخزائن أمكنة خزن الأرزاق ، أي ليست عندي ولا أنا ادعيتها ، حتى تكذبوني بسبب عدم وجودها .

« **ولا أعلم الغيب** » الغيب يطلق على كل ما غاب من المعلومات وعلم الغيب مختص بالله تعالى ، ولا يعلم أحد من خلقه شيئاً منه إلا ما أطلع الله عليه رسله .

---

(١) من هنا بدأت المحاضرة العاشرة في ١٣٨٤/٧/١١هـ .

وقد بين الله عز وجل أن أشرف خلقه كلهم ، وهم رسله وملائكته لا يعلمون الغيب ، كما قال تعالى هنا عن أول الرسل ، نوح عليه السلام : « **ولا أعلم الغيب** » وقد كان نوح لا يعلم أن ابنه ليس من أهله الناجين حتى قال : « **رب إن ابني من أهلي** »(١) ، فأخبره الله جل وعلا أنه ليس من أهله بقوله : « **إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم** »(٢) .

وكذلك الملائكة حينما عرضت عليهم الأسماء أقروا أنهم لا يعلمون إلا ماعلمهم الله تعالى ، كما قال جل وعلا : « **وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العزيز الحكيم** »(٣) .

وآخر الرسل نبينا ﷺ رميت أحب أزواجه إليه بالفاحشة وكان لا يعلم براءتها حتى كان يقول : « كيف تيكم ؟ »(٤) حتى أنزل الله تعالى : « **أولئك مبرؤن مما يقولون** »(٥) .

وإبراهيم الخليل عليه السلام ذبح للملائكة العجل وهو لا يدرى أنهم ملائكة ، ولما لم يأكلوا أوجس منهم خيفة ، حتى أخبروه أنهم ملائكة ، كما قال تعالى : « **ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط** »(٦) .

ولوط عليه السلام ظن الملائكة شباباً مرداً من البشر ، وخاف أن يفعل فيهم قومه الفاحشة ، ولم يعلم أنهم ملائكة ، حتى أخبروه هم بذلك ، كما قال تعالى : « **ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب** ــ إلى قوله تعالى ــ : **قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك** »(٧) .

---

(١) كما سيأتي في الآية : ٤٥ من هذه السورة (٢) الآية : ٤٦ من هذه السورة (٣) البقرة : ٣٠ ، ٣١
(٤) راجع قصة عائشة في هذا في صحيح البخاري (٦/٥ ــ ٩) وصحيح مسلم (٢١٢٩/٤ ــ ٢١٣٦) .
(٥) النور : ٢٦ . (٦) الآيتان : ٦٩ ، ٧٠ من هذه السورة .
(٧) الآيات من : ٧٧ إلى ٨١ من هذه السورة .

وقد أرجع الله جبرائيل عليه السلام في صورته الأصلية حينما أراد قوم لوط أن يقتحموا الباب لأضيافه ، فسلطه الله عليهم فمسح وجوههم بأحد أجنحته ، فأعماهم ، كما قال تعالى : « **ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر** »[1] .

وسليمان عليه السلام ، على ما آتاه الله من ملك ، ما كـان يدري عن جغرافية مأرب وملكة سبأ شيئاً ، حتى إنه لما هدد الهدهد بسبب غيبته ، وقال : « **لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين** » . لم يبال الهُدهُد بتهديده ، لما عنده من العلم الغريب الذي يدرى أن سليمان لا يعلمه ، فقال متبجحاً أمامه : « **أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإٍ بنبإٍ يقين** » . ولم يزد سُليمان على أن قال : « **سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين** »[2] .

وكل الأنبياء لا يعلمون إلا ما أطلعهم الله عليه ، كما قال تعالى : « **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول** »[3] .

وقد أطلع الله جل وعلا نبينا ﷺ على أمور كثيرة من المغيبات ، حتى إنه قام ذات يوم يخطب في قومه من بعد صلاة الفجر حتى الظهر ، ثم صلى الظهر وقام يخطب فيهم حتى صلى العصر ، ثم قام يخطب حتى صلى المغرب ، وذكر أموراً كثيرة هائلة في ذلك اليوم ، حفظها من حفظ ، ونسي من نسي[4] .

وقد أخبر الله جل وعلا أنه هو المختص بعلم الغيب ، حيث نفاه عن كل أحد سواه وأثبته لنفسه ، كما قال سبحانه : « **قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون** »[5] .

(وهنا سُئِلَ فضيلة شيخنا المُفسر السؤال الآتي : أيجوز إطلاق علم الغيب على أحد من الرُسُل الذين أطلعهم الله على بعض المغيبات كما يطلق على الذي يعلم مسائل الفقه أنه فقيه أم لا يجوز ذلك ؟) فأجاب :

(١) القمر : ٣٧ .

(٢) النمل : ٢٠ ــ ٢٧ .

(٣) الجن : ٢٦ ، ٢٧ .

(٤) راجع صحيح مسلم (٢٢١٧/٤) .

(٥) النمل : ٦٥ .

إن ذلك لا يجوز أبداً ، لأن علم الغيب صفة مختصة بالله تعالى ، وقد نفاها عن كل خلقه ، وكونه يطلع بعض خلقه على بعض الغيب لا يقتضي أن يوصفوا بما وصف به ، وليس هذا من تعظيم الرُسُل كما يزعم بعضهم ، بل إن تعظيم الرُسُل في نفي علم الغيب عنهم ، لأنهم هم الذين أخبرونا أن علم الغيب مختص بالله تعالى ، وأنهم لا يعلمون إلا ما علمهم به هو .

وفرق بعيد بين ما ذكر من كون من يعلم بعض المسائل الفقهية يطلق عليه أن فقيه ، وبين من أطلعه الله على بعض الغيب ، فإن الأول علم مسائل الفقه بملكة راسخة فيه يستطيع أن يتوصل بها إلى علم المسائل باستمرار . أما الثاني فلا طريق له إلى الوصول إلى علم الغيب فيه إلا ما أخبره الله به .

وهذا آخر الرُسُل وأفضلهم ، نبينا ﷺ يقول الله تعالى عنه : « **قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون** »(١) .

والله جل وعلا يُخاطب خلقه بقوله : « **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أُوتيتم من العلم إلا قليلا** »(٢) .

فهل فطن الذين يزعمون أن الرسول ﷺ علم كل المغيبات لهذه الآيات وأمثالها مما يصعب حصره ، ثم هو ﷺ في حجة الوداع في آخر حياته يقول : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدى ولجعلتها عمرة »(٣) .

وقد سبق أن الله تعالى أطلعه على كثير من المغيبات ، ومما أخبر به ووقع ما جاء في صحيح مسلم أنه ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لتتركن القلاص فلا يسعى عليها »(٤) .

---

(١) الاعراف : ١٨٨ (٢) الاسراء : ٨٥ . (٣) سبق تخريج الحديث في تفسير الآية الأولى من السورة .
(٤) صحيح مسلم (١/١٣٦) من حديث أبي هريرة ، ذكره شيخنا رحمه الله بالمعنى ولفظه : « والله لينزلن ابن مريم حكماً عدلاً ، فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها ، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد « والشاهد هو » . « ولتتركن القلاص » . وهي الإبل فإنها قد تركت في هذا الزمان بسبب وجود المراكب الحديثة ، وندر استعمال الإبل .

ومن أكثر الناس حفظاً وروايةً لما أخبر به النبي ﷺ من المغيبات حذيفة وأبو هريرة رضي الله عنهما .

قوله تعالى : « **ولا أقول إني ملك** » أي لم أدع أني ملك حتى تكذبوني فيما جئتكم به وتقولوا أنت بشر ، وقد اعترف الأنبياء كلهم أنهم بشر ، وإنما مَنَّ الله عليهم بالرسالة ، كما قال الله تعالى عنهم : « **إن نحن إلا بشرٌ مثلكم ولكن الله يَمُنُّ على من يشاء من عباده** »[١] . وقد سبق إبطال ادّعائهم أن البشرية تنافي الرسالة[٢] .

« **ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً** » .

« تزدري » على وزن تفتعل ، أصل دالة تاء ، قلبت دالاً لوقوعها بعد الزاي ، كما قال ابن مالك في الخلاصة .

(طاتا افتعال رد إثر مطبق) في ادّان وازدد وادّكر دالا بقى

ويُقال : زراه إذا احتقره وغمطه وعابه ، ومن مجيء زرى بهذا المعنى قول الشاعر :

.... ذاك الغاصب الزاري

وقول الآخر :

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور

وإنما نسب الازدراء إلى العين ، لأنها آلة النظر الذي يتسبب عنه الازدراء ، والضمير الرابط العائد إلى الموصول محذوف ، تقديره : تزدريهم ، أي تنبو وتعدو عنهم لحقارتهم وهو كقوله تعالى : « **ولا تعد عيناك عنهم** »[٣] .

« **لن يؤتيهم الله خيراً** » كان الكفار يقولون : الله أجل وأعظم من أن يهتم بمثل هؤلاء ، يعنون المسلمين الفقراء ، وقد أنكر الله عز وجل عليهم حيث قال : « **أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة** »[٤] . وهنا يقول نبي الله نوح عليه

---

(١) إبراهيم : ١١ .

(٢) عند الكلام على قوله تعالى : « **ما نراك إلا بشراً مثلنا** » . الآية :٢٧ .

(٣) الكهف : ٢٨ .

(٤) الأعراف : ٤٩ .

السلام : لا أقول كما تقولون : إن الله لا يؤتيهم خيراً ، بل لي ظاهرهم ، وظاهرهم يدل أن يؤتيهم الله خيراً عظيماً على ما يعملون من الأعمال الصالحة المبنية على إيمانهم بالله :

« **الله أعلم بما في أنفسهم** » أي إني لم أكلف معرفة بواطنهم وما تنطوي عليه ضمائرهم ، بل لي الظاهر ، وقد رأيته حسناً .

والذي في النفس هو الذي لم يبده الإنسان لغيره ، وهذا دليل على أن الإيمان الصحيح هو الذي يقوم بالقلب .

« **إني إذاً لمن الظالمين** » التنوين في إذاً تنوين عوض ، والمحذوف الذي عوض عنه التنوين أعم من أن يكون : إذا قلت « **لن يؤتيهم الله خيراً** » بل إني إذاً ، أي إن طردتهم ، أو ادعيت أني أعلم الغيب ، أو أن عندي خزائن الله ، أو ازدريتهم كما تزدرونهم ، أو زعمت أني ملك ، أي إن حدث مني شيء من ذلك فأنا من الذين يضعون الأمور في غير مواضعها .

قوله تعالى : « **قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** » .

لما أفحمهم نوح عليه السلام بالحجة أخبروه أنهم سئموا من المجادلة والمحاورة ، ونادوه باسمه احتقاراً ، والمراد : خاصمتنا فأكثرت مخاصمتنا ، وأصل الجدال والمجادلة من الجدالة وهي الأرض ، يُقال : تركت الفارس مجدلاً ، أي معفراً بالجدالة ، وأطلق على الخصومة الجدال ، لأن كل واحد من المتخاصمين يريد أن يصرع خصمه بقطع حجته والتغلب عليه .

وفي الاصطلاح لا تطلق هذه المادة إلا على المحاجة في الكلام والمصدر في قوله : « جدالنا » مضاف إلى مفعوله ، وفاعله محذوف ، تقديره : جدالك إيانا ، فهم يقولون لنبي الله نوح عليه السلام : إن كنت صادقاً أنك رسول الله إلينا فلا حاجة إلى الإكثار من الجدال معنا فقد بلغتنا ونحن كذبناك وسئمنا من كثرة الخصومة معك فأتنا بما وعدتنا من العذاب ولا تؤخره .

« **قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين** » .

هذا هو جواب نوح عليه السلام لقومه ، أي إن الذي وعدتكم به لا يلزمني أن آتيكم به أنا ، وإنما ذلك إلى الله عز وجل ، فإذا أراد أن يأتيكم به أنزله بكم في وقته المحدد عنده ، أما أنا فوظيفتي البلاغ وقد قمت به .

« **وما أنتم بمعجزين** » أي لستم بفائتين الله ولا منفلتين من قهره وتصرفه ، فإذا أراد إنزال العقوبة بكم أنزلها فأهلككم .

قوله تعالى : « **ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم** » أي ليس بنافع لكم بذلي النصيحة لكم ، والنصيحة من النصح ، وهو في الأصل الخياطة ، فكما أن الخياطة تلم الثوب حساً ، فكذلك النصيحة تلم شعث المنصوح معنى ، وتجمع المنصوحين على الخير ، والعرب لا تكاد تعدى هذا الفعل إلا باللام ، ولذلك لم يأت في القرآن معدى بغيرها .

« **إن كان الله يريد أن يغويكم** » الإغواء الإضلال ، وبعضهم يفسره بالإهلاك ، وهو تفسير باللازم ، لأن من أغواه الله ، أي أضله ، فلا محالة من إهلاكه « **ومن يضلل الله فما له من هاد** »[(1)] . أي إن كان خالقكم يُريد إضلالكم فلا حيلة لي في أن أنفعكم بنصحي وأهديكم ، وهو كقوله تعالى : «**ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً**»[(2)] . وهو تحسر من نبي الله نوح عليه السلام ، ومن عادة الأنبياء التحسر والتحزن على قومهم ، حيث ينصحونهم فلا يقبلون نُصحهم ، وقد قال تعالى في حق النبي ﷺ مُخاطباً له : « **أفمن زين له سوء عمله فرءاه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون** »[(3)] .

« **وهو ربكم وإليه ترجعون** » هو تعالى مربيكم والقادر على إضلالكم أو هدايتكم ، فأمركم إليه في الدنيا والآخرة ، فالإضلال والهداية والجزاء كل ذلك إليه وليس إليّ .

---

(١) الزمر : ٢٣ . (٢) المائدة : ٤١ . (٣) فاطر : ٨ .

قوله تعالى : « **أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامي وأنا بريء مما تجرمون** » .

« **أم** » هذه هي المنقطعة ، وضابطها أمران : الأول أن لا تتقدمها همزة التسوية . والثاني أن لا تتقدمها همزة مغنية عن أي ، فإن حصل أحد الأمرين قبلها فهي المتصلة ، كما عقد ذلك ابن مالك في الخلاصة بقوله :

وأَمْ بها اعطف إثر همز التسوية ... أو همزة عن لفظ أيّ مغنية

وبانقطاع وبمعنى بل وفت ... إن تك مما قيدت به خلت

وهي بمعنى همزة الإنكار ، أو بمعنى بل ، أو بمعناهما ، وهذا هو الأكثر ، وعليه فيكون المعنى : بل ــ اضرب اضراباً انتقالياً عما ذكر قبلُ ــ أيقولون افتراه ، والاستفهام للتوبيخ والإنكار ، أي يقولون : إن نوحاً افترى ما دعاهم إليه ، والضمير في : « افتراه » عائد إلى الوحي المفهوم من السياق ، والصحيح أن هذه الآية في نوح وقومه ، لان السياق في ذلك ، ومن قال : إنها في الرسول ﷺ وقومه فقد غلط .

« قل إن افتريته فعلى إجرامي » أي رد عليهم يا نوح بهذا الجواب المفحم ، أي إن كنت على سبيل الفرض والتقدير قد اختلقت هذا الوحي كما زعمتم فليس عليكم شيء في اختلاقي ، وإنما يكون الذنب العظيم الذي يعذبني الله به إن ارتكبته عليّ أنا .

والإجرام مصدر أجرم بمعنى ارتكب جريمة ، ولم يأت إلا بصيغة الرباعي بهذا المعنى ، أما جرم الثلاثي فهو بمعنى كسب ومنه بهذا المعنى :

وننصر مولانا ونعلم أنه ... كما الناس مجروم عليه وجارم

ومثل هذه العبارة يقولها البريء ، مثل : إن كنت أذنبت فسأنال ذلك عند الله .

« **وأنا بريء مما تجرمون** » كعبادة الأوثان ، وتكذيب الرسل وهذا كقوله تعالى : « **وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريؤن مما أعمل وأنا بريء مما تعملون** »[1] .

---

(١) يونس : ٤١ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ
بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى
فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ
عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ
كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ
عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا
مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ
وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا
وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ
نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾
قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ
أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾
وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ
وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ
فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾
قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ
بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ
أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ
مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾
تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ
مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

٤ ـ عاقبة نبي الله نوح ومن آمن به وعاقبة أعدائه وما في ذلك من تسلية للرسول ﷺ

قوله تعالى : « **وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن قومك إلا من قد آمن** » .

مكث نوح عليه السلام يدعو قومه إلى الله تعالى ألف سنة إلا خمسين عاماً[1] .

(١) كما قال تعالى : « **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون** » . العنكبوت : ١٤ .

ومع هذا كله كان المؤمنون به قليلين جداً ، ولذلك حزن نوح عليه السلام ، وكان يطمع أن يزداد المؤمنون ، وعندما تيقن من ربه أن قومه الذين لم يستجيبوا له لا أمل في إيمانهم دعا عليهم ، كما قال الله تعالى عنه : « **وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً** »(١) . وقال تعالى : « **كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر فدعا ربه أني مغلوب فانتصر** »(٢) . وأخبر الله سبحانه وتعالى أنه أجاب دعاءه فنصره على قومه كما قال تعالى : « **ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون** »(٣) .

وهنا يرد إشكال ، وهو أن الله تعالى أخبر أنه مختص بالغيب كما قال عن نوح نفسه في هذه السورة : « **ولا أعلم الغيب** »(٤) .

وكذلك كل أنبيائه وهم أشرف الخلق . مع أن نوحاً عليه السلام قال : « **إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً** » . وهذا من الغيب ، فكيف يُخبِر به نوح عليه السلام ؟

والجواب : أن ذلك كان بوحي من الله تعالى : وقد سبق أن الأنبياء لا يعلمون إلا ما أطلعهم الله عليه ، ومما يدل أنه بوحي قوله تعالى هنا : « **إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن** » .

« **فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** » أي لا تحزن ولا يظهر عليك آثار الحزن والنكد ، وأصل البؤس الحزن ، والابتئاس ظهور آثار البؤس .

« **واصنع الفلك بأعيننا** » الأمر معطوف على النهى ، وهو جائز كما سبق(٥) .

والفلك السفينة ، وهو يطلق على المفرد والجمع ، ويذكر غالباً في المفرد ، ويؤنث غالباً في الجمع فمن تذكيره في المفرد قوله تعالى : « **وآية لهم أنا حملنا**

---

(١) نوح : ٣٦ ، ٣٧ . (٢) القمر : ٩ ، ١٠ . (٣) الصافات : ٧٥ .

(٤) سبق في تفسير الآية : ٣١ من هذه السورة .

(٥) في أول تفسير الاية ــ الآية الثالثة من السورة .

ذريتهم في الفلك المشحون »[1] . وقوله تعالى : « **وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون »**[2] . ومن تأنيثه في المفرد قوله تعالى هنا بعد ذلك : « **قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين »**[3] .

ومن تأنيثه في الجمع قوله تعالى : « **وترى الفلك مواخر فيه »**[4] .

وفي هذه الآية الكريمة دليل على فضل الصناعة اليدوية ، وبالأخص النجارة ، فإن أستاذها الأول من البشر هو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض ، وهو نوح عليه السلام ، وكل من وجد وما وجد من الحيوان فهو بفضل الله ثم بفضل النجارة ، كما قال تعالى : « **فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين »**[5] .

[6] وفي الآية دليل على أن التواكل عن العمل والجهل بالصناعات لا يقره الشرع ، بل إن الشرع يحث على الصناعات وعلى كل ما من شأنه أن ينفع الناس في دينهم ودنياهم . وكيف يقر الشرع التواكل عن الصناعات وأستاذ صنعة النجارة ، هو جبريل عليه السلام وتلميذه أول رسول من رسل الله ؟! وأستاذ الحدادة من جمع بين الملك والنبوة ، داود عليه السلام ، فقد أوحى الله تعالى إلى نوح أن يصنع السفينة وأوحى إليه كيفيتها . كما يأتي أنه صنعها من ألواح ومسامير ، كما قال تعالى : « **وحملناه على ذات ألواح ودسر »**[7] . فمعنى قوله تعالى : « **واصنع الفلك** » أي أنجزها وأصلح طبقاتها كما أوحينا إليك ، لتنجو أنت ومن معك إذا التقى الماء .

قوله تعالى : « **بأعيننا ووحينا** » العين صفة لله تعالى لائقة بجلاله ، لا تشبه صفة المخلوقين ، وإنما جمعت هنا لمناسبة إضافتها إلى الضمير المجموع للتعظيم ،

---

(١) يس : ٤١ .
(٢) الصافات : ١٣٩ ، ١٤٠ .
(٣) آية : ٤٠ من هذه السورة .
(٤) النحل : ١٤ .
(٥) العنكبوت : ١٥ .
(٦) من هنا بدأت المحاضرة الحادية عشرة في ١٣٨٤/٧/١٣هـ .
(٧) القمر : ٥٤ .

وطريقتنا في صفات الله إثبات ما أثبت ونفى ما نفى جملة وتفصيلاً على أساس التنزيه . وكمال المخالفة لمماثلة المخلوقين ، وقطع الطمع عن إدراك الكيفية على غرار قوله تعالى : « **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** »(١) .

والقول في صفاته تعالى كالقول في ذاته ، فكما نثبت له ذاتاً مغايرة لذات المخلوقين ، كذلك نثبت له ما أثبت لنفسه من الصفات مغايرة لصفات المخلوقين .

وإنما غلط من غلط في صفات الله تعالى ، وحرفها أو جحدها لعدم المعرفة الكاملة بالله تعالى وجلاله وعظمته(٢) .

« **ووحينا** » أي بما أوحينا إليك من تعليم صنعة النجارة وكيفيتها .

« **ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون** » .

يقول بعض المفسرين : إن المراد بنهيه عن مخاطبته فيهم أن يخاطبه في إمهالهم ، لأن ما قدره الله عليهم قد مضى ولا محالة .

وهذا الوجه بعيد ، لأن نوحاً عليه السلام قد ألح في دعائه ربه أن يهلكهم ، كما قال تعالى عنه : « **رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً** »(٣) . وقال تعالى عنه : « **أني مغلوب فانتصر** »(٤) . وقال : « **ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون** »(٥) .

فالصحيح أن المراد لا تخاطبني في تعجيل العذاب والإهلاك لقومك فإنه قد كتب وحان ، والتأكيد عند علماء البلاغة من باب التأكيد للمتردد في الأمر ، فكأنه حينما قال الله تعالى له : « **ولا تخاطبني في الذين ظلموا** » حصل عنده تردد

(١) الشورى : ١١ .

(٢) لفضيلة شيخنا المُفسر رحمه الله بحث مستفيض فيما يتعلق بوجوب إثبات أسماء الله وصفاته الواردة في كتابه أو في سنّة رسوله ﷺ الصحيحة ، مع مناقشة المخالفين وترجيح مذهب السلف في ذلك ، راجعه في كتابه القيم أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/٣٠٤ ــ ٣٢١) . وله كذلك رسالة مستقلة في هذا الباب .

(٣) نوح : ٢٦ .

(٤) القمر : ١٠ .

(٥) الصافات : ٧٥ .

فيما ذا سيفعل بهم ، فأكد له نظراً لذلك فهو مما يحسن توكيده ، والظلم وضع الشيء في غير موضعه .

« **إنهم مغرقون** » أي بالطوفان الذي نزل من السماء ونبع من الأرض كما قال تعالى : « **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر** »(١) .

وذكر المفسرون في قصة قوم نوح أن كل الجبال غمرها الطوفان ، وهو ظاهر القرآن ، بدليل أن ابن نوح حينما قال له أبوه : « **يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين** » . رد عليه ابنه قائلاً : « **سآوي إلى جبل يعصمني من الماء** » . فرد عليه نوح عليه السلام قائلاً : « **لا عاصم اليوم من أمر الله** »(٢) .

والظاهر أن كل من لم يكن في السفينة من أهل الأرض قد غرقوا ، كما قال تعالى : « **فأنجيناه وأصحاب السفينة** »(٣) . وقال تعالى : « **وجعلنا ذريته هم الباقين** »(٤) .

قوله تعالى : « **ويصنع الفلك** »(٥) . الظاهر أن الإتيان بالمضارع حكاية للحال الماضية ، استحضاراً لها في الوقت ، أي يصنعها حسب الأمر الذي تلقاه منا ، وفي هذا دلالة عظيمة على خبث الكفار الشديد ، حيث إن نبي الله نوحاً عليه السلام مكث بينهم تلك المدة الطويلة كلها يدعوهم إلى الله ، ويصبر على أذاهم وسخريتهم ، ثم يضطر أن يصنع له ولقومه المؤمنين مركباً ينجون فيه من الطوفان الذي أرسله الله عذاباً للكفار من قومه .

« **وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه** » . كلما كلمة تتضمن معنى الشرط ، وليست جازمة ، وهي ظرف ، والمراد أنهم يسخرون منه في كل وقت يمرون به فيه ، وفعل الشرط هو « **مر** » وجوابه « **سخروا** » والسخرية الاستهزاء والاستخفاف ، أي استهزؤا به واستخفوا منه وضحكوا عليه .

---

(١) القمر : ١١ ، ١٢ .

(٢) سيأتي قريباً تفسير هذه الآيات .

(٣) العنكبوت : ١٥ .

(٤) الصافات : ٧٧ .

(٥) من هنا بدأت المحاضرة الثانية عشرة في ١٣٨٤/٧/١٥هـ .

وفي سخريتهم منه تفسيران :

الأول : أنهم يقولون له : كيف تدعي النبوة ثم تصير نجاراً بعد ذلك ؟

الثاني : أنهم يرونه يصنع السفينة في أرض يابسة ، فيسألونه ماذا يريد بها فأخبرهم أنه يمشي بها على الماء فيهزون رؤوسهم لأنهم لم يعرفوا ذلك ، لأنها أول سفينة صنعت .

« **قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون** » .

أي إن نبي الله نوحاً عليه السلام قال لهم من باب المشاكلة ـــ وهي إيراد اللفظ في قالب الكلام الذي قبله للمشاكلة بينهما ـــ أي إننا نستخف بكم ونستهزيء بكم كما استهزأتم بنا ، وذلك عندما تجدون الحقائق التي لم تكونوا تتوقعونها .

والمشاكلة أسلوب عربي ، له أمثلة كثيرة ، ومنه قوله تعالى : « **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون** »[١] .

ومنه قول الشاعر :

قالوا اقترح شيئاً نجد له طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

قوله تعالى : « **فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم** » . الفاء فاء الفصيحة أفصحت عن شرط مقدر ، أي إن كذبتمونا وسخرتم منا فسوف تعلمون ..... وفي إعراب « **من** » وجهان كل منهما لا يعارض الآخر :

الأول : أنها موصولة ، فهي في محل نصب مفعول « **تعلمون** » والمعنى فسوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يخزيه ، أهو أنا أم أنتم .

الوجه الثاني : أنها استفهامية معلقة للفعل القلبي عن العمل ، لأن أدوات

(١) البقرة : ١٤ ، ١٥ .

الاستفهام من المعلقات ، فمن مبتدأ وجملة يأتيه خبر ومحل جملة المبتدأ والخبر الرفع لفظاً والنصب محلاً . بدليل أنه لو عطف على هذه الجملة وأشباهها جاز في المعطوف الرفع على اللفظ والنصب على المحل ، ومن شواهد ذلك قول الشاعر :

وما كنت أدرى قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولت

وقد أشار ابن مالك في الخلاصة إلى تعليق أفعال القلوب بأدوات الاستفهام ــ وغيرها ــ في قوله :

.... والتزم التعليق قبل نفي ما
وإن ولا ، لام ابتداء أو قسم كذا والاستفهام ذالة انحتم

والخزى الإهانة والذل والفضيحة ، أي يأتيه عذاب يهينه ويذله ويفضحه .

« **ويحل عليه عذاب مقيم** » . أي ينزل عليه ، وقيل يجب ، والمقيم الدائم الذي لا ينقطع ولا يزول ، كما قال تعالى : « **ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا** »(١) . وقال تعالى : « **وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم بها تكذبون** »(٢) . وقال تعالى : « **إن عذابها كان غراماً** »(٣) .

قوله تعالى : « **حتى إذا جاء أمرنا** » حتى لابتداء الغاية ، وليست غاية لما قبلها على الصحيح ، وقيل غاية ، والأظهر ما ذكرنا ، وقد نظم بعضهم معاني حتى بقوله :

حتى تكون حرف جر يا فتى وحرف نصب للمضارع أتى
وحرف غاية وحرف الابتدا فهــذه أربعــة فقيــدا

والأمر يأتي واحد الأمور ، ويأتي واحد الأوامر ، والمراد هنا الأول ، لا الثاني ، أي شأننا الذي قدرناه وقضيناه من إهلاكهم بالطوفان « **وفار التنور** »

---

(١) الاسراء : ٩٧ . (٢) السجدة : ٢٠ . (٣) الفرقان : ٦٥ أي دائماً .

يقال : فار يفور إذا غلا غلياناً شديداً ، وفي المراد بالتنور أقوال كثيرة ، أظهرها ثلاثة :

الأول : أن المراد به وجه الأرض ، أي إذا فاض وجه الأرض بالماء فاركب لئلا يدركك الغرق أنت وقومك .

الثاني : أنه تنور الخبز ، وذلك أن الله تعالى جعله له علامة ، عندما يفور يعلم أن الاهلاك حاصل بعده .

الثالث : أن ذلك كناية عن حصول الشدة ، فهو يشبه قولهم : حمى الوطيس . وأظهر الثلاثة الأول[1] .

« قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين » .

الضمير في قوله تعالى : « **فيها** » يعود إلى الفلك في قوله : «**ويصنع الفلك**» باعتبار معنى الفلك ، وهو السفينة .

وللزوج إطلاقان :

الأول : إطلاقه على كل اثنين بينهما ارتباط بحيث لا يستغنى أحدهما عن الآخر .

الثاني : إطلاقه على أحد المزدوجين أيضاً ، كأحد مصراعي الباب ، أو الذكر فقط أو الأنثى فقط ، ومنه المراد هنا .

قرأ حفص بتنوين كل ، فزوجين مفعول به ، واثنين صفة له ، وقرأ الجمهور بالإضافة ، فيكون اثنين هو المفعول به .

والمراد أن الله تعالى علم أن الطوفان سيهلك كل موجود على ظهر الأرض ، فأمر نوحاً أن يأخذ من كل جنس ذكراً وأنثى ليبقى التناسل في الأرض ، وهذا من رحمة الله تعالى بخلقه .

« وأهلك » على قراءة الجمهور معطوف على اثنين ، وعلى قراءة حفص

---

(١) بقية الأقوال يمكن مراجعتها في فتح القدير للشوكاني (٤٧٤/٢) .

معطوف على زوجين ، والتنوين في « كل » على قراءة حفص للعوض ، أي كل صنف .

« **إلا من سبق عليه القول** » أي قول الله السابق في الأزل أنهم مغرقون . و « **من** » في قوله : « **إلا من سبق** » منصوب على الاستثناء ، والمستثنى منه « **أهلك** » و « **من** » هذه من الأسماء المبهمة التي تصلح للمفرد والمثنى والجمع مذكراً ومؤنثاً ، فمن المكنى عنه بها في الآية ؟ الجواب أن من هنا أطلقت مراداً بها ابن نوح وزوجته ، ومن إطلاق من على المثنى قول الشاعر :

تعش فإن عاهدتني لا تخونني نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

وقد دل القرآن الكريم على ماذكرنا فقد قال تعالى في امرأة نوح :

« **ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين** »[1] .

وقال في ابن نوح : « **وحال بينهما الموج فكان من المغرقين** »[2] . « **ومن آمن وما آمن معه إلا قليل** » . معطوف على مفعول : « **احمل** » أي « **احمل فيها من كل زوجين اثنين** » واحمل فيها من آمن .

وقد بين القرآن أن المؤمنين من قوم نوح — مع طول مكثه فيهم — كانوا قليلين ، قيل كان عددهم ثمانين ، منهم أولاده الثلاثة وزوجاتهم وقيل غير ذلك ، وهذه التحديدات كلها إسرائيلية لا يعول عليها . وإنما قال : « **ومن آمن معه** » ولم يقل به ، ليدل على اشتراكهم في الإيمان واشتراكهم في الأخوة الإيمانية .

« **وقال اركبوا فيها باسم الله** » أي عندما فار التنور قال نوح لأهله وغيرهم ممن آمن معه : اركبوا في السفينة ، حال كونكم مبتدئين ركوبكم باسم الله متبركين به .

---

(١) التحريم : ١٠ .

(٢) ستأتي الآية قريباً .

« **مجرٰها ومرساها** » فيهما قراءات ، وهما بضم الميم مصدران ميميان ، بمعنى الاجراء والإرساء ، وبفتحها بمعنى الجري والرسو أي باسم الله إجراؤها وإرساؤها ، أو جريها ورسوها ، إذا بدأت وجرت ، وإذا انتهت ورست .

« **إن ربي لغفور رحيم** » هذا من كلام نوح ، أي كثير المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين ، ومن رحمته بهم أن هيأ لهم هذه السفينة ليبقى نسلهم .

« **وهي تجري بهم في موج كالجبال** » الموج تموج الماء واضطراب بعضه فوق بعض ، وهذا يدل على عظم الماء وكثرته ، لأنه كالجبال ، وقد شبهه الله بالجبال في قصة غرق فرعون وقومه ، حيث قال : « **فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم** »(١) .

« **ونادى نوح ابنه** » النداء الدعاء ، أي دعاه ، وهو معطوف بالواو متقدم على ما قبله رتبة .

« **وكان في معزل** » المعزل مكان الانعزال ، وذلك أنه كان يحس أن دينه غير دين أبيه وقومه ، فانعزل عنهم .

« **يا بني اركب معنا** » التصغير للشفقة ، وقرىء بنى بفتح الياء وكسرها ، وهما من اللغات الجائزة في المضاف إلى ياء المتكلم المنادى ، وهو هنا وإن كان معتلاً ، فالتصغير يجعله بمنزلة صحيح الآخر ، وقد أشار ابن مالك إلى اللغات المذكورة ــ وهي خمس ــ بقوله في الخلاصة :

واجعل منادى صح إن يضف ليا كعبدِ عبدى عبدَ عبدَا عبديا

وأصل ابن بنو ، والعرب أسقطت اللام التي هي الواو ، وجعلت الإعراب على العين التي هي النون ، والتصغير يرد الأشياء إلى أصلها ، ولذا صار بنيو ، ثم قلبت الواو ياء ، وأدغمت الياء في الياء لاجتماعهما وسبق إحداهما بالسكون ، كما قال ابن مالك في الألفية :

إن يسكن السابق من واو ويا واتصلا ومن عروض عريا

(١) الشعراء : ٦٣ .

فياء الواو اقلبن مدغما وشذ معطى غير ما قد رسما

ومما يدل على أن ياءه واو مصدره ، فإنه البنوة .

« **ولا تكن مع الكافرين** » أي منعزلاً عن أهلك المؤمنين فتهلك بالكون معهم كما يهلكون .

« **قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء** » من خبث الولد الشديد أنه أظهر استغناءه عن أبيه وعن فلكه ، وأصل سآوي سأأوى على وزن سأفعل ، الأولى همزة أفعل ، والثانية فاء الكلمة ، اجتمعت همزتان في أول الكلمة ، الثانية ساكنة ، فقلبت ألفاً من جنس الحركة التي قبلها ، وذلك قياس مطرد ، كما قال ابن مالك في الخلاصة :

ومدا ابدل ثاني الهمزين من كلمة إن يسكن كآثر وائتمن

والمأوى المحترز والمعتصم ، أي يمنعني من الماء ، ويحفظني من الغرق .

« **قال لا عاصم اليوم من أمر الله** » أي لا مانع من قضائه وقدره السابق الذي قد مضى باهلاكهم .

« **إلا من رحم** » الصحيح أن الاستثناء هنا منقطع ، أي لكن من رحم الله فهو معصوم كالمؤمنين . والاستثناء المنقطع أسلوب عربي فصيح معروف ؛ وبعضهم ينكره ، وهو خلاف لفظي ، وضابط الاستثناء المنقطع أن يستثنى بإلا شيء من غير جنس ما ذكر ، والصحيح أنه موجود ، ومنه قوله تعالى : « **لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً** »(١) . وقوله تعالى : « **لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلا سلاماً سلاماً** »(٢) .

ومنه قول الشاعر :

وقفت فيها أصيلالاً أسائلها عيت جواباً وما بالربع من أحد
إلا الأوارى لأياماً ما أبينها والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد

---

(١) مريم : ٦٢ . (٢) الواقعة : ٢٥ ، ٢٦ .

وقول الآخر :

وبلـــدة ليس بها أنـــيس إلا اليعافـــير وإلا العيـــس

وبعضهم يجوز أن يكون الاستثناء هنا متصلاً بجعل عاصم بمعنى معصوم ، وهو غير جيد والصحيح ما تقدم .

وقيل : إن قوله : « **عاصم** » بمعنى ذي العصمة ، كلابن وتامر ، كما قال ابن مالك في باب النسب :

ومـع فاعـل وفعّـال فعِـل في نسب أغنى عن اليا فقبل

« **وحال بينهما الموج** » أي بين نوح وابنه ، وذلك أن الموج ارتفع ، حتى صار مثل الجبال ، فطغى عليه الطوفان ، ولهذا قال : « **فكان من المغرقين** » .

« **وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي** » .

لما أهلك الله الكفار وطغى عليهم الماء حتى غمر الجبال ، أمر الله الأرض بابتلاع الماء ، وأمر السماء بالكف منه ، ويذكر المفسرون أن امرأة علت بابن صغير لها على جبل ، وكان كلما ارتفع الماء زادت في العلو حتى انتهت إلى رأس الجبل ، فلحقها الماء ، فكانت ترفع ابنها بيديها ، ولكن الماء غمرها معه ، والمفسرون يقولون : لو كان الله راحماً أحداً ذلك اليوم من الكفار لرحم تلك المرأة ، والله تعالى أعلم بذلك ، وإذا ثبتت تلك القصة فإنها لا تُنافي القرآن الكريم ، فإن ظاهر قوله تعالى : « **لا عاصم اليوم من أمر الله** » بعد قول ابن نوح « **سآوي إلى جبل يعصمني من الماء** » يدل على أن الجبال لا تنجي أحداً وذلك لأن الماء يغمرها .

والقائل[1] : « **يا أرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي** » هو الله تعالى ، وإنما حذف للعلم به ، لأنه لا أمر لأحد على السماء والأرض بذلك غير رب العالمين .

وبلع بفتح العين التي هي اللام ، وبعض العرب يكسرها ، والبلع الشرب

---

(١) من هنا بدأت المحاضرة الثالثة عشرة في ١٣٨٤/٧/١٨هـ .

والازدراد بقوة ، أي اشربيه وازدرديه ، ويقال : إنما بدأ بالأرض قبل السماء ، لأن أصل فوران الماء كان منها .

أمر الله الأرض بازدراد الماء ، والسماء بالكف من إنزاله حينما أراد انقضاء الأمر وزوال الماء ، بعد أن أهلك الظالمين . ومن ورود القلع في لغة العرب بمعنى الكف قول الشاعر :

أودى بني فأعقبوني حسرة بعد الرقاد وعبرة لا تقلع

« **وغيض الماء** » أي نقص ، وغاض يأتي متعدياً كما هنا ، والفاعل هو الله تعالى ، ويأتي لازماً أيضاً ، والمراد أن الله تعالى أنقص الماء حيث أمر الأرض بابتلاعه ، وأمر السماء بالكف من إنزاله .

(« **وقضى الأمر** » أي أحكم وفرغ منه ، يعني أهلك الله قوم نوح على تمام وإحكام »[1]) .

« **واستوت على الجودى** » أي إن السفينة ارتفعت وعلت على الجودى وفي تفسير الجودى قولان :

الأول : أنه اسم علم على جبل قريب من الموصل ، وعلى هذا فأل فيه زائدة ، كما قال ابن مالك في الخلاصة :

وبعض الاعلام عليه دخلا للمح ما قد كان عنه نقلاً
كالفضل والحارث والنعمان فذكر ذا وحذفه سيان

الثاني : أنه اسم جنس ، والعرب تطلق اسم الجودى على أي جبل ، وعلى هذا فأل فيه لتعريف الجنس .

وقد كانت السفينة مرتفعة على الماء ، فلما نضب استقرت على الجبل ، وهذا دليل على ما سبق من أن الماء كان يغمر الجبال .

---

(١) ما بين المعقوفين من كتاب فتح القدير للشوكاني (٤٧٧/٢) لأني لم أجد لشيخنا كلاماً عليه ، وربما فاتني أن أكتبه .

« **وقيل بعدا للقوم الظالمين** » القائل هو نوح عليه السلام ، يدل على أنه قوله عليه السلام ، ما أمره الله به بعد إهلاك قومه الكافرين : ((**فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين** »[1] . وقيل : انه من كلام الله .

والبعد اسم مصدر معناه الهلاك ، وهو على غير قياس ، وكان قياسه البَعَد على وزن الفرح ، كما قال ابن مالك في الألفية :

وفعل اللازم بابه فعل كفرح وكجوى وكشلل

وهو مفعول مطلق لفعل محذوف ، أي أبعدهم الله بُعداً . وقد سبق الكلام على إطلاق القوم[2] .

والظلم يطلق على الكفر ، كما هنا ، وكما في قوله تعالى : « **والكافرون هم الظالمون** »[3] . وكما في قوله تعالى : « **ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين** »[4] . كما يطلق على غير الكفر من المعاصي ، والقرائن تعين معناه .

« **ونادى نوح ربه** » أي في شأن ولده .

« **فقال رب إن ابني من أهلي** » أي يا خالقي وسيدي ومدبر شؤني ، أي إنه من أهلي الذين وعدتني بنجاتهم وبأني أحملهم في السفينة بقولك : « **وأهلك** » .

يقول المؤرخون : إن أبناء نوح أربعة : أحدهم هذا الذي خاطب الله تعالى فيه ، ويسمى : كنعان ، والثلاثة الباقون هم مؤمنون ومنهم كان النسل البشر الباقي ، كما قال تعالى : « **وجعلنا ذريته هم الباقين** »[5] .

وهؤلاء الثلاثة هم :

١ ــ سام بن نوح ، وعنه تناسل العرب والفرس والروم .

---

(١) المؤمنون : ٢٨ . (٢) في تفسير الآية : ٢٥ . (٣) البقرة : ٢٥٤ .
(٤) يونس : ١٠٦ . (٥) الصافات : ٧٧ .

٢ ــ حام بن نوح ، وعنه تناسل القبط والبربر والسودان .

٣ ــ يافث بن نوح ، وعنه تناسل الصقالبة والترك ويأجوج ومأجوج .
وبعض المؤرخين يذكرون أن البربر من العرب من أولاد قيس بن مضر .

ونبي الله نوح عليه السلام قد لاحظ المستثنى منه ، ولم يلاحظ حقيقة المستثنى ، وهو قوله تعالى : « **إلا من سبق عليه القول** » . والظاهر أن الولد كان يخفي عن أبيه عقيدته .

« **وإن وعدك الحق** » . وقد وعدتني بنجاة أهلي ، ومنهم ابني .

« **وأنت أحكم الحاكمين** » . أي أتقن المتقنين ، وكل ما تخبر به فهو محكم متقن ، وكذا ما تأمر به ، فما وعدتني به ، إحكامك وإتقانك يقتضي أن تنجزه لي ، والظاهر أن نداء نوح عليه السلام كان في أوائل مجيء الغرق ، ولا ينافيه قوله قبل ذلك : « **وقيل يا أرض ابلعي** » . الآية ، لأن العطف بالواو ، وهي لمطلق الجمع ، لا تقتضي الترتيب .

« **قال يا نوح إنه ليس من أهلك** » . أي هذا الولد الذي تطلب نجاته ، ليس من أهلك الموعود بنجاتهم .

تعلق بهذه الآية بعض الملحدين ، فزعموا أن كنعان هذا الذي طلب نوح نجاته ، كان ابن زنا ، لقوله تعالى : « **إنه ليس من أهلك** » . ولقوله في امرأة نوح ولوط في موضع آخر : « **فخانتاهما** »[١] . أي ومن الخيانة الحاق الولد بغير الفراش ، وهذا زور وباطل ، فقد حكى غير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره الإجماع من المسلمين أن الله أكرم منصب النبوة ، فلا تزني امرأة نبي قط .

وهنا ترد أسئلة ، وذلك أن يقال : ما المراد بالخيانة ؟ وما الجواب عن قوله : « **ليس من أهلك** » .

والجواب عن السؤال الأول : أن الخيانة هي الخيانة في الدين وذلك أن امرأة نوح كانت تخبر قومها بمن آمن معه فيعذبونهم ، وامرأة لوط كانت توقد الدخان

---

(١) التحريم : ١٠ .

لقومها علامة على أن عند لوط ناساً ليأتوا فيفعلوا بهم الفاحشة ، ولا شك أنهما بهذا ، أي بكونهما عوناً للكافرين على النبيين خائنتان والجواب عن الثاني : أن قوله : « **ليس من أهلك** » . حذف فيه النعت الذي بتقديره يزول الإشكال ، وحذف النعت ــ وإن كان النحويون ، ومنهم ابن مالك يقولون : إنه قليل كما قال ابن مالك في الخلاصة :

وما من المنعوت والنعت عقل   يجوز حذفه وفي النعت يقل

ــ لقرينة دالة عليه جائز وكثير ، والتقدير هنا : ليس من أهلك الموعود بنجاتهم ، والقرينة على ذلك أن الله وهو أصدق القائلين قال : « **ونادى نوح ابنه** » . فقد أثبت الله تعالى له البنوة ، وكيف يصح نفي ما أثبته الله ، ونفي الأهلية لا ينافي إثبات البنوة بهذا الاعتبار .

ومن الأدلة على حذف النعت لقرينة دالة عليه قوله تعالى : « **وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً** » . أي كل سفينة صالحة ، بدليل قوله تعالى : « **فأردت أن أعيبها** »[1] . فهو لا يأخذ المعيبة ، ومنه قوله تعالى : « **وإن من قرية إلا نحن مهلكوها** »[2] . أي قرية ظالمة .

ومنه في كلام العرب :

ورب أسيلة الخدين بكر   مهفهفة لها فرع وجيد

أي فرع فاحم وجيد طويل .

وبهذا يتضح أن ابن نوح إنما خرج بالاستثناء في قوله : « **إلا من سبق عليه القول** » .

« **إنه عمل غير صالح** » . قراءة الجمهور على لفظ المصدر ، وقرأ الكسائي بلفظ الفعل ، والمعنى : إن ابنك يا نوح عمل عملاً غير صالح هذا على قراءة الفعل ، ولا إشكال في ذلك .

---

(١) الكهف : ٧٩ .   (٢) الاسراء : ٥٨ .

وهذا التعليل من الأدلة التي ترد على الذين يزعمون أنه ولد زنا ، لأن الله أقره بكونه ابنه ، وإنما أخبره بأن السبب في كونه ليس من أهله الموعود بنجاتهم أنه عمل عملاً غير صالح .

وعلى قراءة الجمهور بلفظ المصدر يرد سؤال ، وهو : كيف أطلق على ابن نوح أنه عمل ، والعمل معنى ، وهو ذات ؟

والجواب : أن من عادة العرب أن تصف بالمصدر ، أي تدل به على الذات ، كما تدل به على المعنى ، وهو ما عقده ابن مالك في الخلاصة بقوله :

ونعتوا بمصدر كثيراً فالتزموا الإفراد والتذكيرا

وهو على أحد وجهين :

الأول : أن يكون على حذف مضاف ، على حد قول ابن مالك .

وما يلي المضاف يأتي خلفا عنه في الإعراب إذا ما حذفا

وتقرير المعنى : أنه ذو عمل غير صالح ، فلما حذف المضاف الذي هو ذو أقيم المضاف إليه مقامه .

الثاني : أنه إنما أطلق المصدر مراداً به الذات للمبالغة ، والعرب تقول : فلان كرم ، وفلانة جمال مبالغة ، حتى كأنه صار عين الكرم ، وصارت عين الجمال ، فكأنه لشدة ارتكابه العمل غير الصالح صار نفس ذلك العمل ، والعمل غير الصالح هو الكفر .

« **فلا تسألني ما ليس لك به علم** » . أي لا تطلب مني الشيء الذي لا تعلم أن في طلبك إياه مصلحة ، لأنك إذا سألت شيئاً لا ينبغي وقوعه ، فقد طلبت من الله أن يفعل ما لا ينبغي ، فكأنك هنا قلت : اللهم أنج كافراً من الكفار ، فإذا جهلت شيئاً فتوقف حتى تعلم أن المصلحة في طلبه .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن العبد إذا اشتبه عليه الأمر في شيء ، هل في سؤاله ربه أن يقضيه مصلحة أولا ؟ فإنه لا يسأل الله ذلك ، خوفاً من أن يكون مما يسخط الله تعالى .

فالمراد مِن قوله : « **ما ليس لك به علم** » . يعني أوُقوعُه مما ينبغي أن يطلب أم لا ؟ . فقد سألتني نجاة كافر ، وذلك مما لا ينبغي . ويؤخذ من هذا أنه لو علمك إنسان دعاء أعجمياً لا تعرف معناه لا ينبغي أن تدعو به .

« **إني أعظك أن تكون من الجاهلين** » .

الوعظ الكلام الذي تلين به القلوب ، وقيل : إنه يتضمن هنا التحذير ، والجهل هو عدم العلم بما من شأنه أن يعلم ، أي لا تكن من الجاهلين الذين لا يعلمون حقائق الأشياء .

« **قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم** » . أي أعتصم وأتمنع بك من أن أقع في هذا الخطأ مرة أخرى ، استعاذ بالله من أن يقع في ذلك في المستقبل .

« **وإلّا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين** » . أي إن لم تستر ما مضى لي من الذنب وتغمرني برحمتك التي وسعت كل شيء أكن في عداد الخاسرين الذين غبنوا في حظوظهم عندك .

ويؤخذ من هذه الآية جواز تأخير البيان إلى وقت الحاجة لأن الله تعالى قال لنوح : « **قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك** » . ثم استثنى بقوله : « **إلا من سبق عليه القول** » . وهو مبهم ، ولذلك لم يفهم منه نوح أن ابنه ممن سبق عليه القول ، فطلب أن ينجيه الله ، فبين الله له عند ذلك — وهو وقت الحاجة إلى البيان — أنه ممن سبق عليه القول . فالتحقيق جواز تأخير البيان إلى وقت الحاجة ، كما أن التحقيق عدم جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة .

وفي قول نوح عليه السلام : « **وإلّا تغفر لي وترحمني** » . الآية دليل على تواضع الأنبياء وشدة خوفهم من الله تعالى .

« **قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات** » . لما أمر الله الأرض ببلع الماء ، والسماء بالكف عن إنزاله ، واستوت السفينة على الجبل أحب نوح ومن معه النزول ، فأمره الله بالهبوط هو ومن معه .

وللهبوط استعمالان :

الأول : بمعنى النزول في الأرض ، ومنه قوله تعالى : « **اهبطوا مَصراً** »[1] .

الثاني : بمعنى النزول من علو إلى سفل ، كما هنا ، والمراد به قيل : من السفينة ، وقيل : من رأس الجبل .

« **بسلام** » . أي مصحوباً بسلام ، أي بتحية وسلامة ، وهذا من إكرام الله لنبيه نوح عليه السلام ، حيث كان عبداً شكوراً صابراً على ما ناله من أذى قومه تلك المدة الطويلة ، حتى أغرقهم الله وأنجاه ومن معه ، وبشره بالسلامة من الآفات ، وأبلغه تحية من عنده .

« **وبركات** » . أي خيرات كثيرة .

« **عليك وعلى أمم ممن معك** » . أي كائن مبدأ تلك الأمم ممن معك وهنا سؤال ، وهو أنه قال هنا : « **وعلى أمم ممن معك** » . فوصفهم بأنهم أمم ، وهذا يدل على الكثرة ، مع أنه قد قال قبل ذلك : « **وما آمن معه إلا قليل** » . فما التوفيق بين الوصفين ؟

والجواب أن هذا الوصف : « **أمم** » ليس للذين مع نوح ، بل المراد من ينشأ منهم من الذرية ، كما هو ظاهر .

« **وأمم سنمتعهم** » أمم مبتدأ والمسوغ لجواز الابتداء به مع أنه نكرة كونه في معرض التفصيل ، وخبره الجملة بعده : « **سنمتعهم** » ومثل التسويغ في الآية التسويغ في قول الشاعر :

فاقبلت زحفاً على الركبتين   فثوب لبست وثوب أجر

« **ثم يمسهم منا عذاب أليم** » أي لموتهم كفاراً ، والمس يدل على المباشرة التامة ، وهذه قرينة قاطعة أنه ليس المراد بهم من معه ، بل المراد من ينشأ من ذريتهم ، إذ لم يكن معه إلا من آمن ، لأن الله لم يأمره إلا بحمل المؤمنين .

---

(١) البقرة : ٦١ .

« **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك** » الإشارة إلى ما مضى من قصص نوح ، من دعوته قومه إلى عبادة الله ، وعنادهم له ـــ ومحاورته معهم في شأن أتباعه من المؤمنين ، وصنعه السفينة واستهزائهم به ، وما جعل الله له من العلامة على إهلاكهم ، وأمره له بحمل المؤمنين ومن كل الحيوانات زوجين في السفينة ، وما كان من أمره مع ابنه وعتاب الله له في ذلك ورجوعه وتوبته إلى الله ثم ما تبع ذلك من الخاتمة له ولقومه المؤمنين بالسلامة . والهلاك للكافرين ، أي تلك القصص التي أخبرناك بها من الأمور التي هي غائبة عن الناس ، وفي هذا أعظم معجزة للرسول ﷺ ، حيث إنه أُمي لا يقرأ ولا يكتب ، وإذا به يخبر عن غرائب التأريخ التي مضى عليها آلاف السنين بضبط وإتقان ، فليست إلا بوحي من الله جل وعلا .

« **ما كنت تعلمها أنت ولا قومك** » أتى بالضمير المنفصل للفصل بين المعطوف عليه الذي هو ضمير الرفع المتصل ، فاعل : « **تعلمها** » وبين المعطوف وهو قوله : « **ولا قومك** » وهو وإن كان الفصل بلا في قوله : « **ولا قومك** » كافياً ، إلا أن الفصل بالضمير المنفصل مع ذلك أفصح ، وإلى هذه المسألة أشار ابن مالك في الخُلاصة بقوله :

وإن على ضمير رفع متصل ... عطفت فافصل بالضمير المنفصل
أو فاصل ما ....

ومما جاء فيه الفصل بلا وحدها قوله تعالى : « **ما أشركنا ولا آباؤنا** »(١) . أي ما كنت أنت ولا قومك تعلمون هذه القصص قبل أن نوحي إليك .

« **فاصبر إن العاقبة للمتقين** » . الفاء فاء السببية ، والمراد ليتسبب على يقينك أنك على حق وأن أهل الحق منصورون ، ليتسبب على ذلك صبرك على ما يصيبك من قومك ، والعاقبة مصدر ، جيء به على زنة اسم الفاعل ، ومجيء المصادر على زنة اسم الفاعل أو اسم المفعول مسموع ، ومعناه هنا العقبي ، ومثله

---

(١) الأنعام : ١٤٨ .

العافية بمعنى المعافاة ، ومن مجيء اسم المفعول مراداً به المصدر قولهم : فلان يجود في الميسور والمعسور ، وقولهم : ماله معقول ولا مجلود ، أي لا عقل ولا جلد ، والعاقبة هي ما يؤل إليه الأمر في ثاني حال ، وهي هنا العاقبة الحسنة ، فهي للمتقين الذين يتقون الله بفعل طاعته وترك معصيته ، ويفهم من دليل خطابها أن غير المتقين لهم العاقبة الوخيمة والسيئة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ
أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ
قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ
وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾
إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟
أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾
إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى
عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ
وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ
﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم
مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ
وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ
أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

٨ ـ دعوة هود عليه السلام قومه وموقفهم منه وعاقبة الفريقين

قوله تعالى : « **وإلى عاد أخاهم هوداً** » الواو عاطفة لعامل محذوف على ما سبق في قوله : « **ولقد أرسلنا نوحاً** » أي ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ، وإنما جاز العطف مع طول الفصل لكونها قصة معطوفة على قصة .

وعاد قبيلة عظيمة ، وهي عاد الأولى ، وهي من ذرية سام بن نوح باطباق المؤرخين ، فهم من العرب البائدة ، ويُقال البائرة ، والبائدة والبائرة اسمان لمسمى واحد ، هو الهالكة .

[1] وقوله : « **أخاهم** » هذه أخوة طينية لادينية ، وفيها دليل على جواز إطلاق الأخوة النسبية بين الكافر والمؤمن ، والأساس إنما هو الأخوة الدينية .

(١) من هنا بدأت المحاضرة الرابعة عشرة في ١٣٨٤/٧/٢٠هـ .

والسر في التعبير بالأخوة لهم ، ليزداد التشنيع عليهم ، لأنه منهم يعلمون صدقه وثقته وشرفه الذي إذا حصل له يكون شرفاً لهم ، ثم إنهم بعد هذا كله عصوه .

« **قال يا قوم اعبدوا الله** » كل دعوات الرُسل هي مضمون « **لا إلٰه إلا الله** » التي قام عليها أمر السموات والأرض ، وخلقت من أجلها الجنة والنار ، وبعث رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، ولهذا كان كل رسول إنما يبدأ قومه بالدعاء إليها ، كما قال تعالى : « **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلٰه إلا أنا فاعبدون** »(١) .

وقد حصر الله جل وعلا الوحي كله في هذه الكلمة ، حيث قال : « **قل إنما يوحى إليّ أنما إلٰهكم إلٰه واحد فهل أنتم مسلمون** »(٢) . وذلك أنها تحتوي على مضمون كل الكتب السماوية والشرائع الإلٰهية وتشملها ، لأنها مركبة من نفي كل الألهة ــ غير الله ــ ونفي عبادتها ، وإثبات كل العبادات لله وحده ، ففيها يدخل كل تقرب إلى الله تعالى ، من عقائد وأعمال وتروك ، ولهذا قال النبي ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلٰه إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها »(٣) .

فكل التكليفات والحقوق مندرجة تحت هذه الكلمة ، ولهذا قال نبي الله هود : « **اعبدوا الله** » أي تقربوا إليه وحده بما أمركم بالتقرب به إليه من العبادات على وجه الخضوع والذل والمحبة ، فلا تكفي المحبة دون الخضوع والذل ، لأنها قد تكون طبيعية ، ولا يكفي مجرد الخضوع والذل ، لأنه قد يكون خاضعاً لمن يبغضه تحت قهره وسلطانه ، وباجتماع ذلك يحصل كمال العبودية لله .

---

(١) الأنبياء : ٢٥ . (٢) الأنبياء : ١٠٨ .

(٣) الحديث في صحيح البخاري : عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال :« أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » . (١/١١ ــ ١٢) ومسلم أيضاً (١/٥١ ــ ٥٣) وله روايات مختصرة بعضها قريب مما ذكره شيخنا المُفسر رحمه الله .

« **ما لكم من إلٰه غيره** » أي ليس لكم معبود يستحق منكم العبادة غيره ، لأنه الخالق الرازق المدبر ، فهو وحده المعبود .

وهنا سؤال نحوي ، وهو أن يقال : إن كلمة غير تابعة لإلٰه ، وقد رفعت ، مع أن متبوعها مجرور ، فما وجه ذلك ؟

والجواب أن كلمة « **إلٰه** » وإن كانت مجرورة في اللفظ ، فإن محلها الرفع ، لأن من زائدة للتنصيص على العموم في النفي ، فهو مبتدأ ، والتابع يجوز أن يتبع لفظ المتبوع فيجر ، ويجوز أن يتبع محله فيرفع إن كان مرفوعاً وينصب إن كان منصوباً ، كما قال ابن مالك في الخلاصة :

وجر ما يتبع ما جر ومن راعى في الاتباع المحل فحسن

وقال :

واجرر أو انصب تابع الذي انخفض كمبتغى جاه وما لا من نهض

« **إن أنتم إلا مفترون** » إن نافية ، معناها : ما ، أي ما أنتم إلا مفترون ، والمفترون جمع تصحيح المفترى ، اسم فاعل افترى ، والافتراء الكذب والاختلاق الشنيع ، ووزن مفترون : مفتعون ، حذفت اللام التي هي الياء ، وذلك واجب في مثله بإجماع أهل اللسان العربي ومثله : القاضون ، فأصل وزنه قبل الحذف : مفتعلون ــ مفتريون ــ .

وهنا سؤال : وهو أن نبي الله هوداً عليه السلام أثبت لهم صفة الافتراء ، مع أنهم لم يتقدم لهم حكاية كلام يقتضي تكذيبهم ، فكيف أثبت لهم الافتراء ؟

والجواب : أن قوله : « **ما لكم من إلٰه غيره** » يدل بمفهومه أنهم ادعوا آلهة من دون الله تعالى ، بدليل عبادتهم لهم ، وقد صرح الله بهذا المفهوم فيما بعد بقوله عنهم : « **وما نحن بتاركي آلهتنا** » .

« **يا قوم لا أسألكم عليه أجراً** » .

أعاد هود النداء لهم لينبههم على شفقته بهم وإرادة الخير لهم ، والضمير في

« **عليه** » يعود إلى ما يدل عليه المقام ، أي لا أطلب منكم جزاء على الذي بلغتكم عن الله ، وهذا يقتضي أن تحسنوا بي الظن ، فإني لو كنت أطلب على ذلك جعلاً لظننتم أني إنما أطلب بدعوتي مصلحة شخصية من وراء ذلك .

وهذه عادة كل الأنبياء لا يطلبون على دعوتهم جزاء دنيوياً ولهذا قال الله تعالى عنهم كلهم : « **اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً** »(١) . فهو يقول لقومه : لا أسألكم على هذا التبليغ وهذه المكابدة شيئاً من أمور الدنيا .

« **إن أجري إلا على الذي فطرني** » أي ما جزائي وثوابي إلا على الله عز وجل ، وإنما عبر بعلى في قوله : « **على الذي** » لأن الله أوحى إليه أنه التزم ذلك له ، وكذلك بقية الأنبياء ، وفي قوله : « **أجري** » قراءتان : الأولى بفتح الياء ، والثانية باسكانها .

و « **فطرني** » أي ابتدعني وخلقني على غير مثال سابق وقد ذكر عن ابن عباس أنه ما عرف حقيقة معنى فطر ، حتى اختصم أعرابيان في بئر ، فقال أحدهما : هي بئري ، وأنا فطرتها ، فعرف أن فطر معناه ابتدع الشيء على غير مثال سابق لوجوده .

« **أفلا تعقلون** » أي أتعبدون ما لا ينفع ولا يضر فلا تعقلون أي لا تدركون بعقولكم حقائق الأشياء ؟ وهذا توبيخ لهم .

« **ويا قوم استغفروا ربكم** » أعاد النداء ، وذلك متضمن معنى الاستعطاف وإبداء أن قصده المحبة لهم والرأفة بهم ، أي اطلبوا المغفرة بتوحيد الله ، لا أنكم تطلبونها وأنتم تعبدون غيره ، فإنكم لا تنالونها بذلك ، بل تنالون العقاب ، كما قال تعالى : « **قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين** »(٢) .

« **ثم توبوا إليه** » أي ارجعوا إليه بعد طلب المغفرة من الكفر به ، بأن تقلعوا نادمين عازمين على أن لا تعودوا .

---

(١) راجع هذه الآية وغيرها في تفسير الآية : ٢٩ فيما مضى .

(٢) الأنفال : ٣٨ .

« **يرسل السماء عليكم مدراراً** » أي يرسل إليكم المطر غزيراً كثيراً ، يُقال : لله درها للناقة إذا كانت كثيرة اللبن ، أي تكثر الأمطار فتكثر النباتات فتنعم الحيوانات وتكثر الألبان وغير ذلك من نعم الدنيا ، فتحصل لهم نعمة الدنيا والآخرة .

« **ويزدكم قوة إلى قوتكم** » أي إلى قوتكم التي قلتم مفتخرين بها : « **من أشد منا قوة** »(١) ؟!

وطاعة الله تعالى كما أنها تصلح الآخرة فهي تصلح الدنيا أيضاً ، وفي هذه الآية دليل واضح على ذلك ، لأن قوله تعالى : « **يرسل السماء** .... » إلخ مجزوم في جواب الطلب الذي هو استغفروا .. إلخ والقاعدة أن الفعل المضارع المجزوم في جواب الطلب ، يكون جزمه بشرط مقدر ، والتقدير : إن تستغفروا وتتوبو .. إلخ يرسل .

والله تعالى قد ذكر مثل هذا في عدة آيات ، فقال في أول هذه السورة : « **وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً ويؤت كل ذي فضل فضله** » وقال تعالى : « **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** »(٢) . والمراد بالحياة الطيبة الأرزاق والنعم الدنيوية بدليل قوله : « **ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** » .

وقال تعالى : « **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً** »(٣) .

وقال تعالى في أهل الكتاب : « **ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون** »(٤) .

وقال تعالى : « **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** »(٥) .

---

(١) فصلت : ١٥ (٢) النحل : ٩٧ (٣) نوح : ١٠ ــ ١٢ (٤) المائدة : ٦٦ (٥) الأعراف : ٩٦

وفي هذه الآية إشارة أن من رجع إلى الله تعالى الذي رفع السموات وبسط الأرض يجلب بذلك نعيم الدنيا وسعادة الآخرة .

وقال تعالى : « **ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً** »(١) .

وقال تعالى : « **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** »(٢) . فتقوى الله وطاعته فيهما صلاح الدنيا والآخرة .

والأمة كلها لو اجتمعت على نفع لم يرده الله لأحد أو على ضر لم يرده الله بأحد لم يقدروا على ذلك ، كما ثبت ذلك عن الرسول ﷺ (٣) .

وهذا فرعون الجبار الذي قال : « **أنا ربكم الأعلى** »(٤) أصبح بمشيئة الله النافذة يربى ذلك الطفل الصغير الذي كانت عاقبته الوخيمة على يديه ، كما قال تعالى : « **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين** »(٥) . وهذه اللام هي لام العلة ، ولا اعتبار بقول من تعسف في تقديرها ، وقال : هي لام العاقبة ، والمعنى : قدرنا على فرعون رغم أنفه أن يربيه ليكون له عدواً وحزناً .

« **ولا تتولوا مجرمين** » .

أي لا تعرضوا عن هذا التوحيد الذي أدعوكم إليه إلى عبادة الأوثان ، والحال أنكم مجرمون ، أي مرتكبون الجرائم ، والجريمة الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه التنكيل والخزى الشديد ، وهو من أجرم الرباعي ، وهو بهذا المعنى كثير في القرآن ، وعليها إجماع أهل اللسان العربي ، ويأتي أيضاً ثلاثياً في القرآن وفي

---

(١) الطلاق : ٤ .

(٢) الطلاق : ٣ .

(٣) يشير إلى حديث ابن عباس الذي رواه الترمذي (٦٦٧/٤) . وفيه : « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رُفعت الأقلام وجفت الصحف ، وقال الترمذي : هذه حديث حسن صحيح .

(٤) النازعات : ٢٤ .

(٥) القصص : ٨ .

اللغة ، ولكن على خلاف في ذلك ، فمن إتيان أجرم الرباعي في القرآن قوله تعالى : « **فعلى إجرامي وأنا بريء مما تجرمون** »[1] .

وقوله تعالى : « **إن الذين أجرموا** »[2] . وقوله هنا : « **ولا تتولوا مجرمين** » .

ومن إتيان الثلاثي في القرآن قوله تعالى : « **لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون** »[3] .

« **لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون** »[4] .

ومن إتيان الثلاثي في اللغة قول الشاعر :

وننصر مولانا ونعلم أنه كما الناس مجروم عليه وجارم

ومعنى الآية : لا تعرضوا وتصدوا عن الحق في حال كونكم مرتكبين الجرائم .

« **قالوا يا هود ما جئتنا ببينة** » .

بعد أن ذكر الله كلام هود ودعوة قومه ذكر تعالى جوابهم اللئيم وقد نادوه باسمه بغاية من الوقاحة وعدم الحياء والاحترام ، أي ما أتيتنا ببرهان قاطع يدل على أن ما تدعونا إليه حق ، وهذا منهم كذب وافتراء ، فإنه ما أرسل الله من رسول إلا مصحوباً بالمعجزات التي تصدقه وتؤيده ، وقد بين ذلك الصادق المصدوق بقوله ﷺ : « ما من الأنبياء من نبي إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إلى ، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً »[5] .

وهو صريح أنه ما أرسل الله رسولاً إلا أيده بما يدل على صدقه ، كما قال تعالى : « **تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل** »[6] .

(١) سبق في آية : ٣٥ . (٢) سورة المطففين : ٢٩ . (٣) تقدمت في آية ٢٢ .
(٤) النحل : ٢٣ ، وقد مضى كلام شيخنا المُفسر في ذكر أقوال العلماء فيها في تفسير آية هود : ٢٢ .
(٥) البخاري (٩٧/٦) ومسلم (١٣٤/١) من حديث أبي هريرة ، ولم أتمكن من كتابة نص كلام الشيخ لهذا الحديث ، ولذلك نقلته بنصه . (٦) الأعراف : ١٠١ .

وقال تعالى : « **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات** »[1] والآيات في ذلك كثيرة جداً .

ونظير قول قوم هود هنا قول اليهود للرسول ﷺ إنه لم يأت ببينة تصدق دعواه الرسالة ، فرد الله عليهم بقوله : « **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون** »[2] .

والبينة كل دليل واضح لا يترك في الحق لبساً ، ولكن البينات لا تغني شيئاً ولا تفيد شيئاً فيمن طمست بصائرهم حتى لم يميزوا الحق من الباطل بسبب إعراضهم واتباع أهوائهم .

وكيف يصح في الأذهان شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل

« **وما نحن بتاركي آلهتنا** » الجار والمجرور ليس من قبيل الشبيه بالجملة ، بل هو من قبيل المفرد ، لأن الباء الداخلة على خبر ليس زائدة لا متعلق لها ، ولذا لا يقدر له الاستقرار والكون ، كما يقدر للجار والمجرور الشبيه بالجملة ، كما في باب الخبر ، وإليه أشار ابن مالك في الألفية بقوله :

وأخبروا بظرف أو بحرف جر   ناوين معنى كائن أو استقر

وزيادة الباء متحققة سواء كانت ما حجازية أو تميمية ، إلا أنها إذا كانت تميمية يكون محل المجرور الرفع ، وإذا كانت حجازية يكون محله النصب ، وهذه الباء يؤتى بها في الإسناد الخبري المنفي مؤكدة للنفي ، كما يؤتي بإن وقد واللام وغيرها مؤكدة للإسناد الخبري المثبت .

وإضافة تارك إلى آلهة من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله ، والنون في تاركين حذفت للإضافة ، على حد قول ابن مالك في الألفية :

نونا تلي الإعراب أو تنوينا   مما تضيف احذف كطور سينا

والآلهة جمع إلٰه ، ويجمع فِعال على أفعلة ، كقذال وأقذلة ، ونحوه من كل

---

(١) الحديد : ٢٥ .

(٢) البقرة : ٩٩ .

اسم رباعي زيدت مدة قبل آخره ، كما قال ابن مالك في الألفية :

في اسم مذكر رباعي بمد   ثالث أفعلة عنهم اطرد

وأصل آلهة أألهة ، اجتمعت همزتان في أول الكلمة سكنت ثانيتهما فأبدلت مدة من جنس الحركة التي قبلها ، وهذا الإبدال واجب باجماع أهل اللسان العربي ، وعليه جميع القراءات في القرآن الكريم ، وفيه قال ابن مالك في الألفية :

ومدا ابدل ثاني الهمزين من   كلمة إن يسكن كآثر وائتمن

والإله المعبود ، ومرادهم : لا نترك عبادة معبوداتنا .

« **عن قولك** » أي بسبب قولك ، فعن سببية بمعنى الباء عند جماعة ، ومن أمثلتهم لِعَنْ بمعنى باء السببية : مات عن ضربه أي بسبب ضربه .

« **وما نحن لك بمؤمنين** » أي لا نصدقك في قولك ، أكدوا لنبي الله هود عليه السلام كفرهم من جهتين : الأولى : عدم تركهم آلهتهم والثانية : عدم إيمانهم به ، وفي هذا غاية التيئيس .

« **إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء** » .

أي نحصر قولنا لك في هذا ، واعترى على وزن افتعل ، أصل لامه واو ، فماضيه عرو ، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً فصار عرا ، على حد قول ابن مالك في الخلاصة :

من واو أو ياء بتحريك أصل   ألفاً ابدل بعد فتح متصل

ومضارعه يعرو ، ومن شواهده قول الشاعر :

وإني لتعروني لذكراك هزة   كما انتفض العصفور بلله القطر

فدخلته تاء الافتعال ، مثل : اكتسب ، فصار اعترى ، أي ما نقول إلا أنه أصابك بعض آلهتنا بسوء .

وقد كان نبي الله هود عليه السلام كغيره من الأنبياء ، يلح عليهم في دعوتهم إلى الله في البيوت والأسواق والنوادي ، فوصفوه بأن به خبلاً وجنوناً ، ونسبوا

سلب عقله إلى الآلهة ، لكونها قد سلبت مَن قبله في زعمهم ونهى عن عبادتها ، وقد وصفوا سيد الخلق ﷺ بأنه مجنون فرد الله تعالى عليهم بقوله : « **ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين** »[1] وقال تعالى : « **كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون** »[2] . وقد نفى الله عن رسوله ﷺ الجنون ، فقال : « **وما أنت بنعمة ربك بمجنون** »[3] .

فمراد قوم هود بالسوء الذي أصابته به الآلهة الجنون ، وهكذا عادة المشركين أن يخوفوا الأنبياء والدعاة إلى الله من آلهتهم ، كما قال تعالى : « **إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** »[4] .

وقد خوف قوم إبراهيم إبراهيم عليه السلام من آلهتهم ، كما قال الله تعالى عنه وهو يرد عليهم تخويفهم : « **وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم مؤمنين الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** »[5] .

« **قال إني أشهد الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون** » .

أي أشهد الله واشهدوا أنتم على أني لا أخاف مما تعبدون وزعمتم أنهم مسوني بسوء ، بل لا أزداد إلا براءة من معبوداتكم ، فأنا بريء كل البراءة منها ، لا أواليها ، ولا أخافها ، لأني أعلم أنها جمادات لا تنفع ولا تضر من دون الله .

« **فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون** » يستجلب عداوتهم وعداوة أصنامهم التي زعموا أنها تضر ، والكيد إيصال السوء ، أي أوصلوا السوء إلي أنتم وآلهتكم ، وابذلوا كل ما تطيقون ، فأتوا به ، ولا تمهلوني لحظة واحدة ، حتى أدبر لكم أمراً ضدكم .

---

(١) الصافات : ٣٦ ، ٣٧ .
(٢) الذاريات : ٥٢ .
(٣) القلم : ٢ .
(٤) آل عمران : ١٧٥ .
(٥) الأنعام : ٨١ ــ ٨٢ .

وهنا يبدو أن يعن للسامع سؤال ، وهو : ما المستند العظيم الذي جعل هود عليه السلام يُصارح قومه هذه الصراحة ويتحداهم ذلك التحدي بشجاعة وعدم تهيب ، مع أنه لا جيش عنده ولا ظهير ولا شيء من الأسباب الحسية التي يتبجح بها الإنسان عادة ؟ والجواب هو قول الله جل وعلا :

« **إني توكلت على الله ربي وربكم** » .

أي هذا هو الذي جعلكم تسقطون عندي أنتم وآلهتكم فلا أبالي بكم ولا بها ، لأني وثقت بربي ثقة تامة ، وفوضت إليه جميع أموري ، وهو الذي خلقني وخلقكم وسيدي وسيدكم ومدبر شؤني وشؤنكم ، فكلنا في قبضة يده ، لا يفوته أحد ، ولهذا قال :

« **ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها** » .

« أي ما من نسمة تدب على وجه الأرض ، من إنسان وأنعام ووحوش ، وكل الحيوانات صغيرها وكبيرها ، إلا والله تعالى آخذ بناصيتها ، أي إنها في قبضته لا تفوته ، يتصرف فيها كيف يشاء .

والناصية مقدم الرأس ، ويعبر بالأخذ بالناصية عن الملك التام ، فالله جل وعلا مالك كل مخلوق ملكاً تاماً مطلقاً بكل وجه ، وهذا هو التوكل الحقيقي الذي أبداه هود عليه السلام .

« **إن ربي على صراط مستقيم** » .

فمن سلك صراطه الذي أمر بسلوكه أوصله ذلك الطريق إلى ربه ، وهذا يدلنا على كمال ثقة الأنبياء عليهم السلام بربهم .

وهذا نبي الله نوح عليه السلام يقول لقومه ما ذكره الله تعالى عنه من تحد صريح لقومه ، كما قال تعالى : « **واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمة ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون** »[1] .

---

(١) يونس : ٧١ .

ونبينا محمد ﷺ يوم حنين في ذلك الشعب الذي ألب عليه فيه مالك بن عوف هوازن في مضايق الأودية بعد صلاة الصبح ، فاشتد الأمر من المشركين على المسلمين حتى كانت الرماح كالمطر عليهم ، كما وصف الله تلك الشدة عليهم بقوله تعالى : « **ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين** »(١) .

ففر من كان مع رسول الله ﷺ ، ولم يبق معه إلا أحد عشر رجلاً ، يظهر ثقته بربه وتمام توكله عليه ويتقدم لمقارعة المشركين ويقول وهو راكب على بغلته أمام الأعداء الذين قد امتلأت قلوبهم غيظاً عليه :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب(٢)

ونظير قوله تعالى هنا : « **إن ربي على صراط مستقيم** » قوله تعالى : « **وعلى الله قصد السبيل** »(٣) وقوله تعالى : « **إن علينا للهدى** »(٤) .

والمراد أن من سلك السبيل القاصد والصراط المستقيم وصل إلى ربه ليجازيه أحسن الجزاء ، وهذا أجود التفاسير في الآية ، فإن عفو الله ورضاه إنما يوصل إليه من هذه الطريق ، كما قال تعالى : « **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم** »(٥) .

« **فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم** » حذف إحدى التائين بدليل الخطاب في جواب الشرط : « **فقد أبلغتكم** » ، ولو كان ماضياً لقال : أبلغتهم ، وفي حذف إحدى التائين قال ابن مالك في الخلاصة :

وما بتائين ابتدى قد يقتصر فيه على تا كتبين العبر

والمراد أنني قد نهيتكم عن التولي ، وهو الذي مضى في قوله :

---

(١) التوبة : ٢٥ .

(٢) راجع القصة في صحيح البخاري (٣/٢١٨) وصحيح مسلم (٣/١٤٠) من حديث البراء بن عازب ، رضي الله عنه .

(٣) النحل : ٩ .

(٤) الليل : ١٢ .

(٥) الحج : ٣٧ .

« **ولا تتولوا مجرمين** » فإن أبيتم إلا التولي وعصيتم أمري وارتكبتم نهيي ، فقد فعلت ما أمرت به وبذلت ما في وسعي ، ونصحتكم ، فلا تضرونني بعد هذا ، وإنما تضرون أنفسكم .

ومعنى « **ما أرسلت به** » أي الذي أرسلني به الله لأبلغكم إياه ، وقال تعالى في مثل هذا : « **ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون** »(1) .

« **ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً** » .

أي إن ربي غني عنكم ، فلو شاء لأماتكم على كفركم فلقيتم جزاءكم في الآخرة ، وجعل في الأرض خلفاً غيركم ، ولا تضرونه بذلك وإنما تضرون أنفسكم ، ويفهم من هذه الآية الكريمة أن معصية العاصين لا تضر الله شيئاً ، كما يفهم منها أن طاعة الطائعين لا تنفع الخالق ، وقد بين الرسول ﷺ ذلك في الحديث الثابت في صحيح مسلم(2) أتم بيان وهو حديث قدسي يقول الله تعالى فيه : « يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » ..

« **إن ربي على كل شيء حفيظ** » الحفيظ الرقيب الذي يحفظ الأشياء ، ومن حفظه تسجيله كلما تقولون من الافتراء ، فيجازيكم به ، كما قال تعالى : « **إن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون** »(3) . وقال تعالى : « **وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة** »(4) . وقال تعالى : « **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظون من أمر الله** »(5) . ومن ذلك حفظه تعالى أعمال عباده لمجازاتهم عليها كما قال تعالى : « **يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد** »(6) .

---

(1) المائدة : ٩٩ . (2) (١٩٩٤/٤ ــ ١٩٩٥) . (3) الانفطار : ١٠ ــ ١٢ .
(4) الأنعام : ٦١ . (5) الرعد : ١١ . (6) المجادلة : ٦ .

والحفظ في اللغة إمساك الشيء بحزم ، ولذا قيل للملك حافظ كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام : « **قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم** »(١) .

ويدخل في ذلك حفظ الله نبيه هوداً عليه السلام من أن يصيبه قومه بسوء . قوله تعالى : « **ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ** » .

لما هذه هي الرابطة ، واختلف فيها : فقيل : هي حرف لعدم رجوع ضمير إليها ، وقيل : إنها ظرف تضمنت معنى الشرط ، وتأتي لما جازمة كقوله تعالى : « **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله** »(٢) .

ودالة على الإثبات ، نحو قوله تعالى : « **إن كل نفس لما عليها حافظ** »(٣) . وهي في هذين الموضعين حرف بلا خلاف .

والأمر واحد الأمور ، والمعنى : ولما جاء شأننا بإهلاك عاد . وقد فصل هذا الأمر في مواضع من كتاب الله ، كقوله تعالى : « **وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم** »(٤) . وذكر المفسرون أن تلك الريح كانت سموماً تدخل في أنوفهم ثم تقلعهم إلى السماء ، ثم ترميهم ، كما قال تعالى : « **إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحسٍ مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر** »(٥) . وقال تعالى : « **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية** »(٦) .

وقال تعالى : « **فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين** »(٧) .

« **نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ** » .

(١) يوسف : ٥٥ . (٢) يونس : ٣٩ . (٣) الطارق : ٤ . (٤) الذاريات : ٤١ ، ٤٢ .
(٥) القمر : ١٩ ، ٢٠ . (٦) الحاقة : ٦ — ٨ . (٧) الأحقاف : ٢٤ ، ٢٥ .

أي نجينا نبينا وأتباعه من كفر الأعداء « **برحمة منا** » تغشيناهم بها ، فظهرت آثارها عليهم ، وبالإيمان الذي وفقناهم له ، ومن عذاب غليظ ، أي شديد ، وهو إرسال الله عليهم الريح العقيم التي كانت تقلعهم ، كما مضى ثم ترميهم .

(١) قوله تعالى : « **وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم** » أنث اسم الاشارة نظراً إلى معنى عاد ، وهو القبيلة ، لأن عاداً قبيلة من قبائل العرب البائدة ، وأصل الاسم للجد ثم استعمل في القبيلة ، فهو يستعمل فيهما ، وهنا استعمل في القبيلة بدليل تأنيث المسند إليه .

وهنا يرد سؤال نحوي ، وهو : ما وجه صرف كلمة : « **عاد** » وقد أريد بها القبيلة ، فقد اجتمع فيها علتان مانعتان من صرفها ، وهما التأنيث والعلمية ؟

والجواب : أن المحققين من النحويين على أن الاسم الثلاثي المؤنث العلم الساكن الوسط ، يجوز فيه الصرف وعدمه ، وقد جاء به القرآن ، كما هنا ، فهو فصيح جائز ، وكما صرف نوح ولوط وكلاهما علمي أعجمي .

كما قال ابن مالك في الألفية :

وجهان في العادم تذكيراً سبق ... وعجمة كهند والمنع أحق

ومادة « جحد » تتعدى تارة بنفسها ، وتارة بحرف الجر ، كما هنا ، قيل : وهي هنا دالة على معنى كفر ، أو مضمنة معناه .

وهذه الآية دالة على أنه جاءهم بآيات بينة ، خلافاً لما قالوا من قبل : « **ما جئتنا ببينة** »(٢) . فجحدوها مع وضوحها « **وعصوا رسله** » وهنا يرد سؤال ، وهو : ما سبب الجمع « **رسله** » مع أن المرسل إليهم واحد ؟ والجواب : أن الأنبياء كلهم عليهم السلام أصل دعوتهم شيء واحد ، وهو مضمون : « **لا إله إلا الله** » . فكلهم يأمر قومه بأن يعبدوه وحده ويطيعوه في أمره ونهيه ، ويؤمنوا به إيماناً تاماً كاملاً على سبيل الإخلاص ، وما يحصل في شرائع الأنبياء من اختلاف في الفروع لا يوجب التفريق بينهم ، ولهذا كان من

---

(١) من هنا بدأت المحاضرة الخامسة عشرة في ١٣٨٤/٧/٢٢هـ .

(٢) آية : ٥٣ .

كذب واحداً منهم فقد كذبهم جميعاً ، ولهذه الحكمة بعينها كفر كل من فرق بين رسل الله ، كما قال تعالى : « **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا** »[١] .

وأمر الله رسوله ﷺ والمؤمنين أن يؤمنوا به وبكل رسله ، فقال تعالى : « **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** »[٢] .

وشهد الله لهذه الأمة ونبيها أنهم آمنوا بما أمرهم بالإيمان به ، فقال تعالى : « **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** »[٣] .

وبين سبحانه وتعالى أن الأجر العظيم الذي وعد به عباده المؤمنين مترتب على هذا الإيمان الذي لا يفرق صاحبه بين رسل الله ، فقال تعالى : « **والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً** »[٤] .

وهذا هو الجواب على هذا الإشكال الذي يرد في جميع الأنبياء فإن الله عندما يذكر النبي وقومه يذكر أن المعاندين منهم كذبوا الرسل بالجمع ، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « إنا معاشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد »[٥] .

والمراد بأولاد علات أن يكون أبوهم واحداً ، وأمهاتهم مختلفة والمعنى هنا أن عقيدتنا واحدة والفروع مختلفة ، ولا يضر الاختلاف في الفروع ، لأنها ترجع إلى أصل واحد متفق عليه .

---

(١) النساء : ١٥٠ ، ١٥١ . (٢) البقرة : ١٣٦ . (٣) البقرة : ٢٨٥ . (٤) النساء : ١٥٢ .
(٥) نص الحديث الحديث الذي يُقاربه ما كتبه عن الشيخ هكذا : عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ((أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة والأنبياء إخوة لِعلات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد)) لفظ البخاري (١٤٢/٤) وهو في مسلم (١٨٣٧/٤) .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن من كفر بنبي واحد منهم فقد كفر بهم جميعاً وبهذا يظهر السبب في جمع الرُسُل هنا : « وعصوا رُسُله » .

« **واتبعوا أمر كل جبار عنيد** » .

وهذا يدل على غاية الجهل والسفه والطيش ، حيث يطيعون من تجب معصيتهم ويعصون من تتحتم عليهم طاعتهم ، والمراد بالجبارين المعاندون المتمردون من سادتهم الكفرة .

والجبار فعّال من الجبر ، لأن هذه المادة تستعمل ثلاثية كجبر ، ورباعية ، كأجبر ، والجبار صيغة مبالغة من الثلاثي ، واعتراض بعضهم على صيغة المبالغة « **جبار** » بأن هذه الصيغة لا تأتي إلا من الثلاثي ، والفعل رباعي فقط ، هذا الاعتراض صحيح من ناحية أن هذه الصيغة لا تأتي إلا من الثلاثي ، ولكنه خطأ من حيث إنهم جعلوا لهذه المادة صيغة واحدة ، وهي الرباعي فقط ، والصحيح أن لها صيغتين : ثلاثية ورباعية ، وصيغة المبالغة « **جبار** » من الثلاثية ، فهو على بابه .

والجبار هو الذي يستلب الحقوق قهراً ، وقد سمى الله الذين يبطشون بطشاً شديداً جبارين ، كعاد ، قال الله تعالى فيهم : « **أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين** »(١) .

كما أن من تكرر منه القتل يسمى جباراً ، كما قال صاحب موسى لموسى عندما أراد أن يبطش به : « **أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين** »(٢) .

والعنيد صيغة مبالغة من العناد ، وهو اللجوج الطاغي الذي لا يقبل الحق مثل قوم عاد .

« **وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة** » اللعنة الطرد والإبعاد ، أي جعلت هذه اللعنة تابعة لهم لا تفارقهم ، كما لا يفارق الظل صاحبه ، ولذا سمى الظل تابعاً ،

---

(١) الشعراء ، ١٢٨ ــ ١٣٠ . (٢) القصص : ١٩ .

فاللعنة ترحل معهم حيث رحلوا ، وتنزل حيث نزلوا في هذه الدنيا .

« **ويوم القيامة** » أي وتلازمهم يوم القيامة .

وهنا سؤال نحوي ، وهو أن يُقال : إن المعطوف عليه مجرور ، وهو قوله : « **في هذه** » والمعطوف منصوب ، وهو قوله : « **ويوم القيامة** » فما وجه ذلك . والجواب أن الظرف مضمن معنى في ، فعند ظهور في يجربها ، وعند عدم ظهورها ينصب ، كما قال ابن مالك في الخلاصة :

الظرف وقت أو مكان ضمنا « في » باطراد كهنا امكث أزمنا

وقد بين الله تعالى وجه تسمية هذا اليوم بيوم القيامة في سورة المطففين بقوله : « **ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين** »[1] .

وهنا سؤال ، وهو أن يقال : ما وجه إدخال التاء في قوله : القيامة ؟ والجواب أن الأجوف الواوي إذا كان مصدره على الفِعال تكثر زيادة التاء في آخره ، كالحيازة والحياكة والقيادة والقيامة ونحوها ، والمعنى واتبعوا اللعنة في يوم القيامة فهى ملازمة لهم في الدارين .

« **ألا إن عاد كفروا ربهم** » ألا حرف استفتاح وتنبيه ، يستفتح بها الكلام لتنبيه السامع لما بعدها ، وكفر ربما عديت بنفسها ، كما هنا ، وربما عديت بالباء ، فيقدر كفروا بربهم .

« **ألا بعداً لعاد قوم هود** » .

أي بعدوا بعداً عن النجاة والسلامة ، وذلك هو الهلاك . والبُعد اسم مصدر ، وقد مضى الكلام عليه[2] .

ومضى أن الله تعالى أهلكهم هلاك استئصال ، كما قال تعالى فيهم : « **فهل ترى لهم من باقية** »[3] .

---

(١) سورة المطففين : ٤ — ٦ . (٢) في تفسير آية : ٤٤ . (٣) راجع تفسير آية : ٥٨ .

والمقصود من هذه الآيات هو تنبيه الكفار بمحمد ﷺ من قريش وغيرهم ، فكأنه يقول لهم : اعتبروا بمن قصصنا عليكم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ، فقد أهلكنا من هو أشد قوة منكم ، ولم تغن عنهم قوتهم شيئاً ، فاحذروا فعلهم لئلا يحل بكم ما حل بهم .

وقد ذكر الله تعالى أن قوم هود كانوا يسكنون الأحقاف ، كما قال تعالى : « **واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف** »[١] . وهي بلدة في أطراف اليمن ، وليست بعيدة من كفار قريش فيجب أن يعتبروا بها .

(١) الأحقاف : ٢١ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ
يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ
﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن
نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى
مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى
غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ
ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ
﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا
لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

٦ ـ دعوة صالح عليه السلام قومه وموقفهم منه وعاقبة الحزبين

قوله تعالى :

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً » .

تسمى ثمود عاداً الأخرى ، وهو معطوف ، كالذي قبله ، أي والله لقد أرسلنا نوحاً ، ووالله لقد أرسلنا هوداً ، ووالله لقد أرسلنا صالحاً .

ويزعم بعضهم أن ثمود من قبيلة من بقايا عاد ، والظاهر أنه لم يبق من عاد أحد ، وثمود اسم لجد القبيلة ، ويطلق عليها ، كما هنا ، بدليل قوله : **« أخاهم »** .

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ أمر أن لا يدخل أحد ديارهم إلا باكياً أو متباكياً ، وأن لا يشرب من آبارهم[1] .

وأصل الثمود في اللغة الرجل القليل المنى ، والثمد الماء القليل .

قال الشاعر :

واحكم كحكم فتاة الحي (إذ نظرت إلى حمام شراع وارد) الثمد[2]

وإذا أطلق ثمود على الجد فالقياس صرفه ، وإذا أطلق على القبيلة فالقياس عدم صرفه ، وقد ينصرف ، وثمود هذه قبيلة عربية وصالح عليه السلام منهم ، فهو نبي عربي .

« **قال يا قوم اعبدوا الله** » قد مضى أن هذا سبيل كل الرسل ، فالمعارك التي تدور بينهم وبين قومهم ، إنما هي في شأن العبادة ، الأنبياء يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك ، وقومهم الكفرة المعاندون يعبدون الأصنام ويعتقدون فيها ويجادلون الأنبياء ويحاربونهم من أجلها .

« **ما لكم من إله غيره** » مضى الكلام على الإعراب والمعنى في قصة هود[3] .

« **هو الذي أنشأكم في الأرض واستعمركم فيها** » .

أي إن كنتم الآن ترون أنفسكم قد ركبتم من جسم بعظام ولحم ودم ومفاصل فاعلموا أن أصلكم من هذا التراب ، فالذي أوجدكم وأوصلكم إلى هذه الحال هو الذي لا يليق بكم أن تعبدوا غيره ، وقد أمر الله تعالى خلقه وعباده أن

---

(١) راجع ذلك في صحيح مسلم (٤/٢٢٨٥ ــ ٢٢٨٦) .

(٢) البيت للنابغة الذبياني من قصيدة مطلعها .

يا دارميــــة بالعَليــــا فالسنــــد أقوت وطال عليها سالف الأبد

ولم أدرك مع شيخنا المُفسر إلا قوله : واحكم كحكم فتاة الحي .. المظلومة الثمد والبيت بكامله في مختار الشعر الجاهلي (١/١٥٣) . وفي كتاب الحيوان للجاحظ (٣/٢٢١) تحقيق عبد السلام هارون .

(٣) الآية : ٥٠ .

ينظروا في هذا الخلق الهائل ، مما ذا كان وكيف تطور ذلك التطور العظيم . والأمر يقتضي الوجوب ، وصيغه أربع ، هذه واحدة منها : « **فلينظر الإنسان مم خلق** »(١) .

فقد بدأ الله خلق هذا الإنسان بأن بل التراب بالماء حتى صار طيناً لازباً ، ثم أيبسه حتى صار صلصالاً ، فكان منه آدم عليه السلام ، ثم خلق منه زوجه حواء ، ثم خلق ذريته بعد ذلك كلهم من نطف تصير علقاً ، ثم مضغاً ، ثم عظاماً ، ثم تكسي لحماً ، فالله تبارك وتعالى الذي يفعل هذه الآيات المدهشةأحق بالعبادة ، كيف وهو يضع كل عضو في محله المناسب له ، ويشق السمع والبصر ، ويفتق الأمعاء وغير ذلك من تركيب هذا الخلق البديع .

وقد بين الله تعالى هذه المراحل في سورة : « **قد أفلح المؤمنون** » . فقال تعالى : « **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مُضغة فخلقنا المُضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** »(٢) .

ونبه الله جل وعلا العقلاء في سورة الزمر إلى ذلك ، حيث قال : « **خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أُمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظُلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له المُلك لا إله إلا هو فأني تصرفون** »(٣) .

والظلمات الثلاث هي : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ورد الله تعالى على الذين ينكرون البعث بأنه أوجدهم من نطفة (ثم طور خلقهم حتى صاروا شيوخاً ومنهم من يردون إلى أرذل العمر) . كما قال تعالى : « **يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا**

---

(١) الطارق : ٥ . (٢) المؤمنون : ١٢ — ١٤ . (٣) الزمر : ٦ .

عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج »[1] . (فالذي خلق الإنسان هذا الخلق وطوره هذا التطوير لا يعجزه بعثه يوم القيامة من جديد ، وهو وحده الذي يستحق العبادة)[2] .

واحتج نوح عليه السلام على قومه بهذا الخلق العجيب وتلك الأطوار المدهشة لذوى الألباب ، كما قال تعالى : « **ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطوارا** »[3] .

(وقد تكلم الشيخ كلاماً نفيساً جداً في هذا الموضوع ولكن عجزت عن إدراك ذلك كله ، وفوات البعض أخف من فوات الكل)[4] .

« **واستعمركم فيها** » في معنى هذا للعلماء وجهان ، لا يكذب أحدهما الآخر : **الأول** : أنه من العمارة ضد الخلاء ، أي جعلكم عُمّارها وسكانها . **الثاني** : من العمر ، والمعنى أطال الله أعماركم فيها ، يدل للأول قوله تعالى : « **ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون** »[5] .

وقد يستدل للثاني بقوله تعالى : « **ومنكم من يرد إلى أرذل العمر** »[6] والأول أولى وأظهر .

« **فاستغفروه** » الفاء سببية ، أي ليتسبب على إنعام الله عليكم حيث جعلكم عمار الأرض طلبكم المغفرة منه .

« **ثم توبوا إليه** » أي ثم اندموا واقلعوا عن العمل السيء والكفر وارجعوا إليه تعالى بطاعته .

« **إن ربي قريب مجيب** » أي إنه إن استغفرتموه ورجعتم إليه « **قريب** »

---

(١) الحج : ٥ .

(٢) ظهر لي في هذا الموضع أن في السياق شيئاً من النقص فاجتهدت في صياغة بعض العبارات ، قبل الآية الكريمة وبعدها ، وجعلت ذلك بين المعقوفين في الموضعين .

(٣) نوح : ١٣ ، ١٤ .

(٤) ما بين القوسين كتبته في نفس الوقت الذي كان شيخنا المُفسر يلقي الدرس ، للاشارة إلى أن كلامه هنا لم يستكمل .

(٥) يونس : ١٤ .

(٦) النحل : ٧٠ .

يجيب دعوة الداعي ويغفر له ويتجاوز عنه . (قال الشيخ) : وقد تكلمت على هذا في سورة البقرة[1] .

« **قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا** » .

أجابه قومه بجواب دال على غاية السخافة والوقاحة ، فنادوه باسمه ولم يتأدبوا معه ، ومرادهم أنك كنت من قبيلتنا ، يرجى أن تكون سيداً مطاعاً ، ننتفع برأيك ، وإذا بك تأتينا بعكس ما نريد ، فتنهانا عما مر عليه عقلاء آبائنا من عبادة الأصنام ، فانقطع أملنا فيك وخاب ظننا الذي كان يساورنا نحوك .

« **أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا** » هذا هو السبب الذي خيب ظنهم في زعمهم في صالح عليه السلام ، ومحل : « **أن نعبد** » النصب على نزع الخافض ، والتقدير : عن أن نعبد ، أي عن عبادة .

« **وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب** » أي موقع في الريبة ، أي إننا مرتابون فيما تقول ، لأن آباءنا كانوا ذوى عقول راجحة ، وقد مضوا على ما نحن عليه ، فكيف تدعي بطلان ذلك ؟ وهذه طبيعة الكفار يلغون عقولهم فلا يفكرون في الحجج التي يأتي بها رُسُل الله بل ينكرون دعوتهم بحجة تقليدهم لآبائهم ، كما قال تعالى : « **بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون** »[2] .

« **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته** » .

---

(١) والظاهر أنه يقصد الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة : « **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان** » . الآية : ١٨٦ ، وخلاصة ذلك أن الدعاء إما العبادة فتكون الاجابة الإثابة وإما السؤال والطلب فتكون الاجابة قضاء حاجة الداعي ، والاجابة على هذا مقيدة بمشيئة الله ، راجع أضواء البيان : (١٨٢/١ — ١٨٣) .

(٢) الزخرف : ٢٢ — ٢٤ .

أي أخبروني إن كنت أدعوكم على حجة وبرهان ودليل قاطع على أني على حق ، وآتاني رحمة من عنده والنبوة التي بها رحمنى وسترحمون إن اتبعتموني ، فلو اتبعت أهواءكم وكفرت بذلك الرب العظيم فمن يمنعني ويدفع عذابه عني إذا أراد أن ينكل بي ؟

« **فما تزيدونني غير تخسير** » .

أي إنني أزداد بصيرة فيكم بهذا الجهل والعناد الذي قابلتموني به ، فلا أزداد إلا تخسيراً لكم ، فأعتقد أنكم في غاية من الخسران ، هذا هو التفسير الواضح ، أما حمله على أن صالحاً أراد أني لو عصيته فأطعتكم في كفري به تعالى ، فأنتم لا تزيدونني بذلك إلا خساراً ، فهو غير صحيح ، لأنه يفهم منه أن صالحاً عليه السلام كان فيه خسران ، وهم يزيدونه ، وليس الأمر كذلك .

وقيل إن الزيادة قد تستعمل في أصل الفعل ، فيكون المعنى : إن أطعتكم فما تكسبونني غير الخسران ، والظاهر الأول ، ولفظ التخسير يدل عليه ، فإن المعنى نسبة ذي الخسران إلى خسرانة ، يُقال : خَسرّه أي ازداد في معرفة خسرانه .

« **ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية** » . الكلام يدل أنهم اقترحوا عليه أن يأتيهم بمعجزة ، وبالأخص الناقة ، فقالوا : أخرج لنا ناقة عظيمة عشراء من الجبل أو الصخرة ، تدل على صدق دعواك الرسالة ، فصلى ركعتين ودعا الله ، فاضطربت الصخرة حتى خرجت منها الناقة العشراء الجوفاء العظيمة ، فكانت المواشي تشرد منها يوماً فتشرب جميع المياه ويسقيهم كلهم من لبنها ، واليوم الآخر تترك المياه فتستقي مواشيهم ، كما قال تعالى : « **قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم** »[1] . وقال تعالى : « **ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر** »[2] . وقال تعالى : « **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً** »[3] .

---

(١) الشعراء : ١٥٥ .　　(٢) القمر : ٢٨ .　　(٣) الاسراء : ٥٩ .

« **فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء** » أي هذه الآية التي اقترحتم إخراجها ووعدتم باتباعكم لي إن أنا أتيتكم بها ، وقد أخرجها الله لكم ، فاشكروا نعمه ولا تتعرضوا للناقة بأي نوع من أنواع الضرر ، لا بالعقر ولا بالضرب ، ولا بغيرهما ، بل اتركوها ترعى وتستقي من فضل الله عليها وعليكم وتدر عليكم الدر الكثير ، فإنكم إن تعرضتم لها بسوء فيأخذكم عذاب قريب .

قوله تعالى :

« **ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوي العزيز وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود** » .

قوله : « **ولا تمسوها بسوء** »* .

المخاطبون هم قبيلة ثمود ، قوم صالح ، والمضارع مجزوم بحذف النون لدخول لا الناهية عليه ، كما عقده ابن مالك في الألفية بقوله :

وحذفها للجزم والنصب سمه　　كلم تكوني لترومي مظلمْه

وقال في كون لا تأتي جازمة :

بلا ولام طالباً ضع جزماً　　في الفعل هكذا بلم ولما

والضمير المؤنث مفعول به لقوله : « **تمسوا** » وقوله : « **بسوء** » متعلق بالفعل .

---

* وليعلم أن محاضرة شيخنا المُفسر السادسة عشرة في ١٣٨٤/٧/٢٥هـ بدأت من هنا وقد غبت عنها ، وحاولت أن أكتب شيئاً عن بعض زملائي فلم أجد ما يستحق الكتابة ، لذلك حاولت أن أسد الفراغ بما تيسر لي من نقل ما تمكنت منه في تفسير هذه الآيات من قوله تعالى : « **ولا تمسوها بسوء** » إلى قوله تعالى : « **ألا بعد الثمود** » ، واستعنت بما حضرني من تفسير الشيخ في هذه السورة لآيات أخرى .

والمس كاللمس ، إلا أن اللمس قد يطلق على طلب الشيء وإن لم يوجد ، بخلاف المس فإنه يطلق على ما يكون معه إدراك بحاسة اللمس .

ويطلق المس على كل ما ينال الإنسان من أذى ، كما قال تعالى : « **وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياهُ** »(١) . وقال تعالى : « **ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم** »(٢) . وقال تعالى : « **وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه** »(٣) . كما قد يطلق على ما يناله من خير كما قال تعالى : « **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير** »(٤). والمعنى : لا تصيبوها .

والسُّوء بالضم اسم للضرر وسوء الحال ، وهو يشمل كل آفة وداء والمراد به هنا الاعتداء على الناقة بالعقر ، وسبب نهي نبي الله صالح عليه السلام قومه عن التعرض للناقة ، هو خوفه عليهم إذا تعرضوا لها ، وقد بعثها الله لهم آية على صدقه ، أن يكون ذلك سبباً في هلاكهم ، ويدل على ذلك قوله بعد النهي : « **فيأخذكم عذاب قريب** » . وقوله في آية أخرى : « **فيأخذكم عذاب أليم** »(٥) .

ولعل الداعي له إلى نهيهم عن التعرض لها مع أنهم لم يظهروا ما يدل على أنهم يريدون التعرض لها هو معرفة نبي الله صالح عليه السلام أن القوم متمردون مصرون على كفرهم ، وذلك قد يدفعهم إلى قتلها ، لأنها آية دالة على صدقه وحجة قائمة عليهم ، وهم خصوم له ولدعوته والخصم لا يحب ظهور حجة خصمه ، وهذا هو الذي حصل منهم كما سيأتي .

« **فيأخذكم عذاب قريب** » . الفاء واقعة في جواب الطلب الذي هو النهي ، والفعل بعدها منصوب بأن مضمرة ، وهذه الفاء تفيد السببية أي إن

---

(١) الاسراء : ٦٧ .
(٢) النور : ١٤ .
(٣) يونس : ١٢ .
(٤) الأنعام : ١٧ .
(٥) الأعراف : ٧٣ .

مستتموها بسوء تسبب على مسكم عذاب الله لكم ، وقد أشار ابن مالك إلى وجوب إضمار أن بعد الفاء الواقعة في جواب الطلب بقوله في الألفية :

وبعد فا جواب نفي أو طلب   محضين أن وسترها حتم نصب

واصل العذاب من عَذب الرجل إذا ترك المأكل والنوم ، فهو عاذب أو من العَذْب ، يقال : عذّبته أزلت عذْب حياته .

والمراد به هنا الإيجاع الشديد بما ينزله الله عليهم من عقابه ، وسيأتي بيان العذاب الذي أوقعه الله بهم . « **قريب** » أي قريب زمنه ، وكان بعد ثلاثة أيام من عقر الناقة « **فعقروها** » .

العُقْرُ يطلق ويراد به في أصل اللغة : الأصل ، يقال : عُقْر الحوض والدار أي أصلهما ، وأصبت عقره أي أصله ، وعقرت النخل قطعته ، وعقرت البعير قطعت قوائمه ، ونحرته ، وكلب عقور ، ضار يعقر وامرأة عاقر لا تلد ، كأنها تعقر ماء الفحل ، وسميت الخمر عُقاراً ، لأنها كالعاقر للعقل .

والمراد هنا قتلوها ، وأسند العقر إلى مجموع القبيلة ، مع أن القاتل واحد ، لرضاهم بقتلها وتواطؤهم عليه ، كما قال تعالى : « **فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر** »(١) . وقال تعالى : « **كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسُقياها فكذبوه فعقروها** »(٢) . وأشقاها هو قدار بن سالف الذي انتدبوه لعقرها ، فأسند العقر إلى القاتل وحده في سورة القمر ، لأنه المباشر ، وأسند إلى القبيلة كلها في سورة هود وفي سورة الأعراف أيضاً كما قال تعالى : « **فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم** »(٣) . لرضاهم بذلك واتفاقهم عليه .

« **فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب** » . أي لما خالفت ثمود أمر رسولها وعصته ولم تقبل نصحه وعقروا الناقة بعد تحذيره الشديد لهم ، قال لهم عليه السلام : « **تمتعوا** » .

---

(١) القمر : ٢٩ .   (٢) الشمس : ١١ ـــ ١٣ .   (٣) الأعراف : ٧٦ .

والْمُتُوع الامتداد والإرتفاع ، يُقال : مَتَع النهار إذا ارتفع ، هذا أصله في اللغة ، ومنه سمى المتاع متاعاً ، لأنه انتفاع ممتد الوقت وكل ما ينتفع به على وجه ما فهو متاع .

والمراد استمتعوا بكل ملاذكم في داركم ما بقى لكم من الوقت في هذه الدار وهي ثلاثة أيام ، وهذا تفسير لقوله تعالى : « **عذاب قريب** » وذكر المفسرون أن عقر الناقة كان يوم الأربعاء ، فانتظروا الخميس والجمعة والسبت ، ونزل بهم عذاب الله يوم الأحد .

وقوله : « **في داركم** » أي في بلادكم ، وتُسمى البلاد بالدار ، لأنه يدار فيها ، أي يتصرف ، يُقال : ديار بكر لبلادهم ، وقيل : في دار الدنيا .

« **ذلك وعد غير مكذوب** » .

الإشارة إلى الوعد بنزول العذاب بعد ثلاثة أيام ، المفهوم من الكلام أي ذلك الوعد الذي أخبرتكم به وعد صدق ، لا كذب فيه ، لأني إنما أخبركم عن الله تعالى الذي أخباره كلها صدق ، و « **مكذوب** » إمّا أنه مصدر جاء على زنة مفعول ، كالمجلود ، بمعنى الجلد والمفتون ونحوه ، ومعناه غير كذب ، بل هو صدق ، وإما على بابه اسم مفعول وفي الكلام تقدير أي غير مكذوب فيه .

قوله تعالى : « **فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوي العزيز** » .

لما هذه هي الرابطة ، واختلف فيها ، فقيل : هي حرف ، لعدم رجوع ضمير إليها ، وقيل إنها ظرف تضمنت معنى الشرط ، ومعناها حين .

والأمر واحد الأمور ، والمراد به العذاب ، والمعنى : ولما جاء شأننا بإهلاك قوم صالح ، وهم ثمود ، وقد فصل الله هذا الأمر في مواضع من كتابه ، من ذلك ما سيأتي قريباً هنا في قوله تعالى : « **وأخذ الذين ظلموا الصيحة** » . ومن ذلك قوله تعالى : « **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** »[1] . وقد جاء

---

(١) الأعراف : ٧٨ .

مبهماً في سورة الشعراء ، كما قال تعالى : « **فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية** »[1] . وكذلك في سورة القمر ، كما قال تعالى : « **فكيف كان عذابي ونذر** »[2] .

« **نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا** » .

أصل النجاء الانفصال من الشيء ،ومنه نجاة فلان ، والنجوة والنجاة المكان المرتفع المنفصل بارتفاعه عما حوله ، ومنه نجاه الأنبياء واتباعهم من العذاب الذي ينزله الله بأعدائهم ، فإنهم ينفصلون عن أعدائهم حين العذاب فيكونون في منجاة منه ، أي لما جاء العذاب الذي قضينا به على ثمود المكذبين لنبيهم ، خلصنا منه نبينا صالحاً ومن اتبعه وصدقه .

وسُنَّة الله تعالى مع أنبيائه وأتباعهم أنهم ينقسمون قسمين :

القسم الأول : من يأمرهم بالجهاد في سبيل الله ضد الطغاة الذين يصدون عن دعوتهم ، وهذا القسم يؤيده الله في المعركة ويهزم عدوه ، ويثبته في المعركة ، كما قال تعالى : « **وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وماضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين** »[3] .

وقال تعالى : « **ولما برزو لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وأتاه الله المُلك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين** »[4] .

وقال تعالى لنبينا محمد ﷺ وأصحابه : « **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين** »[5] .

وقال تعالى : « **لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم**

---

(١) الشعراء : ١٥٨ . (٢) القمر : ٣٠ . (٣) آل عمران : ١٤٦ .
(٤) البقرة : ٢٥٠ ، ٢٥١ . (٥) الأنفال : ٧ .

كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين »(١) .

وقال تعالى : « **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالو خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً** »(٢) .

وقال تعالى : « **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون** »(٣) .

القسم الثاني : هم الأنبياء الذين لم يؤمروا بقتال أعدائهم الكافرين بل أمروا بالصبر والصفح وهذا القسم يؤيده الله وينصره على أعدائه بإنزال العذاب المستأصل لقومه بعد أن يصروا على التكذيب والإيذاء وعدم الإستجابة كما هو الحال مع قوم نوح وهود وشعيب ولوط وصالح عليهم السلام لذلك قال تعالى هنا : « **فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا** » . أي تغشيناهم برحمتنا وسلمناهم مما نزل بقومهم بنعمتنا وفضلنا وقوله : « **ومن خزى يومئذ** » أي ونجيناهم من خزى يومئذ ، والخزى المراد به العار والهوان والذل والفضيحة النازلة على القوم بما ألحقه الله بهم من عذاب ، ولا خزى أعظم من خزى من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه .

فالواو في قوله :« **ومن خزى** » عاطفة على قوله : « **نجينا** » .

وقيل إن الواو زائدة ، والجار والمجرور بعدها متعلق بنجينا ومنع البصريون زيادة الواو ، ولا داعي لزيادتها ، بل هي عاطفة كما تقدم ، أي وكانت التنجية من خزى يومئذ .

وفي « **يومئذ** » قراءتان سبعيتان : الأولى بفتح يوم على أنه مبني لإضافته إلى إذ المبنية ، فاكتسب المضاف البناء من المضاف إليه ، وهو إذ المضافة إلى جملة ، وإلى ذلك أشار ابن مالك في الألفية بقوله :

---

(١) التوبة : ٢٥ ، ٢٦ . (٢) الأحزاب : ٢٥ ، ٢٦ . (٣) الصافات : ١٧١ — ١٧٣ .

وألزموا إضافة إلى الجمل حيث وإذ وإن ينون يحتمل
افراد إذ ، وما كإذ معنى كإذ أضف جوازاً نحو حين جانبذ

والقراءة الثانية بكسر الميم ، وكسرتها حركة إعراب على أصل أنه اسم معرب مضاف إليه .

وإذ في قوله تعالى : « **حينئذ** » مضافة إلى جملة دل عليها ما سبق ، أي ونجيناهم من فضيحة يوم إذ جاء أمرنا .

وقال بعضهم بجواز أن يكون المضاف إليه يوم القيامة ، بناء على أن تنجية صالح وقومه شاملة للأمرين : تنجيتهم من عذاب الدنيا وتنجيتهم من خزى عذاب الآخرة مثل قوله تعالى في قصة هود : « **ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ** » . فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة ، فكذلك هنا .

والذي يظهر هو الأول لعدم تقدم جملة فيها ذكر يوم القيامة .

« **إن ربك هو القوي العزيز** » . أي هو تعالى القادر على كل شيء الغالب القاهر الذي لا يغلبه أحد وهو الغالب والقاهر فوق عباده ، وناسب ذكر هذين الإسمين هنا لمناسبة قهره هؤلاء القوم الذين ظنوا أنهم قادرون على التمرد على الله ، وقوة الله وعزته لا يقدر أحد على الإفلات منهما ، بخلاف غيره من ملوك الأرض فإنهم مهما أوتوا من القوة يعجزون عن كثير من الأمور ، وقد يتغلب عليهم بعض رعاياهم .

« **وأخذ الذين ظلموا الصيحة** » . هذا هو أمر الله الذي نجى الله منه نبيه صالحاً ومن آمن به وأنزله بأعداء الله المكذبين ، والمراد بالصيحة صيحة الملك الذي أمره الله تعالى بها لإهلاكهم ، وفي الآية الأخرى ذكر الله تعالى أنه أهلكهم بالرجفة « **فأخذتهم الرجفة** »[1] .

والرجفة هي الاضطراب الشديد ، أي رجفت بهم الأرض واضطربت

(١) الأعراف : ٧٨ .

اضطراباً شديداً ، ولا منافاة بين الأمرين ، فالظاهر أن الملك لما صاح بهم اضطربت الأرض من تحتهم فأهلكهم الله بهما جميعاً ، وهذا يدل على ضعف المخلوق أمام قدرة الخالق سبحانه وتعالى ، والصيحة فاعل أخذ ، وحذفت تاء التأنيث لوجود مسوغات كل منها كاف في جواز حذفها :

المسوغ الأول : كون التأنيث مجازياً ، لأن الصيحة ليست مؤنثاً حقيقياً فالمؤنث الحقيقي إنما يكون في ذات الفرج ، كفاطمة وناقة ومريم .

المسوغ الثاني : وجود الفاصل بين الفعل الذي هو أخذو الفاعل الذي هو الصيحة بالمفعول وصلته وهو قوله : الذين ظلموا .

المسوغ الثالث : أن الصيحة بمعنى الصياح ، وهو مذكر ، ويجوز في اللغة مراعاة اللفظ ومراعاة المعنى .

وإلى المسوغين الأول والثاني أشار ابن مالك في الألفية بقوله :

وإنما تلـزم فعـل مضمــر ... متصل أو مفهم ذات حر
وقد يبيح الفصل ترك التاء في ... نحو أتى القاضي بنت الواقف
والحذف مع فصل بإلا فضلاً ... كما زكا إلا فتاة ابن العلا

« **فأصبحوا في ديارهم جاثمين** » .

أصبحوا مأخوذ من الصبح ، ويطلق على أول النهار ، وأطلق عليه الصبح لوجود الضوء الذي يفصل بين الليل والنهار ، ومنه سمى السراج مصباحاً لأنه يضيء للناظر طريقه في ظلمة الليل ، ويُقال أصبح إذا دخل في الصباح ، وأمسى إذا دخل في المساء ، وأضحى إذا دخل في وقت الضحى ومعنى الآية دخلوا في ذلك الصباح وقد هلكوا .

وديار جمع دار ، أصل يائها واو ، بدليل تصغير دار إلى دويرة . ومعنى جاثمين : ساقطين منكبين على وجوههم لاصقين بالأرض .

« **كأن لم يغنوا فيها** » .

كأن مخففة من الثقيلة ، أي كأنه أي الأمر والشأن ، وهي تعمل كعمل

الثقيلة إلا أن الغالب أن يكون اسمها ضمير شأن محذوف ، والجملة بعدها خبرها ، وقد أشار ابن مالك إلى عمل المخففة وحذف اسمها غالباً بقوله في الألفية :

وخففت كأن أيضاً فنوى منصوبها ، وثابتاً أيضاً روى

وقوله : « **لم يغنوا** » يُقال : غَنِيَ بالمكان يَغْنَى على وزن علم يعلم إذ أقام به ، ومصدره غَنىً على وزن فرح ، أي إن قوم صالح بعد أن نزل بهم عذاب الله صاروا بسبب هلاكهم وخراب ديارهم كأنهم لم يقيموا بها ولم يسكنوا بها ، وفي هذا تحذير شديد لمن يغتر بالدنيا وزخارفها من مال وقصور ، وأثاث وأنعام وغيرها ويصد عن دين الله ، فإن عاقبته شر عاقبة ، حيث يهلكه الله ويدمر دياره فيصبح أثراً بعد عين .

« **ألا إن ثمود كفروا ربهم** » .

ثمود منع من الصرف لعلتي التعريف والتأنيث ، لأن المراد به القبيلة وقريء ثموداً بالتنوين ، مُراعيً فيه معنى الحي ، أو جد القبيلة ، وهما قراءتان سبعيتان .

وألا أداة استفتاح وتنبيه لما بعدها من الكلام ، وكفر قد تتعدى بنفسها كما هنا ، وقد تتعدى بالباء ، فيقدر : كفروا بربهم ، وإذا قدر حرف الجر يكون ربهم منصوباً بنزع الخافض ، كما قال ابن مالك في الألفية :

وعد لازماً بحرف جر وإن حذف فالنصب للمجر

نقلاً ....

والكفر الستر والتغطية ، وسمى تكذيب الكفار لدعوة الرُسل كفراً لما فيه من ستر الحق وإخفائه .

ومن شواهد مجيء كفر بمعنى ستر وغطى قول لبيد بن ربيعة في معلقته :

يعلو طريقة متنها متواتر في ليلة كفر النجوم غمامها

« ألا بعداً لثمود » .

بعد اسم مصدر ، معناه الهلاك ، وهو على غير قياس ، وكان قياسه البَعَد على وزن الفرح ، كما قال ابن مالك في الألفية :

وفعِل اللازم بابه فَعَل كفرح وكجوى وكشلل

وهو مفعول مطلق لفعل محذوف ، أي أبعدهم الله بُعداً عن النجاة والسلامة في الدنيا ، وعن الرحمة والرضوان في الآخرة[1] .

(١) رجعت إلى تفسير الشيخ لبعض آيات هذه السورة مما هو مشابه وكذا كتابه أضواء البيان ، وكتب التفسير الآتية : « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » للإمام الطبري ، والجامع لأحكام القرآن « للإمام القرطبي ، وتفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ، والبحر المحيط لابن حيان ، والتفسير الكبير للفخر الرازي ، وتفسير فتح القدير للشوكاني ، وهذا ما استطعت كتابته لسد فراغ بعض ما فاتني من هذه المحاضرة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟
سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا
رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ
قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ
فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾
قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا
لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ
وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ
عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾
إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ
قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

٧ ـ تبشير الملائكة أبراهيم قبل أهلاكهم قوم لوط

قوله تعالى : « **ولقد جاءت رُسُلنا إبراهيم بالبُشرى** »[١] .

لم يُبين هنا ما المراد بهذه البُشرى التي جاءت بها رُسُل الملائكة إبراهيم ، ولكنه أشار بعد هذا إلى أنها البشارة بإسحاق ويعقوب في قوله : « **وامرأته ضاحكة فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** » . لأن البشارة بالذرية الطيبة شاملة للأم والأب ، كما يدل لذلك قوله : « **وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين** »[٢] . وقوله : « **لا تخف وبشروه بغلام عليم** »[٣] .

وقوله : « **قالوا لا توجل إنا نُبشرك بغلام عليم** »[٤] .

وقيل البشرى هي إخبارهم بأنهم أرسلوا لإهلاك قوم لوط ، وعليه فالآيات المبينة لها ، كقوله هنا في هذا السورة : « **قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم**

---

(١) الآية الأولى من هذه الآيات تابعة للمحاضرة التي فاتتني ، لذلك رجعت إلى كتاب أضواء البيان لأنقل منه نصاً ما يتعلق بها فيه .

(٢) الصافات : ١١٢ .　　(٣) الذاريات : ٢٨ .　　(٤) الحجر : ٥٣ .

لوط » . الآية ، وقوله : « **قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارة من طين »**[1] . وقوله : « **ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين »**[2] .

والظاهر القول الأول ، وهذه الآية الأخيرة تدل عليه لأن فيها التصريح بأن إخبارهم بإهلاك قوم لوط بعد مجيئهم بالبشرى ، لأنه مرتب عليه بأداة الشرط التي هي « **لما** » كما ترى .

قوله تعالى : « **فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة** » . الآية . ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن إبراهيم لما سلم على رسل الملائكة وكان يظنهم ضيوفاً من الآدميين أسرع إليهم بالإتيان بالقرى ، وهو لحم عجل حنيذ ـــ أي منضج بالنار ، وأنهم لما لم يأكلوا أوجس منهم خيفة ، فقالوا : لا تخف وأخبروه بخبرهم . وبين في الذاريات أنه راغ إلى أهله ـــ أي مال إليهم ـــ فجاء بذلك العجل ، وبين أنه سمين ، وأنه قربه إليهم ، وعرض عليهم الأكل برفق ، فقال لهم : « **ألا تأكلون** » وأنه أوجس منهم خيفة ، وذلك في قوله : « **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم فقال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة** » . **الآية**[3] .

تنبيـه :

يؤخذ من قصة إبراهيم مع ضيفه هؤلاء أشياء من آداب الضيافة :

منها : تعجيل القرى ، لقوله : « **فما لبث أن جاء بعجل حنيذ** » .

ومنها : كون القرى من أحسن ما عنده ، لأنهم ذكروا أن الذي عنده البقر ، وأطيبه لحماً الفتى السمين المنضج .

ومنها : تقريب الطعام إلى الضيف .

---

(١) الذاريات : ٣٢ ، ٣٣ .
(٢) العنكبوت : ٣١ .
(٣) الذاريات : ٢٤ ـــ ٢٨ .

ومنها : ملاطفته بالكلام بغاية الرفق ، كقوله : « **ألا تأكلون** »[١] .

قوله تعالى : « **فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة** » لما[٢] أداة لربط الشرط بالجزاء ، ولما من حيث هي ثلاثة أقسام :

الأول : أنها حرف نفي بلا خلاف ، كقوله تعالى : « **كلا لما يقض ما أمره** »[٣] .

الثاني : أنها حرف إثبات بلا خلاف ، ويُقال إنها لغة هذيل بن مدركة ، كقوله تعالى : « **إن كل نفس لما عليها حافظ** »[٤] .

الثالث : الرابطة ، وفيها مذهبان :

الأول : أنها حرف بدليل عدم عود الضمير إليها ، ومال إليه الأستاذ سيبويه .

الثاني : أنها اسم ، أي ظرف تضمن معنى الشرط ، ولا يلزم من عدم عود الضمير إليها أن لا تكون اسماً ، فهي بمعنى حين ، وتضمن الظروف معنى الشرط معروف ، كإذا .

ورأى ــ هنا ــ بصرية ، وأيدى مفعول لرأى ، والضمير في : « **أيديهم** » يعود إلى الرُسل الذين هم الملائكة .

« **لا تصل إليه** » أي لا يمدونها إلى العجل فتصل إليه ليأكلوا منه ، وهو عبارة عن عدم الأكل .

« **نكرهم** » يقال : نكره وأنكره بمعنى واحد ، أي تبين له أنه على خلاف ما يظن ، والعرب تقول : نكرت كذا وأنكرته إذا اشتبه وتبين خلاف ما يعرف ، وقد اجتمع اللغتان في بيت الأعشى المشهور :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت ... من الحوادث إلا الشيب والصلعا

---

(١) أضواء البيان (٣/٢٩ ــ ٣٠) .

(٢) من هنا بدأت المحاضرة السابعة عشرة في ١٣٨٤/٧/٢٧هـ .

(٣) عبس : ٢٣ .

(٤) الطارق : ٤ .

ويذكر أن الكسائي ادعى أن هذا البيت له ، وأنه هو الذي وضعه في قصيدة الأعشى ، والله أعلم .

« **وأوجس منهم خيفة** » . أوجس الأمر أحس به ، وكذلك توجس ، وتفسيره بأضمر من التفسير باللازم .

ومن شواهد مجيء أوجس بمعنى أحس ، قول يزيد بن معاوية حينما جاءه الكتاب بإخباره بمرض أبيه الذي مات فيه ، قال :

جاء البريد بقرطاس يخث به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعاً

« **خيفة** » مفعول به لأوجس .

« **قالوا لا تخف** » .

أصل وزن تخف : تفعل ، فهو تخوف ، فدخله الإعلال بالقلب والتسكين ، فقلبت عينه التي هي الواو الفا ، ثم لما سكن آخره للجزم حذفت الألف لالتقاء الساكنين ، كما قال ابن مالك في الإعلال بالقلب والتسكين :

لساكن صح انقل التحريك من ... ذي لين آت عين فعل كأبن

وهنا سؤال : لماذا قال الملائكة لإبراهيم عليهم السلام : « **لا تخف** » مع أنه لم يتقدم ما يدل على أنه خائف ــ لأن الإحساس بالخوف يكون في النفس ، وقد لا يظهر ــ ؟ والجواب أنه قد أخبرهم هو بذلك كما قال تعالى عنه في سورة الحجر : « **ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلامٍ عليم** »[1] .

قوله تعالى : « **إنا أرسلنا إلى قوم لوط** ».

كانوا يزعمون من قبل أن الضيف إذا لم يأكل فلابد أن يكون مضمراً أمر سوء ، فالملائكة طمأنت إبراهيم بعد أن قالوا له : « **لا تخف** » بأنهم رُسل الله ، أي أرسلنا الله تعالى إلى قوم لوط لنهلكهم وكان إبراهيم عليه السلام في فلسطين ،

(١) الحجر : ٥١ ــ ٥٣ .

وقرية لوط في البحر الميت من الأردن ، وهي الآن مغمورة وكان لوط ابن أخيه كما قيل ، وقيل ابن عمه .

« **وامرأته قائمة** » . أي والحال أن امرأته قائمة ، وهي سارة ، قيل بنت عمه ، وقيل بنت الكلب[1] نمرود ، آمنت فتزوجها إبراهيم عليه السلام وقد هاجر من سواد العراق إلى الشام ، وكان إبراهيم هو الذي بنى دمشق ، وكانت قائمة تساعده في الخدمة .

« **فضحكت** » التحقيق أن الضحك هو الضحك المعروف ، وليس صحيحاً قول من يقول : إن المراد به الحيض ، وعلل بأنه يؤذن بالحمل والعرب قد تسمى الضحك حيضاً ، كما قال الشاعر :

وإني لآتي العرس عند طهورها   وأهجرها يوماً إذا تك ضاحكة

« **فبشرناها باسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** » .

ذكر الله هنا أن البشارة لسارة ، وذكر في محل آخر أن المبشر هو إبراهيم فكيف ذلك مع أن القصة واحدة ؟

والجواب : أن وجود الولد وحصول السرور به مشترك بينهما فلا منافاة بين أن تبشر به الأم تارة ويبشر الأب به أخرى ، لأنه في كلا الأمرين بشرى لهما .

وفي هذه الآية دليل على أن الذبيح إنما هو إسماعيل عليه السلام ، لا إسحاق ، لأن الله أخبر إبراهيم عليه السلام بالبشرى بإسحاق وأنه يعيش إلى أن يولد له يعقوب ، وهذا أحد موضعين دل فيهما القرآن دلالة لا لبس فيها أن الذبيح هو إسماعيل .

والموضع الثاني : في سورة الصافات ، بين فيه بياناً شافياً أن الذبيح هو إسماعيل ، فإنه بعد أن ذكر أنه أمره بذبح ولده الذي بلغ معه السعي ، وأنه فداه ، ذكر بعد ذلك أنه بشره بإسحاق ، أي بأنه يولد له إسحاق ، ولو كان موجوداً من قبل ، لما حصلت البشرى قال تعالى : « **فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه**

(١) كانت هذه العبارة تجري على لسان الشيخ رحمه الله عندما يذكر أحداً من أعداء الله .

السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين »[١] .

وفي « **يعقوب** » قراءتان سبعيتان : الرفع والنصب ، وفي النصب وجهان :

الأول : أنه منصوب بفعل مقدر دل عليه المقام ، أي ووهبنا لها يعقوب .

الثاني : أنه معطوف على محل إسحاق ، لأن إسحاق وإن كان مجروراً فمحله النصب[٢]، والوجه الأول من وجهي النصب هو الذي عقده ابن مالك بقوله في الواو في حروف العطف في الألفية :

.... وهي انفردت ....
بعطف عامل مزال قد بقي معموله دفعاً لوهم اتقى

وبعضهم يجيز فيه أن يكون مجروراً على أنه معطوف على إسحاق ويقول : إن الفصل لا يمنع العطف ، وهو كقول الشاعر :

أبو جنش يؤرقني وطلق وعمار وأونة أثالا

فالفتحة في يقعوب على هذا الوجه قامت مقام الكسرة ، لأنه لا ينصرف . أما قراءة الرفع فعلى أنه مبتدأ خبره الجار والمجرور قبله وفيه أوجه أخرى لا داعي لذكرها .

« قالت يا ويلتي ءألد وأنا عجوز وهذا بعلِي شيخاً » .

من عادة النساء إذا تعجبن من شيء جئن بكلام يدل على مرادهن من الاستبعاد ونحوه ، وأصل ألف ويلتى ياء المتكلم ، فقلبت ألفا وذلك جائز وكثير ، والويلة

(١) الصافات : ١٠١ ــ ١١٢ .

(٢) راجع جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧٥/١٢) للإمام ابن جرير الطبري ، فقد حصل عندي خطأ في النقل عن الشيخ في هذا الوجه ، وصححته من المصدر المذكور .

الهلكة ، أي يا هلكتي احضري في هذا الوقت ، وهو كناية عن التعجب ، والاستفهام للاستبعاد والتعجب ، وليس للإنكار ، بدليل قوله بعد ذلك : « **أتعجبين من أمر الله** » ، وقد بين الله تعالى في موضع آخر أنها مع هذا التعجب لطمت نفسها ، كما هي عادة النساء ـــ أيضاً في مثل ذلك ـــ كما قال تعالى : « **فأقبلت امرأته في صَرَّةٍ فصكت وجهها وقالت عجوزعقيم** »(١) .

وجملة : « **وأنا عجوز** » حالية ، وكان تعجبها من ذلك لأمرين :

الأول : أنها عجوز ، كما في هذه الآية .

الثانية : أنها كانت عقيماً ، كما في آية الذاريات السابقة .

والعجوز كبيرة السن .

« **وهذا بعلي شيخاً** » وهذا سبب ثالث للاستبعاد والتعجب ، وهو أن زوجها كان شيخاً لا يولد لمثله عادة ، والبعل الزوج ، كما قال تعالى : « **وبعولتهن أحق بردهن** »(٢) . وشيخاً حال ، والشيخ الشائب ، وتحديد بعض المفسرين سن إبراهيم عليه السلام بأنها تسعون أو زيادة أو دون ذلك كله من الإسرائيليات ، لا دليل عليه .

« **إن هذا لشيء عجيب** »(٣) . أي إن ولادتي بالولد المبشر به مع كبر سني وعقمي في حال شبابي ، وكبر زوجي لأمر عجيب ، فإنه مخالف للمألوف المعتاد.

« **قالوا أتعجبين من أمر الله** » . لما عجبت من أن ترزق ولداً وهي عجوز عقيم مع كبر زوجها ، خاطبها الملائكة يخبرونها ويذكرونها بقدرة الله على كل شيء ، وهذا المبشر به يسير ليس مما يتعجب منه مع قدرة الله ، وقد قال تعالى في قصة أصحاب الكهف : « **أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً** »(٤) . وقال تعالى لمريم حينما استبعدت أن تولد بدون زوج : « **قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس** »(٥) .

---

(١) الذاريات : ٢٩ . (٢) البقرة : ٢٢٨ .

(٣) من هنا بدأت المحاضرة الثامنة عشرة في ١٣٨٤/٧/٢٩هـ . (٤) الكهف : ٩ . (٥) مريم : ٢١ .

وقال تعالى لزكريا عند ما استبعد أن يكون .. له ولد من امرأة عاقر مع كبر سنه هو : « **قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً** »(١) . وقال : « **قال رب أنى يكون لي غلامٌ وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء** »(٢) .

والأمر واحد الأمور ، وهو كونها تلد وهي عجوز عقيم وزوجها شيخ كبير ، لا يولد لمثلهما عادة .

« **رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد** » .

هذه تحية من الملائكة على أهل بيت إبراهيم عليه السلام ، ومن أجل هذه التحية علم الرسول ﷺ أصحابه إياها ، حينما سألوه عن كيفية الصلاة عليه ، فقالوا : عرفنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلي عليك ؟ فقال : « قولوا اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد .. » الحديث(٣) .

والرحمة صفة من صفات الله تعالى .. لائقة بجلاله ، يرحم بها عباده ، والبركات جمع بركة ، وهي شاملة للخيرات الدنيوية والأخروية ، و « **أهل** » منصوب على الاختصاص .

و « **حميد** » بمعنى محمود ، وهو الشيء الموجب للثناء الجميل من حيث اتصافه تعالى بصفات الكمال ، ومن حيث إنه مسد إلى عبيده إحسانه ونعمه فيستحق الحمد من الجهتين .

و « **مجيد** » من المجد ، وهو العلو والرفعة والشرف .

فلما ذهب عن إبراهيم الروع سبق الكلام على « **لما** » والروع الخوف من

(١) مريم : ٩ . (٢) آل عمران : ٤٠ .

(٣) ونص الحديث عن كعب بن عجرة رضي الله عنه ، قيل : يا رسول الله ، أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف الصلاة عليك ؟ ، قال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » . البخاري (٢٧/٦) في باب قوله : « **إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً** » . الأحزاب ومسلم (٣٠٥/١) .

راعه يروعه روعاً إذا أخافه ، وهو المراد بالخيفة السابقة في قوله تعالى : « **وأوجس منهم خيفة** » .

« **وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط** » أي جاءته البشرى بالولد .

« **يجادلنا في قوم لوط** » أي لما اطمأن إبراهيم عليه السلام بذهاب الخوف عنه وبسروره بالبشرى التي جاءته شرع يجادلنا في قوم لوط ، وبعض النحويين استشهد بهذه الآية على أن جواب لما قد يأتي فعلاً مضارعاً ، ولا يشترط أن يكون ماضياً ، وإن كان ذلك هو الأغلب فيه ، لأن جوابها هنا هو « **يجادلنا** » والذين لا يجوزون ذلك ، يقولون : إن الجواب محذوف ، والتقدير : شرع أو طفق .. إلخ ، وعلى القول الأول يكون الإتيان بالمضارع استحضاراً للحال الماضية ، وإسناد الجدال إلى الله تعالى مع أن وقوعه كان مع رسله : « الملائكة » بسبب أنهم إنما ذهبوا بأمره وهم مقربون منه ، فمن عارضهم في شيء فقد عارضه هو تعالى وقد أشير إلى مجادلة إبراهيم هذه في قوله تعالى عن إبراهيم : « **قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله** » **الآية**[1] .

فالله تعالى أمر الملائكة بتدمير قوم لوط ، وإبراهيم عليه السلام يذكر لهم أن هناك مانعاً من تدميرهم ، وهو كون لوط ومن معه من المؤمنين فيها ، ويذكر من مجادلته لهم ، أنه قال لهم : أرأيتم لو كان فيها خمسون مؤمنون أتدمرونهم كلهم ؟ قالوا : لا ، قال : فأربعون ؟ قالوا : لا ، قال : فعشرون ؟ قالوا : لا ، قال : فعشرة ؟ قالوا : لا ، قال : فلوط ؟ قالوا : لا ، وقد أجابوه بقولهم : « **نحن أعلم بمن فيها** » ثم قالوا : « **لننجينه وأهله** » .

والمجادلة المخاصمة .

« **إن إبراهيم لحليم أواه منيب** » .

لما ذكر في القصة ما مضى قبل هذا مما قد يوهم أن هناك شيئاً يمس جانب إبراهيم عليه السلام ، مدحه الله وأثنى عليه مباشرة أنه ليس هناك ما يقتضى الذم له ، بل إنه يستحق المدح والثناء .

(١) العنكبوت : ٣٢ .

واختلف في تفسير الأواه على أقوال كثيرة :

أظهرها أن المراد به كثير التضرع والخضوع والخشوع ، مشتق من قولهم : « **أوّه أوّه** » فكأنه تأسف على ما مضى من المجادلة .

و « **الحليم** » من الحلم ، وهو العقل الراجح الذي يحمل صاحبه على الأناة والتأني في الأمور وعدم العجلة التي تقتضي وضع الشيء في غير موضعه ، وهو ــ أي الحلم ــ أكمل من العقل ، لأن الحلم عقل خاص .

مثال يوضح قدر الحلم :

كان قيس بن عاصم جالساً يتحدث مع قومه ، وإذا القوم يجيئون باثنين : أحدهما مقتول ، والآخر مكتوف ، الأول ابنه والثاني ابن أخيه ، فلم يرعه ذلك ، بل استمر يتحدث مع قومه على عادته حتى أكمل حديثه ، ثم التفت إلى القاتل ، فقال : بئس ما فعلت يا ابن أخي ، ثم أمر بحل الكتاف عنه ، وأمر بمائة ناقة من عنده دية القتيل ، ثم قال أبياتاً من الشعر في ذلك(1) .

فالحليم هو ثابت العقل راجحه كامل الرزانة ، لا تزعزعه الحوادث حتى يضع الأمور في غير موضعها ، (وذكر فضيلة شيخنا المفسر المحاورة المشهورة بين الحلم والعقل) :

حلم الحليم وعقل العاقل اختلفا ... (من ذا الذي منهما قد أحرز الشرفا
فالعقل قال أنا أحرزت غايته ... لأنني بي رب الناس قد عرفا
فأفصح الحلم إفصاحاً وقال له ... بأيّنا الله في تنزيله اتصَفا

---

(1) لم أتمكن من كتابة ذلك الشعر في وقت الدرس ، وقد رجعت إلى كتب الأدب باحثاً عن القصة ، فوجدتها في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه (٢/ ٢٧٧) . وهذا نص الأبيات المشار إليها :

إني امرؤ لا شائن حسبي ... دَنَسٌ يُهَجّنه ولا أفْنُ
من مِنْقرٍ في بيت مكرمة ... والغصن ينبَت حوله الغصن
خطباءِ حين يقول قائلهم ... بيض الوجوه أعفة لسن
لا يَفْطنون لعيب جارهم ... وهم لحفظ جواره فطن

فبان للعقل أن الحلم سيده فقبل العقل رأس الحلم وانصرفا)[1]

و « **المنيب** » من الإنابة ، وهي الرجوع إلى الله مما يقع ، والعتبى ، فهو عليه السلام حليم ، خاضع لربه ، رجاع إليه ، كثير التوبة .

« **يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك** » .

هذا محكى قول محذوف ، أي قال له الملائكة : يا إبراهيم اعرض .. أي اترك هذا الشأن ، فنحن عالمون بما نريد فعله من عند الله ، كما سبق أنهم قالوا له : « **نحن أعلم بمن فيها** » ، فهو نهى له عن المجادلة السابقة ، لأنه يجادل في شيء قد قدره الله ، فلابد من وقوعه ، ولهذا قال تعالى : « **وإنهم آتيهم عذاب غير مردود** » أي لا مرد له فهو مهلكهم ومستأصلهم كما وضح هذا المعنى بالتفصيل في سورة العنكبوت » .

(١) ادركت مع شيخنا الشطر الأول من هذه الأبيات ، واكملت ما بقى بين المعكوفين عن زميلي في الدراسة على الشيخ : الشيخ حسين بن عبد الرحمن الشنقيطي عندما سألته فأملاها على من حفظه في المسجد النبوي يوم الجمعة الموافق ١٤٠٥/٥/١١ .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَلَمَّا
جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا
يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ
فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ
٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ
٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠ قَالُواْ
يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ
مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا
مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١
فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا
حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ
وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣

٨ ـ أجرام قوم لوط بمحاولة الاعتداء على ضيفه الملائكة وسوء عاقبتهم

((**ولما جاءت رسلنا لوطا سيئ بهم وضاق بهم ذرعا**)) .

في الكلام حذف دل عليه المقام ، أي لما ذهبوا من عند إبراهيم إلى لوط عليهما السلام ، لينفذوا ما أمروا به ، ورأى صورهم مرداً شباباً حساناً ، حزن حزناً شديداً ، لأنه ظنهم ضيوفاً من البشر ، كما ظنهم قبله إبراهيم عليه السلام ، وقد مضى أن هذا يدل على عدم علم الأنبياء الغيب إلا ما علمهم الله تعالى إياه ، فإن لوطاً لو كان يعلم أنهم رسل الله لما قال تلك الكلمة المحزنة الدالة على أسفه الشديد على ضيفه خوفاً عليهم من قومه ، حيث قال : « **لو أن لي بكم قوة** » ، ولهذا قال تعالى : « **سيء بهم** » أصل وزنه فعل على وزن ضرب ، وأصل مادته : « **س و ء** » والقاعدة أن الأجوف ، واو يا ، كما هنا ، أو يائياً تقلب ضمة فائه كسرة إذا بنى للمجهول ، وتقلب عينه إذا كانت واواً ياء ، لمناسبة الكسرة ، كما هنا ، والفاعل هنا يقدر هكذا :

ساءه الله بمجيئهم ، أو أساءه مجيئهم ، ووجه المساءة أنه خشى عليهم من قومه الكفرة أن يفضحوه في ضيفه بفعل الفاحشة فيهم .

والذرع اختلف في أصله ، فقيل هو الصدر ، أي ضاق بهم صدره ، وقيل مشتق من ذرع البعير الأرض يذرعها ، فهو كناية عن العجز ، والمرجع شيء واحد ، وهو أنه ضاق صدره وضعفت طاقته عن رد قومه عن ضيفه ، و « **ذرعاً** » تمييز محول عن الفاعل .

« **وقال هذا يوم عصيب** » أي شديد في الشر ، فيه من الأمور ما يشدده ويصعِّبه ، وإنما كان شديداً على لوط عليه السلام ، لأنه خشي أن تنتهك فيه حرمة ضيفه من قبل قومه الكفرة .

ويزعم بعض المفسرين أن زوجه كانت توقد النار ، ليكون الدخان علامة للكفار أن عند لوط عليه السلام ضيفاً ليأتوا من أجل فعل الفاحشة فيهم .

« **وجاءه قومه يهرعون إليه** » . أي يسرعون غاية الإسراع ، وقيل : إسراع دون الغاية ، كالهرولة ، قيل : ولا يستعمل يهرعون إلا في الإسراع مع رعدة ، وسبب إسراعهم فرحهم بضيف لوط عليه السلام ، يريدون أن يرتكبوا فيهم الفاحشة .

وهذا من أغرب ما ينكره البشر ، إذ هل يتصور أن أولئك المجرمين كانوا كأنما يساقون سوقاً زاعمين أنهم سيفعلون الفاحشة في جبريل أمين الوحي ومن معه من رُسُل ربه ؟

و « **يهرعون** » بالبناء للمفعول ، ومعناه الفاعل ، والإسراع كان كما سبق فرحاً بالضيف ، كما قال تعالى في آية أخرى : « **وجاء أهل المدينة يستبشرون** »(١) .

ومن شواهد مجيء يهرعون قول الشاعر :

فجاؤا يهرعون وهم أسارى نقودهم على رغم الأنوف

« **ومِن قبل كانوا يعملون السيئات** » . أي ومن قبل مجيء رُسُل الله من الملائكة ، أو من قبل لوط عليه السلام كانوا يعملون الفعلات السيئات ، وهي

(١) الحجر : ٦٧ .

فاحشة اللواط ، جمع[1] سيئة ، فالسيئات الخصلات القبيحات ، وإنما سُميت سيئة لأنها تسوء صاحبها ، وميزانها فيعلة ، فهي في الأصل سيوءه ، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون ، فقلبت الواو ياء على حد قول ابن مالك في الألفية :

إن يسكن السابق من واو ويا واتصلا ومن عروض عريا
فياء الواو اقلبن مدغما وشذ مُعْطى غير ما قد رسما

وقد كان قوم لوط يتجاهرون بهذه الفاحشة حتى في النوادي العامة ، كما قال الله تعالى عنهم : « **أإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر** »[2] .

وقد ذكر الله تعالى أن قوم لوط كانوا أول من ارتكب هذه الفعلة القبيحة ، كما قال جل وعلا : « **ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين** »[3] .

« **قال يا قوم هؤلاء بناتي** » . أي قال نبي الله لوط عليه السلام مدافعاً عن ضيفه ، « **هؤلاء** » بالمد لغة الحجازيين ، وبها نزل القرآن ، ولغة تميم القصر ، ولغة المد أولى ، وإليها أشار ابن مالك في الخلاصة :

وبأولى أشر لجمع مطلقاً والمد أولى ....

وهو صالح لأن يشار به إلى جماعة الإناث ، كما هنا ، كما يشار به إلى جماعة الذكور .

واختلف في هؤلاء البنات على أقوال :

الأول : أنهن بناته لصلبه ، كما هو ظاهر القرآن ، قيل : كن ثلاثاً وقيل اثنتين ، ويزعم بعض المفسرين أنه منعهن من قبل ، وإنما أراد الافتداء بهن عن ضيفه ، قيل : وكان يريد أن يزوجهن اثنين أو ثلاثة من الرؤساء ، ليكفوا عن

(١) من هنا بدأت المحاضرة التاسعة عشرة في ١٣٨٤/٨/٢هـ .
(٢) العنكبوت : ٢٩ . (٣) الأعراف : ٨٠ .

ضيفه شر باقيهم ، وعلى هذا الوجه يكون تزويج المسلمة بالكافر جائزاً في شريعة لوط ، كما كان بنات الرسول ﷺ في أول الإسلام تحت كفار .

الثاني : أنهن لم يكن بناته حقيقة ، وإنما المراد نساء قومه مطلقاً ، لأن نبي كل قوم أب لهم ، كما قال تعالى : « **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم** »(١) .

ويقرب هذا المعنى أن قومه كانوا كثيرين جداً ، فلا يمكن تزويج كل من يريد فعل الفاحشة بضيفه من بنات صلبه ، لقلة عددهن ، ويُجاب عن هذا بما سبق من أنه يريد تزويج رؤسائهم الثلاثة . وظاهر إضافتهن إليه يُقرب المعنى الأول ، ولأنه ليس أباً للكافرات .

القول الثالث : وهو متفرع عن القول الأول أنه لم يرد حقيقة تزويجهم ببناته ، وإنما هو من باب المدافعة ، وهذا خلاف ظاهر القرآن .

« **هن أطهر لكم** » . أي أنزه وأنقى .

« **فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد** » . أي اجعلوا بينكم وبين الله وقاية بامتثال أمره واجتناب نهيه بأن توحدوه ولا تعبدوا غيره ، وتطيعوه فلا ترتكبوا ما نهى عنه من المعاصي وبخاصة تلك الفاحشة التي انطبعتم عليها ، يُقال خزى خزاية ، إذا استحيا من عار أو فضيحة ، وهان أو ذل ، قال الشاعر :

خزاية أدركته بعد جولته ... من جانب الحبل مخلوطاً بها الغضب

وبعضهم يقول : خزى يخزى خزياً إذا افتضح ، قال الشاعر :

وإني لا أخزى إذا قيل مملق ... سخي وأخزى أن يُقال بخيل

أي لا تحملو عليّ من العار ما يجعلني أخجل وأُهان واستحي مما تفعلون من العار في ضيفي ، أي في شأنه ، وإنما قال : « **في ضيفي** » لأن إذلال الضيف إذلال للمضيف ، كما أن إذلال الجار إذلال للمجير ، قال الشاعر :

---

(١) الأحزاب : ٦ .

.... وظُلم الجار ظُلم للمجير

ولم يأت لفظ ضيف في القرآن إلا بالإفراد ، فيطلق على المثنى والجمع بلفظ المُفرد ، لأنه ــ في الأصل ــ مصدر ، والمصدر ينعت به المُفرد والمثنى والجمع بلفظ واحد مذكر فقط ، كما قال ابن مالك في الخلاصة :

ونعتوا بمصدر كثيراً فالتزموا الإفراد والتذكيرا

وربما جمع ، وهو مشهور في اللغة ، كما قال الشاعر :

أعددت للأضياف كلباً ضارياً عندي وفضل هراوة لا يهزل

وجمعه حينئذ اعتباراً بالوصفية وتناسي المصدرية .

والرشد ضد السفاهة ، والسفاهة خفة الحُلم والطيش ، والرُشد رزانة الحُلم والتمييز به بين الحق والباطل ، فالرشيد هو المتزن العقل المتجنب للسفاهة ، أي أليس يوجد فيكم ذو عقل متزن غير سفيه ، فيكفكم عن هذا الفعل القبيح ؟!

« **قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق** » .

المراد بالحق هنا الحاجة والشهوة ، أي لا حاجة لنا في بناتك لأن من احتاج شيئاً فقد كان له فيه بعض الحق ، ولذا أطلق عليه حق . وقيل المراد ليس لنا فيهن حق لأنه لا يتزوجهن الكافر ، ونحن كفار ، والأول أظهر .

« **وإنك لتعلم ما نُريد** » . أي عندك يقين بالذي نريده وهو فعل اللواط ، فكيف تدافعنا عنه مع علمك به ؟ .

« **قال لو أن لي بكم قوة** » . لو هنا ليست الشرطية ، بل هي أداة تمن ، وقد تقرر في فن المعاني أن لو تأتي أداة تمن والدليل على ذلك نصب الفعل المضارع بعدها بعد الفاء ، كما في قوله تعالى : « **وقال الذين اتّبعوا لو أن لناكرة فتبرأ منهم** »[1] . والمضارع ينصب بعد التمنى ، كقوله تعالى : « **يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً** »[2] .

---

(١) البقرة : ١٦٧ . (٢) النساء : ٧٣ .

وقيل إنها شرطية ، فهي معلقة للشرط بالجزاء ، والجزاء محذوف والتقدير : لدافعت ، وهذا ، وإن كان جائزاً ، أي حذف جواب الشرطية ، غير أن الأولى هنا ما ذكرنا .

ومن أمثلة حذف جواب « **لو** » الشرطية قوله تعالى : « **كلا لو تعلمون علم اليقين** »[1] . أي لما ألهاكم التكاثر .

وبالوجه الأول من الوجهين يتضح الجواب عن سؤال نحوي ، وهو لماذا جاءت أنّ بعد لو ، مع أن الأصل أن يليها الفعل ؟ فإنها ليست شرطية حتى يرد السؤال .

والجواب على الوجه الثاني ، أن أنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر فاعل فعل محذوف دخلت عليه لو ، أي لو ثبتت لي أو وجدت قوة .

والقوة هنا مصدر أطلق على الذات ، أي ما أتقوى به والأظهر بقاؤه على معنـــاه .

« **أو آوي إلى ركن شديد** » . الركن ما يعتمد عليه ويستند ، من قوة وجيش وعصبة[2] .

« **قالوا يا لوط إنا رُسُل ربك لن يصلوا إليك** » . طمأنه الملائكة عندما تمنى أن يأوي إلى ركن شديد يكفيه شر قومه أن ما تمناه حاصل ، وهو أن ضيفه هم رُسُل الله ، والله تعالى ناصره وناصرهم على أولئك الأشرار بما أقدرهم عليه من قوة ، ويذكر أن لوطاً قال ذلك عندما دافعهم حتى تعب منهم فاقتحموا عليه الباب ، وعند ذلك لطمهم جبريل عليه السلام بريشة من جناحه حتى أعماهم ، يذكر هذا عند قوله تعالى : « **فطمسنا أعينهم** »[3] . وهذا جزاء استبشارهم

---

(١) التكاثر : ٥ .

(٢) قال ابن كثير ، رحمه الله : « لو أن لي بكم قوة » .. أي لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي ، ولهذا ورد في الحديث من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « رحمة الله على لوط ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد ــ يعني الله عز وجل ــ فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه » . تفسير القرآن العظيم (٤٥٣/٢ ــ ٤٥٤) .

(٣) القمر : ٣٧ .

وفرحهم وإتيانهم لفعل الفاحشة مسرعين ، والجزاء من جنس العمل ، **فقوله** تعالى : « **إنا رُسُل ربك** » أي فأْمن فإنا مهلكوهم ، ولهذا قال تعالى : « **لن يصلوا إليك** » .

« **فأسر بأهلك** » قريء بقطع الهمزة عند الأكثر ، وقرأ نافع وابن كثير بالوصل ، وهما قراءتان سبعيتان ، كما أنهما لغتان فصيحتان ، قال تعالى : « **والليل إذا يسر** »[1] . وقال تعالى : « **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً** »[2] .

وقال الشاعر :

حتىّ النضيرة ربة الخدر   أسرت إليك ولم تكن تسري

وقال الآخر :

أسرت إليه من الجوزاء سارية   ....

« **بقطع من الليل** » القطع الطائفة من الليل ، وقيل من آخره ، بدليل قوله من الليل ، مع أن القطع لا يكون إلا من الليل ، ويدل على ذلك قوله تعالى : « **إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحرٍ** »[3] . وقد جرت سُنَّة الله أنه إذا أراد إهلاك قوم نبي عصوه أن يأمره بالخروج والانفصال عنهم ، لينجيهُ ويستأصلهم بالهلاك .

وقوله : « **بأهلك** » يفهم منه أنه لم ينج معه إلا أهله ، وهم الذين آمنوا به ، وقد صرح الله تعالى أنه لم يؤمن إلا أهل بيت واحد فقط من قومه ، كما قال تعالى : « **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** »[4] .

« **ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم** » . أي لا ينظر أحد منكم وراء ظهره ، وقد بين تعالى في موضع آخر أنه أمر لوطاً أن يكون وراء قومه كما قال تعالى : « **فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون** »[5] . أي لا يلتفت أحدكم وراء

---

(١) الفجر : ٤ .   (٢) الأسراء : ١ .   (٣) القمر : ٣٤ .
(٤) الذاريات : ٣٥ ، ٣٦ .   (٥) الحجر : ٦٥ .

ظهره ، لأن العذاب نازل بأعدائكم ، فلا تروه أو تسمعوه حين نزوله بهم فترحموهم من أجل ذلك .

« **إلا امرأتك** » فيه قراءتان سبعيتان : الأولى النصب وهي قراءة الجمهور ، ولا إشكال على هذه القراءة فهو استثناء تام متصل منصوب ، والمستثنى منه « **أهلك** » في قوله تعالى : « **فأسر بأهلك** » . أي إلا امرأتك فلا تسر بها ، لأنها من الهالكين .

القراءة الثانية برفع : « **امرأتك** » بدلاً من : « **أحد** » فعلى هذه القراءة يسري بها ، وعلى الأولى لا يسري بها ، وهنا يرد الإشكال ، وقد فسر بعضهم ــ من أجل هذا الإشكال ــ الالتفات بالتخلف ، وهو غير صحيح والأقرب في وجه الجمع أن يُقال : أن المدار على القراءتين واحد ، وهو وجود الهلاك مطلقاً ، والمقصود من الإسراء النجاة ، والذي لم ينج ، سواء سرى أو لم يسر ، الأمر في حقه سواء لأنه هالك ، وهي هلكت بالفعل ، فالمسير وعدمه سواء بالنسبة لها ، فكأنها لم تسر وإن سرت ، لأن النتيجة واحدة . وعلى قراءة الرفع فكأن النهي ليس موجهاً إليها ، بل هي مستثناة منه .

« **إنه مصيبها ما أصابهم** » فلا حاجة إلى أن تسري بها ، وإن سرت فلا ينفعها ذلك ، وإبهام العذاب المدلول عليه بـ « **ما** » في قوله : « **ما أصابهم** » تنويه بأن الهلاك عظيم .

« **إن موعدهم الصبح** » الموعد هنا اسم زمان ، وهو يأتي للزمان ــ كما هنا ــ ويأتي اسم مكان ، كقوله تعالى : « **وإن جهنم لموعدهم أجمعين** » . والمراد هنا زمان موعدهم بالهلاك .

« **أليس الصبح بقريب** » . يذكر أن لوطاً عليه السلام عندما وعده الملائكة بهلاك قومه بقولهم : « **إن موعدهم الصبح** » استعجل نزول العذاب ، فقال لهم : الآن الآن ، فقالوا له : « **أليس الصبح بقريب** » ، وهو استفهام تقريري يحملونه به إلى أن يقر فيقول : بلى هو قريب ، وبين تعالى في آية أُخرى

أنه نزل بهم وقت الإشراق ، كماقال تعالى : « **فأخذتهم الصيحة مشرقين** »[1] . وهو وقت الإصباح الذي وعد الله به نبيه لوطاً عليه السلام ، كما قال تعالى : « **وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين** »[2] . وقد وقع عليهم عذاب الله من الصيحة والحجارة والقلب ، والصواب أن مطر الحجارة نزل على قريتهم التي كانت العاصمة ، وهي التي أتى إليها الملائكة ، قال تعالى : « **ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء** »[3] .

« **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها** » . أي أمرنا الذي هو هلاكهم في الوقت المعين ، يفهم من هذه الآية أن سافل القرية صار العالي ، وأن عاليها صار السافل ، ولهذا سُميت بالمؤتفكات ومنه قيل للقذف إفك ، لأنه قلب للخبر الصحيح إلى الخبر الباطل .

ويذكر أن العاصمة التي كان بها لوط تُسمى سدوم أو سلوم ، وبجانبها قُرى تابعة لها ، وأن جبريل جعلها على ريشة من جناحه ، ثم قلبها بعد أن قلعها .

« **وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود** » يستعمل أمطر الرباعي في اللغة أكثر من مطر الثلاثي في الخير والشر معاً ، والذين زعموا أن أمطر تستعمل في الشر خاصة ، ومطر في الخير لم يصيبوا .

والحجارة جمع حجر ، وجمع الفْعَل على فِعَالة قليل .

واختلف في « **سجيل** » ، فقيل : الأصل أنه عربي ، وقيل : بل أصله عجمي ثم عرب ، والذي يدل عليه القرآن أنه طين تجمد حتى تحجر ، وفيه من حرارة النار شيء هائل جداً ، قال تعالى : « **لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين** »[4] .

والصحيح[5] أن الأمر واحد الأمور ، وهو الشأن الذي حكم الله به وقضاه في إهلاكهم هلاكاً مستأصلاً ، وليس المراد به الوقت كما يقوله بعضهم ، ويؤيد

---

(١) الحجر : ٧٣ .
(٢) الحجر : ٦٦ .
(٣) الفرقان : ٤٠ .
(٤) الذاريات : ٣٣ ، ٣٤ .
(٥) من هنا بدأت المحاضرة العشرون في ١٣٨٤/٨/٤هـ .

ما ذكر قوله تعالى : « **وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين** »(١) .

والعالي هو أعلى الشيء ، والسافل أسفل الشيء .

و « **منضود** » اسم مفعول ، أي مجعول بعضه فوق بعض ، كما قال تعالى : « **والنخل باسقات لها طلع نضيد** »(٢)ا.

وفي المراد به وجهان صحيحان لا يكذب أحدهما الآخر .

الأول : كونه في السماء قد جعل بعضه فوق بعض محضراً للوقت الذي يراد إهلاكهم به .

الثاني : أنه مركوم بعضه فوق بعض عند نزوله عليهم .

ويؤيد الأول قوله تعالى : « **مسومة عند ربك** » أي محفوظة في خزائنه ، وفي ذلك تخويف وزجر للظالمين ، ويؤيد هذا قوله تعالى : « **وما هي من الظالمين ببعيد** » .

« **مسومة** » أي مجعولاً فيها علامة تميزها ، واختلف في هذه العلامة : فقيل : إن فيها خطوطاً سوداء وحمراء ، وقيل على كل حجر اسم من يرمي به ، وقيل عليها شبه الخواتيم . وعلى أي حال ، فالمراد أن لها علامة خاصة تميزها عن سواها ..

« **وما هي من الظالمين ببعيد** » ..

اختلف في المراد بالمرجع الذي يعود إليه الضمير : « **هي** » على وجهين :

الأول : أنه الحجارة ، لأنها أقرب مذكور ، أي وما حجارة السجيل ببعيدة ممن يرتكب ما ارتكبه قوم لوط ، من الكفر والفاحشة .

الثاني : أن المراد به قرى قوم لوط ، أي وما القرى المجعولة عظة ، والتي جعل عاليها سافلها ببعيدة من الظالمين الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ ، كما قال

(١) الحجر : ٦٦ .

(٢) ق : ١٠ .

تعالى : « **ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً** »(١) .

وهنا يرد سؤال عربي ، وهو أن ما دخلت على مبتدأ أو خبر في الأصل ، وهما : هي وبعيد ، والمبتدأ مؤنث والخبر مذكر ، والقاعدة أن الخبر الجاري على من هو له ــ أعني الذي لم يرفع السببي ــ تجب مطابقته لمبتدئه ، وهنا لم يُطابق الخبر المبتدأ في التأنيث فما وجه ذلك ؟

والجواب من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أن في الكلام محذوفاً مقدراً ، وبتقديره تتم المطابقة ، والتقدير : وما هي بشيء بعيد ، كما قال تعالى : « **إن زلزلة الساعة شيء عظيم** »(٢) .

الوجه الثاني : أن من أساليب العرب أنها إذا أرادت بالقرب أو البُعد المسافة ، جاز فيه التذكير والتأنيث ، فيُقال : دار بكر قريب أو قريبة ، وإذا أريد به النسب وجب تأنيثه ، فيُقال : هند قريبة ، ولا يُقال قريب ، والمراد هنا الأول .

(وقد يُقال : إنه مصدر ، كالزميل والصهيل ، وهو يذكر ويفرد ولو وصف به غير مذكر وغير مفرد ، وهذا هو الوجه الثالث)(٣) .

---

(١) الفرقان : ٤٠ . (٢) الحج : ١ .

(٣) ذكر فضيلة شيخنا المفسر ثلاثة أوجه وادركت معه الوجه الأول والثاني ، ولم ادرك الثالث ، ولذلك نقلت هذا الوجه من كتاب فتح القدير للشوكاني : (٣/٤٨٩) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟
ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾
وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا
تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم
بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ
فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ
بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ
إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم
بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ
مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا
بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ
رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا
جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ
فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

٩ - دعوة شعيب قومه إلى طاعة الله وعدم الاعتداء على عباده وموقفهم منه وعاقبة الفريقين

قوله تعالى : « **وإلى مدين أخاهم شُعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** » .

معطوف على قوله تعالى : « **ولقد أرسلنا نوحاً** » . أي ولقد أرسلنا إلى مدين أخاهم شُعيباً . ومدين اسم أحد أولاد إبراهيم ، وشُعيب من ذريته ، وإنما

منع من الصرف ــ يعني : « **مدين** » لأن المراد به هنا القبيلة ، وكانوا يسكنون الأيكة ، وهي بين الشام ومصر ، والظاهر أن شُعيباً أخوهم في النسب ، وأنهم من ذرية مدين بن إبراهيم .

وكان شُعيب خطيب الأنبياء ، وكانت دعوته كغيره من الأنبياء والرُسل ، يدعو إلى عبادة الله وحده ، وينهي عن الإشراك به ، أي وحدوا الله بعبادتكم ، فلا معبود لكم سواه ، وهذا هو معنى : « **لا إلٰه إلا الله** » التي قامت من أجلها السموات والأرض ، وخلقت الجنة والنار ، وأرسل الرُسُل ، وأنزلت الكُتب ، ولهذا حصر الوحي كله في معناها ، كما قال تعالى : « **قل إنما يوحى إليّ أنما إلٰهكم إلٰه واحد فهل أنتم مسلمون** »[١] . وذلك لأنها شاملة لكل الشرائع مركبة من نفي كل معبود غير الله وكل عبادة لغيره ، وإثبات العبادة لرب السموات والأرض ، فدخل في ذلك كل أمر ونهي ، عملاً واعتقاداً وتركاً[٢] .

وقد ذكر الله تعالى دعوة الرُسُل إلى توحيده جملة وتفصيلاً ، فمن الإجمال قوله تعالى : « **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلٰه إلا أنا فاعبدون** »[٣] . وقوله تعالى : « **ولقد بعثنا في كل أُمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** »[٤] .

ومن التفصيل ما سبق في هذه السورة من دعوة نوح وهود وصالح وشُعيب ، وكذلك في غيرها من السور ، كسورة الأعراف ويونس والحجر والشعراء ..

وهنا سؤال : وهو : ما وجه رفع « غير » مع أنه تابع لمجرور ، وهو « إلٰه » ؟

والجواب : أن « من » في قوله : « **من إلٰه** » زائدة ، و « **إلٰه** » محله الرفع ، لأنه مبتدأ وغير أُتبع على المحل ، فهو من باب ما أشار إليه ابن مالك في الألفية بقوله :

---

(١) الأنبياء : ١٠٨ . (٢) تقدم الكلام على هذا المعنى بتفصيل أكثر في تفسير الآية : ٥٠ .
(٣) الأنبياء : ٢٥ . (٤) النحل : ٣٦ .

وَجُرَّ ما يتبع ما جُرّ ومن راعي في الاتباع المحل فحسن

وقد سبق[1] أن النكرة في سياق النفي ظاهرة في العموم ، وإذا زيدت « مِن » قبلها تجعلها نصاً في ذلك ، كما هنا ، وأن زيادة « من » تطرد في ثلاثة مواضــع :

الأول : قبل المبتدأ كما في هذه الآية : « **ما لكم من إله غيره** » .

الثاني : قبل المفعول به ، كقوله تعالى : « **وما أرسلنا من قبلك من رسول** »[2] .

الثالث : قبل الفاعل ، كقوله تعالى : « **أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير** »[3] .

« **ولا تنقصوا المكيال والميزان** » كان قوم شُعيب مع كفرهم خُبثاء يأخذون المكوس ، ويؤذون الناس في الطرق بأخذ حقوقهم ، وينقصون إذا باعوا كيلهم ووزنهم ، ويزيدون لأنفسهم إذا اشتروا ، فنهاهم الله جل وعلا هنا عن التطفيف في الكيل والوزن ، كما نهاهم في آية أُخرى عن أذية الناس بأخذ المكوس ، كما قال تعالى : « **ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به** »[4] . ويدخل في النهي عن نقص المكيال والميزان النهي عن الزيادة لأنفسهم ، لأن فيه نقصاً على البائع ، إذ يضيع من ماله شيء في غير حق .

والمكيال والميزان اسما آلة ، واسم الآلة يطرد على مِفْعَلٍ أو مِفْعَال ، كما تقرر في فن الصرف ، والظاهر أن المراد بهما هنا المكيل والموزون من إطلاق الآلة على ما يعمل بها ، والتعبير عن الشيء بآلته أسلوب عربي كما يُقال للكلام لسان ، ومنه قوله تعالى : « **واجعل لي لسان صدق في الآخرين** »[5] .

وفي الصحيح أن الرسول ﷺ حينما نهى عن الربا في الكيل قال : « **وكذلك الميزان** »[6] . والمقصود : الموزون ، فعبر ﷺ عن الشيء بآلته .

---

(١) في تفسير آية : ٥٠ . (٢) الأنبياء : ٢٥ . (٣) المائدة : ١٩ . (٤) الأعراف : ٨٦ .
(٥) الشعراء : ٨٤ . (٦) راجع صحيح البخاري (١٥٦/٨ — ١٥٧) ومسلم (١٢١٥/٣) .

وقال الشاعر :

لسان الشر تهديها إلينـــا وخنت وما حسبتك أن تخونا

وهو من المجاز المُرسُل عند علماء البلاغة .

« إني أراكم بخير » الصحيح أن المراد بالخير المال الكثير ، والثروات الطائلة التي لا يحتاجون معها إلى التعدي إلى حقوق الناس . ويطلق الخير على المال كثيراً ، كما قال تعالى : « **كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين** » . الآية[1] وقال تعالى : « **يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين** » . الآية[2] .

وفي هذه الآية دليل على أن الذي أغناه الله بمال لا يجوز له أن يطمح إلى حقوق الناس ، وأنه يغضب الله إن فعل ، بخلاف المضطر الجائع الذي لا يجد شيئاً ، فقد يعذر في الجملة ، كما قال تعالى : « **وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه** » . الآية[3] .

وإنّ المشددة في قوله : « **إني أراكم بخير** » للتعليل ، وهي تأتي لذلك كما تقرر في فن المعاني ، ولهذا قال : « **إني أراكم بخير** » . أي لأني .

وقيل المراد بالخير العافية ، ومتاع الدنيا ، أي فلا تنقصوا المكيال والميزان ، فيُغير الله ما بكم من نعمة ، كما قال تعالى : « **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** »[4] . والأول أظهر .

« **وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط** » . أي إن تماديتم على الكفر بالله والإضرار بالناس ، أخاف أن ينالكم : « **عذاب يوم محيط** » .. ووجه إطلاق الخوف هنا أنه لا يدرى أيموتون على ذلك أم ربما أطاعوا الله قبل الموت ، فسببه احتمال الأمرين عنده .

والإحاطة : الإحداق ، أي أن يحدق بكم العذاب من جميع الجوانب حتى لا يستطيع أن يفر منه فار .

---

(١) البقرة : ١٨٠ . (٢) البقرة : ٢١٥ . (٣) الأنعام : ١١٩ . (٤) الرعد : ١١ .

وقيل : إنه كناية عن الهلاك ، فهو كقوله تعالى : « **حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم** »[1] . أي أحاط بهم الهلاك . وقوله تعالى : « **وأحيط بثمر** »[2] .

وأصله من إحداق العدو ، كما قال تعالى عن يعقوب عليه السلام : « **قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يُحاط بكم** »[3] .

وقال الشاعر :

أحطنا بهم حتى إذا ما تيقنوا بما قدر أو امالوا جميعاً إلى السلم

وإنما أسند الإحاطة إلى اليوم ، لأن العرب تسند الهول إلى ظرفه ، وهو موجود في القرآن ، كما قال تعالى : « **فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً** »[4] . وقال تعالى : « **ولما جاءت رُسُلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب** »[5] . لأن الهول وشدته إنما يقعان في الظرف .

وقيل : إن المحيط العذاب ، فهو من شواهد الخفض بالمجاورة ، وهو محتمل للأمرين ، ولا يلزم تعين الأخير ، إذ لا مانع من إسناد الإحاطة إلى اليوم ، والظروف تُهَوَّل للدلالة على هول ما يقع فيها .

« **ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط** » .

كما نهاهم الله تعالى عن النقص أمرهم بالإيفاء ، وهو توكيد ، لأن النهي عن النقص يستلزم الإيفاء ، ولكنه صرح بهما جميعاً اهتماماً بذلك .

والإيفاء الإكمال والإتمام ، أي كيلوا كيلاً وافياً ، وزنوا وزناً وافياً ، ولا تنقصوا إن كلتم ، ولا تزيدوا إن اكتلتم .

---

(١) يونس : ٢٢ .
(٢) الكهف : ٢٢ .
(٣) يوسف : ٦٦ .
(٤) المزمل : ١٧ .
(٥) تقدمت هذه الآية وتقدم تفسير ورقمها : ٧٧ .

وقد هدد الله المطففين وبين أن التطفيف يشمل الزيادة والنقص كما قال تعالى : « **ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** »[1] .

والقسط العدل الذي لا زيادة فيه ولا نقصان ، ولا مانع من الزيادة للغير ممن رضيت نفسه ، لأنه من عمل البر والإحسان .

« **ولا تبخسوا الناس أشياءهم** » . أي لا تنقصوها ، يُقال : ثمن بخس ، أي منقوص ، والمراد بخس حقوقهم بأخذ المكوس منهم ، أي الغرامات ، ويدل على هذا قوله تعالى : « **ولا تقعدوا بكل صراط توعدون** »[2] . إذ كانوا يخيفون الناس ويرهبونهم في الطرق بأخذ أموالهم ، ومن أشعار العرب في إتيان المكس بمعنى البخس والبخس بمعنى المكس قول الشاعر :

ففي كل أسواق العراق أتاوة وفي كل ما باع أمرؤ مكس درهم

ويروي : بخس درهم .

وقيل المراد بالبخس التطفيف ، أو الظلم ، ونحو ذلك ، والآية عامة دالة على أنه لا يجوز نقص أي إنسان أي شيء من حقوقه .

« **ولا تعثوا في الأرض مفسدين** » . العثى هو الإفساد في الأرض ، فالحال : « **مفسدين** » مؤكدة لعاملها ، على حد ما عقده ابن مالك في الألفية بقوله :

وعامل الحال بها قد أكدا في نحو لا تعث في الأرض مفسدا

والمعنى : لا تفسدوا ، لا تفسدوا .

« **بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين** » . البقية الشيء الباقي بلا زوال ، والأغلب إطلاقه على ما زال بعضه ، وبقى هو .

وفي تفسير : بقية أوجه :

---

(١) سورة المطففين : ١ ــ ٣ . (٢) الأعراف : ٨٦ .

الأول : أن المراد بها الشيء القليل الذي يبقى لكم طاهراً ، مع تجنب المكوس والتطفيف ، فإنه خير مما تأخذونه بلا وجه شرعي ، فالبقية الشيء الطاهر من الحلال الذي بقى بعد زوال ما أخذ من وجه حرام وعلى هذا الأكثر .

وأضيفت البقية إلى الله ، لأنها اكتسبت على الوجه اللائق المحمود عنده شرعاً .

الوجه الثاني : أن المراد بالبقية طاعته تعالى :

الوجه الثالث : أنها وصيته ، وهو لا يوصي إلا بطاعته تعالى . وسبب تسمية الطاعة بقية أن الطاعة تبقى والمعصية تضمحل ، كما قال تعالى : « **المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً** »[1] . والمراد بها الأعمال الصالحة ، كالصلوات ، والذكر ، وكذلك جزاؤها باق مؤبد ، والقول الأول يدخل في الثاني .

« **وما أنا عليكم بحفيظ** » . في تفسيرها وجهان :

الأول : أنني لا أحفظكم عن المعاصي ، ولا أمنعكم من الكُفر والتطفيف وبخس الناس أشياءهم ، وإنما أمركم إلى الله ، كما قال تعالى : « **ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً** »[2] . وقال تعالى : « **ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يُغويكم** »[3] . والمراد لا أملك هدايتكم ولا إضلالكم ، وإنما الله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء .

الوجه الثاني : أن معناه : ما أنا برقيب عليكم ، أحصي أعمالكم وأُجازيكم عليها ، وإنما حسابكم على الله تعالى ، وأنا مبلغ عنه فقط .

والآية تشمل الأمرين معاً ، والحفيظ فعيل بمعنى فاعل .

« **قالوا يا شُعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد** » .

---

(١) الكهف : ٤٦ . (٢) المائدة : ٤١ . (٣) هود : ٣٤ .

أي قالوا مُجيبين له لما أمرهم بعبادة الله وحده ، ونهاهم عن الشرك به ، ونهاهم عن نقص الناس حقوقهم ، وأمرهم بإيفائها ، فأمر بأصلين عظيمين الأول : عبادة الله وحده ، والثاني : اجتماعي ، وهو الوفاء بالحقوق وعدم الخيانة فيها ، لما أمرهم ونهاهم أرادوا أن يهزؤا به ، وقد كان عليه السلام كثير الصلاة والتكبير والتهليل ، وهم يقولون : إنه مجنون يهذي هذياناً ، ولهذا قالوا : أصلاتك تأمرك ، أي أهذيانك يأمرك بهذه الأوامر التي تأمرنا بها ، فنترك ما كان يعبد آباؤنا ذووا العقول الراجحة ؟

وإنما أضافوا الأمر إلى الصلاة تهكماً ، فهو من باب : « **قل بئسما يأمركم به إيمانكم** »[1] .

والمصدر المنسبك في قوله : « **أن نترك** » في محل نصب بنزع الخافض الذي هو الباء المحذوفة ، لأن الأمر يتعدى بالباء ، أي تأمرك بتكليفنا ترك ما يعبد آباؤنا ، أي ترك عبادة ما كانوا يعبدون ، وهذا جواب على قول شُعيب عليه السلام لهم : « **يا قوم اعبدو الله ما لكم من إلٰه غيره** » .

وقوله : « **أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء** » جواب منهم على قوله لهم : « **ولا تنقصوا المكيال والميزان** » وقوله : « **أوفوا المكيال والميزان** » وقوله : « **ولا تبخسوا الناس أشياءهم** » . أي أو تأمرك صلاتك بتكليفنا ترك فعلنا في أموالنا ما نشاء ؟ فهو على حذف مضاف ، كما في قوله تعالى : « **حرمت عليكم أمهاتكم** »[2] . أي نكاحهن ، وقد عقده ابن مالك في الألفية بقوله :

وما يلي المضاف يأتي خلفاً عنه في الإعراب إذا ما حذفا

فكأنهم يقولون له : هذا الأمر الذي تأمرنا به أمر منكر وجهل وسفه ، ولهذا عرضوا بهذا المعنى في قوله له : « **إنك لأنت الحليم الرشيد** » والمراد الجاهل السفيه الذي لا ينبغي أن يأمر بشيء .

وقد أخذ المالكية من هذه الآية أن التعريض بالقذف يوجب الحد ، فيجلد به صاحبه ، فإن قوم شُعيب هنا عرضوا بالحلم والرشد ، ومرادهم الجهل والسفه ،

(١) البقرة : ٩٣ . (٢) النساء : ٢٣ .

لأن الله ذكر ذلك في معايبهم ومثالبهم ، ولو كان على بابه لكان مدحاً ، والمدح لا يذمون به ، ونظير هذا التعريض قوله تعالى : « **ذُق إنك أنت العزيز الكريم** »[١] والمراد الذليل اللئيم المهين ، وكما في قول بني إسرائيل في مريم : « **يا أُخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أُمك بغيا** »[٢] . فإن هذا من باب التعريض بها وقد قال الله تعالى عنهم ما يُبين أنه تعريض : « **وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً** »[٣] .

فالتحقيق أن هذا تهكم منهم بشُعيب عليه السلام ، وقد تقدم تفسير الحلم وضرب مثل له بحلم قيس بن عاصم[٤] .

والرشيد من الرشد ، وهو ضد السفه ، فهو من عنده علم وبصيرة بما يضر وينفع .

وقال بعضهم : إن هذا ليس تعريضاً ، وإنما هو على بابه ، ومرادهم : إنا قد كنا نأمل في حلمك ورشدك أن لا تقدم على مثل هذه الأوامر فتأمر بما لا يليق ، كما قال قوم صالح لنبيهم عليه السلام : « **يا صالح قد كنت فينا مرجوا** »[٥] .

« **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً** » . أي أخبروني ، وهذا الاستفهام قد يُلجأ به المخاطب إلى أن يعترف بسخافة عقله وخطل رأيه ، أي إن كنت على يقين وبرهان قاطع منه تعالى بنبوتي الواضحة المؤيدة بالمعجزات ، والرزق المراد به المال ، وجواب الشرط محذوف ، أي إن كنت على بينة واضحة أترون يمكنني أن أداهنكم ، خوفاً من كسر خواطركم ، لا والله لا يكون ذلك ، ولأبلغن رسالة ربي إليكم ، وإن رزقني منه رزقاً حسناً ، أترون أني أعصيه في نعمته ، لا والله ، بل سأعمل بمقتضى النبوة ، وأشكر النعمة ، فلا أتصرف فيها بالباطل ، كما تتصرفون وتقولون : « **أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء** »[٦] .

---

(١) الدخان : ٤٩ .
(٢) مريم : ٢٨ .
(٣) النساء : ١٥٦ .
(٤) عند تفسير الآية : ٧٥ .
(٥) الآية : ٦٢ من هذه السورة .
(٦) كما في الآية التي قبل هذه التي شرع الشيخ في تفسيرها .

والمعنى أني آمركم وأنهاكم ، وأتصرف فيما آتاني الله بما يرضيه .

« **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه** » .

عدى أخالف بإلى ، لأن المخالفة إلى الأمر كالذهاب إليه ، أي لا أنهاكم عن شيء إلا كنت أول من ينتهي عنه ، ولا آمركم بشيء إلا كنت أول مُبادر إلى التلبس به .

وفي هذا دليل على أن من ترك ما أُمر به وارتكب ما نُهى عنه مخالف للرُسل عليهم الصلاة والسلام ، وقد ذم الله تعالى من يفعل ذلك فقال تعالى : « **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** »(١) . وقال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بُنيان مرصوص** »(٢) .

وفي حديث أُسامة المتفق عليه أن الذي يأمر ولا يأتمر ويَنهى ولا ينتهي يكون في النار يوم القيامة ، كالحمار يطيف برحاه ويجتمع الناس عليه من أهل النار ، فينكرون عليه : كيف كنت تأمرنا بالخير وتنهانا عن الشر ولا تدخل الجنة ، بل أنت في النار ؟ فيجيبهم أنه كان يأمرهم بالخير ولا يأتيه ، وينهاهم عن الشر ويأتيه(٣) .

وفي حديث أنس ، رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى ليلة أسرى به قوماً تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فسأل عنهم جبريل فقال : هؤلاء خطباء أُمتك الذين يأمرون الناس بالخير ولا يفعلونه(٤) .

وقد دل القرآن والسُنَّة أن المذكر ــ بالكسر ــ والمذكر ــ بالفتح ــ إن لم يأتمروا بالخير ولم ينتهوا عن الشر أنهم حُمر من حُمر جهنم ، أما المذكر ــ

(١) البقرة : ٤٤ . (٢) الصف : ٢ ــ ٤ .

(٣) ذكر شيخنا المفسر الحديث بالمعنى ، وهو في صحيح البخاري (٩٠/٤) وصحيح مسلم (٢٢٩٠/٤ ــ ٢٢٩١) .

(٤) راجع مسند الإمام أحمد (١٢٠/٣) وفيه : « خطباء من أهل الدنيا » بدلاً من خطباء أُمتك . وهذا سند الحديث : حدثنا عبد الله : حدثني أبي ، حدثنا وكيع ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت عن أنس .

بالكسر ـــ فقد دل عليه حديث أُسامة السابق ، وأما المذكر بالفتح فقد دل عليه قوله جل وعلا : « **فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حُمر مستنفرة فرت من قسورة** »[1].

وقد جاء رجل إلى ابن عباس ، وقال : إني أريد أن أذكر الناس ، فقال له ابن عباس ، رضي الله عنهما : إذا لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات فافعل ، وهي : قوله تعالى : « **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم** »[2] وقوله : « **وما أُريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه** » وقوله : « **كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** »[3] .

وأمْرُ الإنسان غيره بالخير مع عدم فعله ، أو نهيه عن الشر مع فعله أمر مستنكر عند العقلاء ، قال الشاعر :

وغير تقي يأمر الناس بالتقى ... طبيب يداوي الناس وهو مريض

وقال الآخر :

وإنك إذ ما تأت ما أنت آمر ... به تلف من إياه تأمر آتيا

وليست البلية[4] التي تصيب من يأمر بالمعروف ولا يأتيه ، أو ينهى عن المنكر ويأتيه ، بسبب أمره ونهيه ، فإنهما من الخير المأمور به وإنما البلية والعذاب الذي يُصاب به بسبب مخالفته هو للأمر والنهي .

« **إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت** » .

« **إن** » نافية ، والإصلاح ضد الإفساد ، أي ما أُريد بما أدعوكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيفاء الكيل والوزن ، وعدم بخس الناس أشياءهم إلا الإصلاح لكم في دينكم ودنياكم وأعمالكم وقلوبكم وأحوالكم في الدنيا والآخرة عند الله تعالى .

« **ما استطعت** » اختلف في إعراب هذه الجملة ، فقال بعضهم : إن ما ظرفية مصدرية ، أي مدة دوام استطاعتي ، وهذا القول هو أظهر الأقوال .

(١) المدثر : ٤٩ ـــ ٥١ . (٢) البقرة : ٤٤ . (٣) الصف : ٣ .

(٤) من هنا بدأت المحاضرة الواحدة والعشرون في ١٣٨٤/٨/٥هـ .

وقال بعضهم : إنها موصولة ، بدل من الإصلاح .

وقال بعضهم : إنها معمولة للمصدر الذي هو الإصلاح .

والمصدر المحلي بأل يعمل كغيره من المضاف والنكرة ، كما عقده ابن مالك في الخُلاصة بقوله :

بفعله المصدر ألحق في العمل ... مضافاً أو مجرداً أو مع أل

ومن شواهد ذلك قول الشاعر :

ضعيف النكاية أعداءه ... يخال الفرار يراخى الأجل

وقول الآخر :

عجبت من الرزق المسيء إلٰهه ... (وللترك بعض الصالحين فقيراً)[1]

والاستطاعة : الطاقة .

« **وما توفيقي إلا بالله** » بفتح ياء المتكلم وإسكانها ، قراءتان سبعيتان ، أي لا يكون لي توفيق وهداية إلا من ربي سبحانه ، وهذا يدل على شدة اعتماد الرُسُل عليهم السلام على ربهم جل وعلا ، وتشريعهم للناس أن يُسنَدَ كل شيء إليه .

« **عليه توكلت وإليه أنيب** » .

التوكل إسناد الأمور وتفويضها إلى الله ، مع العلم أنه لا يقع من الخير إلا ما شاء ، ولا يصيب العبد من الشر إلا ما كتب .

والتوكل لا ينافي تعاطي الأسباب ، ومن الأدلة على ذلك قول الله تعالى لمريم : « **وهُزي إليكِ بجذع النخلة تُساقط عليكِ رُطباً جنيا** »[2] مع أنه تعالى لو أراد لأسقطه لها بدون هز منها .

ومن أوضح الأدلة على ذلك قول يعقوب الذي وصفه الله بالعلم في قوله تعالى : « **وإنه لذو علم لما علمناه** »[3] : « **وقال يا بني لا تدخلوا من باب**

---

(١) لم أدرك مع الشيخ الشطر الأخير وقد أكملته من كتاب المساعد شرح ــ التسهيل ــ لابن عقيل (٢٣٦/٢) .

(٢) مريم : ٢٥ .

(٣) يوسف : ٦٨ .

واحد وادخلوا من أبواب متفرقة » محافظة عليهم من العين ، ثم قال : « **وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحُكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون** »[1] .

فقد أخذ بالسبب والحيطة ، وصرح بأن الاعتماد على الله تعالى وحده ، فهو متوكل آخذ بالأسباب .

ومما يدل أن السبب لا ينفع إلا بإرادة الله ما قصه الله في سورة الأنبياء وغيرها عن إبراهيم عليه السلام ، فالنار طبيعتها المستمرة الإحراق ، ولكن عندما لم يرد الله لها أن تؤثر في إبراهيم ، أحرقت الحطب وكانت عليه برداً وسلاماً في آن واحد ، كما قال تعالى : « **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم** »[2] .

فالمؤثر في الحقيقة هو رب العالمين ، ولو شاء أن تتخلف مقتضيات الأسباب لتخلفت ، كما أنه لو شاء أن يجعل ما لم تجر العادة بأن يكون من الأسباب سبباً لجعله كذلك .

ومما يوضح هذا ما قصه الله في سورة البقرة ، إذ أمر بني إسرائيل بذبح بقرة ، ليأخذوا عضواً منها بعد أن نزعت منه الحياة فيضربوا به الميت فَيحيا ، فالسبب مضاد وقد نتج عنه ضده[3] . وقد ذكرت في القرآن والسُنَّة نماذج تدل على شدة توكل الأنبياء على ربهم واعتمادهم عليه ، كما قال تعالى عن نوح عليه السلام : « **واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون** »[4] .

وقال تعالى عن هود عليه السلام : « **قال إني أشهد الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم** »[5] وقال

(١) يوسف : ٦٧ .
(٢) الأنبياء : ٦٨ ، ٦٩ .

(٣) كما في قوله تعالى : « **وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون** » . البقرة : ٧٢ ، ٧٣ .

(٤) يونس : ٧١ .
(٥) تقدمت في هذه السورة رقم : ٥٦ .

تعالى عن الأنبياء على وجه العموم : « **وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سُبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون** »(١) .

ومن أعظم ما يدل على قوة توكل نبينا ﷺ ما كان منه في يوم حنين ، حيث صلى الصبح هو وأصحابه ، الجمع الكثير ، في وادي حنين ، وكان مالك ابن عوف قد ألب عليه هوزان ، فاحدقوا به وبأصحابه في الوادي فشدوا عليهم حتى كانت الرماح عليهم مثل المطر ، حتى وقع ما وقع من الصحابة ، ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا عدد قليل ، وهو راكب على بغلته أمام ذلك الهجوم المسلح والسلاح الفتاك والعدو الذي كان شديد الرغبة في قتله وهو ثابت رابط الجأش يقول في عزم وشجاعة :

أنـــا النبـــي لا كـــــذب   أنـا ابـن عبـد المطـــلب

وقد قص الله ذلك في سورة التوبة في قوله : « **ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين** »(٢) .

والتوفيق مأخوذ من الموافقة ، أي جَعْلُ أعمالي موافقة لما يرضيه تعالى .

« **وإليه أنيب** » .

« **أنيب** »(٣) الإنابة الرجوع ، أي أرجع إليه في كل أموري ، وأرجع إليه بكل ما يرضيه .

« **ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح** » حذفت ياء المتكلم ، وهي إحدى اللغات الخمس التي مر الكلام عليها في المضاف إلى ياء المتكلم ، إذا كان منادى(٤) .

وفي قوله : « **لا يجرمنكم** » وجهان من التفسير :

---

(١) إبراهيم : ١٢ .

(٢) التوبة : ٢٥ ، وراجع تفسير الآية ٥٥ من هذه السورة ، فقد مضى هناك ما يشبه هذا .

(٣) من هنا بدأت المحاضرة الثانية والعشرون في ١٣٨٤/٨/٩هـ   (٤) راجع ذلك في تفسير الآية : ٢٨

الأول : أن المراد لا يحملنكم ، والمصدر في قوله : « **أن يصيبكم** » على هذا أصله مجرور بحرف جر ، تقديره : على أن يصيبكم ، كما نص عليه في سورة المائدة في قوله تعالى : « **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا** »[1] وسيأتي الكلام على إعراب هذا المصدر ، والمعنى على هذا : لا يحملنكم شقاقي على أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح .. أي على إصابتكم ما ذكر .

الثاني : أن المراد : لا يكسبنكم من جرمه يجرمه إذا أكسبه ، أي لا يكسبنكم شقاقي إصابتكم مثل عذاب قوم نوح ، وعلى هذا فالفعل متعد بنفسه ، ولا يحتاج إلى تقدير حرف الجر .

والعرب لا تكاد تطلق : « **جرم** » على معنى كسب إلا في الكسب الخبيث كما قال الشاعر :

ونـنصر مولانا ونعلـم أنـه كما الناس مجروم عليه وجارم

وقال الآخر :

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جَرَمَتْ فزارة بعدها أن يغضبوا

« **شقاقي** » مضاف ، وهو من إضافة المصدر إلى مفعوله ، وهو من شاقق على وزن فاعل ، والفِعَال مقيس فيه ، وكذا مفاعلة ، كما عقده ابن مالك في الخُلاصة بقوله :

لفاعل الفعال والمفاعلة :

وفاعله محذوف والتقدير : شقاقكم إياي ، أي مخالفتكم .

والشقاق العداوة ، ومنه قول الشاعر ــ وأنشده سيبوية ــ :

وإلا فاعلمـوا أنـــا وأنتم بغـاة ما بقينـا في شقـاق

وفي أصل اشتقاقه أوجه :

---

(١) المائدة : ٨ .

الأول : أنه من الشق بمعنى الجانب ، لأن المشاق يناوئك حتى يصير كأنه في جانب وأنت في جانب آخر .

الثاني : أنه من المشقة ، لأن المشاق يحاول أن يحملك المشقات .

الثالث : أنه من شق العصى ، بمعنى الإختلاف ، والأكثر على الأول .

« أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد » .

المصدر المنسبك محله النصب قولاً واحداً على كون : « **يجرمنكم** » معناه : يكسبنكم ، أما على كون معناه يحملنكم ، فحرف الجر محذوف باطراد ، كما عقده ابن مالك بقوله :

وعدِ لازماً بحرف جر ... وإن حذف فالنصب للمنجر
نقلاً وفي أن وأن يطرد ... مع أمن لبس كعجبت أن يدوا

واختلف في محل المصدر ، فالجمهور وعلى رأسهم الخليل والكسائي ذهبوا إلى أن محله النصب جرياً على ما عقده ابن مالك في القاعدة السابقة .

وذهب الأخفش الصغير ، وهو ابن سليمان ، إلى أن محله الجر . وذهب سيبويه إلى جواز الوجهين ، ومن شواهد نصب الاسم بعد حذف حرف الجر قوله :

تمرون الديار ولم تعوجوا ... كلامكُم عليّ إذاً حرام

وحجة الأخفش أنه قد سمع خفض الاسم معطوفاً على المصدر المنسبك الذي حذف معه حرف الجر ، كقول الشاعر :

وما زرت ليلى أن تكون حبيبة ... إليّ ولا دينٍ بها أنا طالبه

وأجاب الجمهور أن ذلك من خفض المجاورة ، فهو من عطف التوهم ، وذلك بأن تكون الكلمة مرفوعة أو منصوبة ــ مثلاً ــ فيعطف عليها بالجر ، لجواز وجوده في تلك الكلمة ، توهماً ، لمطلق الجواز ، ومنه قول زهير :

بدالي أني لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئاً إذا كان جارياً

فمدرك يجوز أن تدخل عليه الباء لأنه خبر ليس ، كما قال ابن مالك في الألفية :

وبعد ما وليس جر البا الخبر ....

ولمطلق الجواز توهم الشاعر دخول حرف الجر ، كأنه موجود ، وعطف عليه بالجر .

« **مثل ما أصاب قوم نوح** » . أي من الغرق ، « **وقوم هود** » بالريح « **وقوم صالح** » بالصيحة ، « **وما قوم لوط منكم ببعيد** » أي فيصيبكم ما أصابهم من قلب قراكم ورميكم بالحجارة .

وفي تفسير قوله : « **وما قوم لوط منكم ببعيد** » وجهان :

الأول : أن المراد بعد المكان ، أي ليست ديارهم ببعيدة منكم ، بل هي قريبـة .

كما قال تعالى : « **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون** »[١] .

الثاني : أن المراد نفي بعد مدة الزمان ، والمراد من ذلك على كلا الوجهين تحذيرهم أن يقع بهم ما وقع بقوم لوط الذين لا تبعد مساكنهم منهم ، كما أن زمنهم الذي اهلكوا فيه ليس ببعيد كذلك .

« **واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه** » . أي اطلبوا المغفرة من ربكم ، ومن أشهر معاني : استفعل الطلب ، كما هو معروف في فن الصرف ، أي اطلبوه غفران ذنوبكم ، وتوبوا إليه توبة نصوحا ، بإيمان به وطاعة لنبيه شُعيب عليه السـلام .

« **إن ربي رحيم ودود** » تعليل لطلب المغفرة والتوبة ، أي كثير الرحمة ، والرحمة صفة له ، اشتق منها الرحمن الرحيم ، وتظهر آثار رحمته في خلقه في

(١) الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨ .

الدنيا ، من التوفيق وجلب النفع ودفع الضرر عنهم ، وفي الآخرة ، بالجزاء الحسن والنعيم المقيم .

وفي تفسير الودود وجهان :

الأول : أنه يتودد إلى المخلوقين بما جعلهم يعملون له ويحبونه . فهو على وزن فعول بمعنى : مفعول ، أي المودود المحبوب .

الثاني : أنه تعالى يحب من أطاعه ، فهو فَعُول بمعنى فاعل . وكلاهما حق ، لأنه يتودد إلى خلقه بما يستوجب منه المحبة لهم من طاعته ، ويتودد إليهم بما ينعم عليهم به ، فيجعلهم يحبونه .

كما قال تعالى : « **فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه** »[1] .

« **قالوا يا شُعيب ما نفقه كثيراً مما تقول** » .

نادوه باسمه وقاحة وعدم احترام ، والفقه في اللغة الفهم ، صرحوا له بعدم فهمهم عنه ، مع أنه في غاية الفصاحة ، حتى قيل فيه : إنه خطيب الأنبياء ، فتجاهلوا ذلك وزعموا أنهم لا يفهمون كلامه .

« **وإنا لنراك فينا ضعيفاً** » . أي مستضعفاً لا قوة عندك ، ومرادهم : لست أحق منا بهذا الأمر لو كان خيراً ، وهو مثل ما قاله كفار مكة في محمد ﷺ : « **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم** »[2] .

« **ولولا رهطك لرجمناك** » .

أي نحن نستضعفك ، والحال أن الذي يمنعنا منك إنما هو رهطك ، والرهط أصله عدد من الجماعة ، وقيل : تسعة ، والمراد بهم جماعته وعشيرته وعصبته الأقربون ، والمراد بالرجم القتل بالحجارة ، وهو من أشنع القتل ، ولذا شرع في أفظع الحدود وقيل : إن معنى رجمناك ، شتمناك ، وقد شتموه حينما قالوا له : « **إنك لأنت الحليم الرشيد** »[3] . كما مر أنه سخرية وتهكم .

---

(١) المائدة : ٥٤ . (٢) الزخرف : ٣١ . (٣) آية : ٨٧ وتقدم تفسيرها .

« **وما أنت علينا بعزيز** » . أي لست بعزيز عندنا ، يعني لا أهمية لك ، والعزة تطلق على الغلبة ، وهو إطلاق مشهور ، ومنه قوله تعالى : « **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** »(١) .

ومنه قولهم : « **من عزبز** » . أي من غلب سلب .

وقول الخنساء :

كأن لم يكونوا حمىً يُتقى   إذِ الناس إذ ذاك من عزبزّا

وتطلق العزة على النفاسة ، وقلة الوجود ، ومرادهم هنا : لست بكريم ذا مكانة عندنا .

وهذه الآية تدل على أن المسلم ــ وإن كان لا يجوز له أن يدعو إلى الرابطة العصبية ــ لا مانع من أن ينتفع بعصبته ضد أعداء دعوته ، وإن كانوا لا يمتون إلى الدين بصلة ، وإنما ينصرونه بعواطفهم النَّسَبية ، فيمنعون عنه الشر ، وقد وقع مثل هذل للرسول ﷺ من عمه أبي طالب ، حتى لم تستطع قُريش أن تؤذيه في حياته ، ولا تخرجه من بلده ، وقد قال أبو طالب مطمئناً للرسول ﷺ : ضد قومه :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم   حتى أوسد في التراب دفيناً

وقد قال الله لنبيه ﷺ ممتناً عليه : « **ألم يجدك يتيماً فآوى** »(٢) . أي عطف عليك عمك أبا طالب ، فقام بواجبك ودافع عنك ، وقال أبو طالب رداً على المشركين مدافعاً عن رسول الله ﷺ :

كذبتم وبيت الله نسلم محمداً   ولما نقاتل دونـه ونـناضل

وما ذلك إلا عصبية قومية نسبية لا تمت إلى الإسلام بصلة ، نفع الله بها هذا النبي الكريم ، ﷺ .

وقد اجتمع قوم صالح وتحالفوا على قتله سراً بالليل ، خشية أن يطلع أهله

---

(١) المنافقون : ٨ .

(٢) الضحى : ٦ .

على ذلك فيوقعوا بهم ، كما قال تعالى : « **وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيّتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهلِهِ وإنا لصادقون** »[١] .

ونبي الله لوط عليه السلام تمنى أن تكون له عشيرة يرجع إليها تناصره على قومه الذين عصوه وأرادوا الاعتداء على ضيفه كما قال تعالى عنه : « **قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد** »[٢] .

فلو كان معه عشيرة وعصبة لدافعوا عنه ، وقد عرف الإسلام لقوم الرسول ﷺ الذين ناصروه لرابطة النسب ، وهم بنو المطلب وبنو هاشم ، عرف لهم ذلك الموقف ، وجعل لهم حظاً من الغنيمة ولم يحرمهم منها ، لأنهم اجتمعوا معه في الشعب ومُنِع منه بنو عبد شمس ولم يجعل لهم النبي ﷺ حظاً وكذلك بنو نوفل ، لأنهم لم يناصروه ولم ينحازوا معه في الشعب .

فالعصبية ربما نفعت ، ولكن لا تُجعل رابطة ينادى بها ، فإن ذلك ممنوع بالكتاب والسُنَّة وإجماع عُلماء المسلمين ، ولا يتعاطى ذلك إلا الجعلان الذين يسرعون إلى كل ما هو نتن ، ويبتعدون عن الشعارات الحقيقية التي نصبها الله شعاراً لعباده .

وفي حديث جابر بن عبد الله ، رضي الله عنهما ما يوضح بغض الله ورسوله ﷺ للدعوة إلى الرابطة القومية على أساس العصبية ، فقد وقع بين بعض المهاجرين وبعض الأنصار خصومة ، فنادى الأنصاري : يا للأنصار ، ونادى المهاجري : يا للمهاجرين ، فقال رسول الله ﷺ : « **دعوها فإنها منتنة** »[٣] .

ففرق بين الدعوة إلى العصبية والانتفاع بها في تأييد الحق .

---

(١) النمل : ٤٨ ، ٤٩ .　　(٢) مضت برقم : ٨٠ من هذه السورة مع تفسيرها .

(٣) ونص الحديث كما رواه جابر رضي الله عنه : قال : كنا في غزاة ، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصاري : ياللأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين . فقال رسول الله ﷺ : « ما بال دعوى الجاهلية » ؟ قالوا يا رسول الله ، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال : « دعوها ، فإنها منتنة » فسمعها عبد الله ابن أبي ، فقال : قد فعلوها ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : « دعه ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » البخاري (٦/٦٥ — ٦٦) ومسلم (٤/١٩٩٨ — ١٩٩٩) واللفظ لمسلم .

وقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال : « وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » في رجل قاتل مع الصحابة في إحدى الغزوات قتالاً شديداً ، حتى قتل ، وقد قال رسول الله ﷺ في شأنه : « **هذا من أهل النار** »[١] .

فالرابطة السماوية الوحيدة هي رابطة « **لا إله إلا الله** » التي تجمع المختلف وتضم بين المفترق ، والحديث الصحيح بين أنها هي التي تربط بين المسلم وأخيه ، كما قال الرسول ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمى »[٢] .

وكلما عظمت رابطة الإسلام ، كانت الشفقة والتراحم والتحابب أعظم ، وقد ربطت « **لا إله إلا الله** » بين حملة العرش والمؤمنين في الأرض ، مع شدة المباينة بينهم في النشأة والعنصر ، والأشغال ومع بُعد المسافة بينهم ، كما قال تعالى : « **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدنٍ التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذُرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تقِ السيئات يومئذٍ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم** »[٣].

ومما يُبين أن الرابطة الصحيحة هي رابطة الإسلام الفرق البعيد بين سلمان الفارسي ، وأبي لهب عم الرسول ﷺ ، وهو من أشرف القبائل ، وقد قال الرسول ﷺ في سلمان : « سلمان منا أهل البيت » . والحديث ورد بروايات متعددة يشد بعضها بعضاً مع أنه قد صححه بعضهم أيضاً[٤] . وأبو لهب في غاية من الحقارة والذلة لا يساوي شيئاً ، وقال الشاعر فيهما :

لقد رفع الإسلام سلمان فارس   كما وضع الكفر الشريف أبا لهب

فالأخوة الحقة هي أخوة الإسلام ، ومما يبين ذلك أنه لو كان لرجل أبناء من

---

(١) راجع قصة هذا الرجل في صحيح البخاري (٣٤/٤) ومسلم (١٠٥/١ ــ ١٠٦) .
(٢) البخاري (٧٧/٧) ومسلم (١٩٩٩/٤) من حديث النعمان بن بشير .
(٣) غافر : ٧ ــ ٩ .   (٤) راجع المستدرك (٥٩٨/٢) .

صلبه ، وهم كفرة وهو مسلم ، وله إخوة مسلمون ، لم يكن لأبنائه أن يرثوه ، مع أنهم أبناء صلبه ، ويرثه إخوانه الذين يحجبهم الأبناء لو كانوا مسلمين .

وإنما وضع القوميات ودعا إليها المستعمرون ، لأنها ضد الإسلام ، ليفككوا بها روابط الدين الإسلامي ، وهي الروابط السماوية الصحيحة ..

وقد وصف الله النبي ﷺ وأصحابه أن تلك الرابطة جعلتهم فيما بينهم في غاية التراحم ، وأن بعضهم يذل للآخر . كما قال تعالى : « **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رُحماء بينهم تراهم رُكعاً سُجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً . سيماهُم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلُهم في التوراة ومثلُهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج شطئهُ فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما**[1] .

وقال تعالى : « **أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين** »[2] .

« **قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله** » .

هذا جواب نبي الله شُعيب لقومه ، ولم يجبهم على ما يتعلق باستهانتهم به ، حيث قالوا له : « **وإنا لنراك فينا ضعيفاً** » لأنه لا أهمية لذلك عنده ، وإنما يهمه حق الله تعالى ، وهذا مثل ما أجاب به إبراهيم عليه السلام أباه ، حين قال له أبوه : « **لئن لم تنته لأرجمنك** »[3] . فقال مُجيباً له : « **سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيّاً** »[3] . ووصف الله عباده المؤمنين بقوله : « **وإذا مروا باللغو مروا كراماً** »[4] .

فنبي الله شُعيب عليه السلام خاطبهم في احترام ربه ، ولم يُخاطبهم في استهانتهم به ، أي أرهطي وعشيرتي أعظم وأكبر منزلة عندكم من الله ؟

« **واتخذتموه وراءكم ظهرياً** » . أي والحال أنكم اتخذتموه ، أي الله ربكم ظهرياً ، يُقال : اتخذ كذا ظهرياً ، بمعنى أنه ولاه ظهره واستدبره ، فهو كناية عن

---

(١) الفتح : ٢٩ . (٢) المائدة : ٥٤ . (٣) مريم : ٤٦ ، ٤٧ . (٤) الفرقان : ٧٢ .

الصدود الكامل ، وظهري منسوب إلى ظهر ، والنسب يغير الأسماء ، كما في النسبة إلى الدهر ، يُقال : دهري ، بضم الدال .

« **إن ربي بما تعملون مُحيط** » أي لا يخفى عليه شيء ، وهذا هو الزاجر الأعظم والواعظ الأكبر ، وهو العلم بأن الله رقيب على كل شيء مطلع على كل شيء وقد سبق الكلام عليه[١] .

« **ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل** » .

قال لهم هذا من باب التهديد ، فهو لا يقصد الأمر لهم باستمرارهم على كفرهم ، وفي تفسير المكانة قولان :

الأول : أن معناه اعملوا على تمكنكم ، أي اعملوا ما تشاؤن على تمكنكم ، فإني عامل على تمكني .

الثاني : أن المراد اعملوا على حالتكم ، والأول أظهر ، وهو كقوله تعالى : « **اعملوا ما شئتم** »[٢] .

« **سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب** » .

هذا[٣] من كلام نبي الله شُعيب عليه السلام ، يقص الله سبحانه وتعالى علينا أخبار الأُمم الماضية مع الرُسُل لنعتبر بذلك ونستفيد منه ، بأن نعلم ما ينفعنا فنأخذ به ، وما يضرنا فنجتنبه ، وسمى القوم قوماً لأنه لا يستقيم أمر الرجل إلا بقومه ، وغلب إطلاقه على الرجال ، ويدخل فيه النساء تبعاً ، كما سبق[٤] .

وفي التعبير بالقوم استعطاف فكأنه يظهر لهم عطفه عليهم وإرادته مصلحتهم ، وذلك يقتضي منهم أن يصغوا إليه ويصدقوه .

---

(١)الآية رقم : ٦ . (٢) فصلت : ٤٠ .

(٣) من هنا بدأت المحاضرة الثالثة والعشرون في ١٣٨٤/٨/١١هـ وقد جاء في أول هذه المحاضرة زائر من خارج البلاد ليستمع لمحاضرة فضيلة شيخنا المفسر ، يرافقه مدير التعليم في منطقة المدينة وأمين عام الجامعة الإسلامية ، ويظهر من هذه المحاضرة ما يدل على تلك المناسبة ، وقد كان فضيلته يتحدث في محاضراته عندما يزوره ضيف بما يناسب المقام آخذاً ذلك من نفس الآيات التي يفسرها .

(٤) في تفسير الآية رقم : ٢٦ .

« ومَنْ » في قوله : « **من يأتيه** » فيها وجهان :

الوجه الأول : أنها مفعول به لتعلمون ، وهي عرفانية لا تنصب إلا مفعولاً واحداً ، كما قال ابن مالك في الألفية :

لعلم عرفان وظن تهمة تعدية لواحد ملتزمة

وتقرير المعنى : سوف تعرفون الذي يأتيه عذاب يخزيه أهو أنا أم أنتم ، فمن موصوله .

الثاني : أن « **من** » استفهامية مبتدأ ، والجملة بعدها خبر وتعلمون يقينية ، والمبتدأ والخبر محله النصب سد مسد مفعولي تعلمون ، فيكون من باب التعليق ، لأن الاستفهام يعلق الفعل القلبي عن العمل في اللفظ ، ويكون عاملاً في المحل ، وقد عقد هذا ابن مالك في الألفية بقوله :

.... والتزم التعليق قبل نفي ما
وإنْ ولا ، لام ابتداء أو قسم كذا والاستفهام ذاله انحتم

وكلا الوجهين جائز ، ولا تعارض بينهما ، فإن القاعدة عند المفسرين أن اللفظ إذا احتمل معنيين بدون أن يعارض أحدهما الآخر ، جاز اعتبارهما .

والإخزاء الإهانة ، يُقال : أخزاه يخزيه إذا أهانه وأذله ومقصود شُعيب بهذه العبارة أنكم ستعلمون عاقبة الأمر حين يأتيكم العذاب المخزى .

وإنما أدخل نفسه معهم في ظاهر الكلام تنزلاً ، وهو من الأساليب البلاغية ، كقوله تعالى:« **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين** »(١) .

وإنما قال لهم نبي الله شُعيب هذا الكلام ، لأنه لم يؤمر بقتالهم ، والأنبياء قسمـان :

قسم منهم يؤمر بقتال قومه المعاندين ، فينصره الله تعالى بالغلبة والظهور عليهم ، كما قال تعالى : « **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المُرسلين إنهم هم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون** »(٢) .

---

(١) سبأ : ٢٤ .
(٢) الصافات : ١٧٢ ، ١٧٣ .

وقسم منهم لا يؤمر بالقتال ، فيؤيده بالمعجزات ونزول العذاب على الكافرين ، فيهلكهم ، كما قص الله ذلك في قوم نوح وهود وصالح ولوط وشُعيب ، وغيرهم من الأنبياء الذين لم يؤمروا بالقتال .

ومما لا شك فيه أن المتمسك بدين الإسلام لا يقهر ولا يغلب ولا يذل إلا ، إذا ضيع الدين وقطع علاقته السماوية اختياراً منه .

ولقد كان الرسول ﷺ وأصحابه في أول الأمر في غاية من الضعف وقلة العدد والعُدد ، والناس إذ ذاك قد قاطعوهم اقتصادياً وسياسياً ، وكانت قُريش قد أجمعت أمرها في هذه الفترة العصيبة ضد المسلمين ، فألبوا عليهم الأحابيش واليهود ، كما قال تعالى :

« **إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنا لك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً** »[1] . ومع هذا الضنك كله وتلك الشدة العظيمة كان العلاج هو الإيمان والعلاقة السماوية ، كما قال تعالى :

« **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً** »[2] . فكان من نتائج ذلك أن نصر الله المؤمنين على الكافرين وأظهرهم عليهم ، كما قال تعالى : « **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرُّعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤها وكان الله على كل شيءٍ قديراً** »[3] .

فختم ذلك بالإعلام بقدرته تعالى ، أي إن كنتم ضعافاً في المادة فارجعوا إليّ فسأنصركم ، ولم يكن ما نصرهم الله به في حسبانهم ، ولا كانوا يتوقعونه ، إذ أرسل الله إلى عدوهم الريح ، وأنزل في قلوبهم الرُّعب ، وأعانهم عليهم بجنودٍ من

---

(١) الأحزاب : ١٠ ، ١١ . (٢) الأحزاب : ٢٢ . (٣) الأحزاب : ٢٥ — ٢٧ .

الملائكة ، كما قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً** »(١) .

والرسول ﷺ لما صده المشركون هو وقومه عن البيت في عام الحُديبية ، وكان الله تعالى قد اطلع على إيمانه وإيمان أصحابه وعلى إخلاصهم ـ وقد عبر عن ذلك كله باسم مبهم ـ قال تعالى عن ذلك : « **فعلم ما في قلوبهم** »(٢) . كان من نتائج ذلك الإيمان وذلك الإخلاص أن كافأهم فأقدرهم على ما لا قدرة لهم عليه ، كما قال تعالى :

« **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً** » إلى قوله تعالى : « **وأُخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيءٍ قديراً** »(٢) . أي فأقدركم لما علم من إخلاصكم .

وكل شر ينال المسلمين إنما هو من قبل أنفسهم ، ويُبين ذلك ما وقع لهم في غزوة أُحد ، فقد أصيب رسول الله ﷺ وأصحابه بقتل من قتل وجرح من جرح ، واستشكل ذلك بعض الصحابة ، فقالوا : كيف ينتصرون علينا ونحن على الحق وهم على الباطل ؟ كما قال الله تعالى : « **أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا** »(٣) . أي حينما أصابتكم مصيبة أحد ، قلتم : كيف جاءنا هذا ، وكيف انتصر أعداؤنا ؟ فرد الله تعالى عليهم وافتاهم فتوى سماوية لا تقبل التبديل ، فقال تعالى : « **قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيءٍ قدير** »(٣). وبين تعالى الداء ثم بين الدواء ، قال تعالى : « **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين** »(٤) .

---

(١) الأحزاب : ٩ .
(٢) الفتح : ١٨ ـ ٢١ .
(٣) آل عمران : ١٦٥ .
(٤) آل عمران : ١٥٢ .

والحس القتل الذريع ، فإنهم يوم أُحد انتصروا على الكفار وقتلوهم ، حتى ألقى لواء قُريش ، ولم ترفعه إلا امرأة منهم كما قال الشاعر :

ولولا لواء الحارثية أصبحوا   يباعون في الأسواق بيع الحلائل

ولكن لما أمرهم الرسول ﷺ بعدم مغادرة الجبل مهما كان الأمر فخالفوا أمره عندما رأو الهزيمة في الكفار ، فاختلفوا وتحولت طائفة منهم عن المكان الذي ألزمهم الرسول ﷺ البقاء فيه ، بين الله لهم أن التنازع وعدم الطاعة سبب الهزيمة .

فنور الله الإلٰهي وكتابه السماوي والصلة السماوية هي التي تحف المؤمنين بالخير ، وقطع الصلة بالله هو البلية كل البلية .

قوله تعالى : « **وارتقبوا إني معكم رقيب** » .

الأمر للتهديد ، والارتقاب من المراقبة ، التربص والانتظار ، وهذا كقول الله تعالى عن الرسول ﷺ : « **فتربصوا إنا معكم متربصون** »(١) .

« **ولما جاء أمرنا نجينا شُعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا** » . في قوله تعالى : « **جاء أمرنا** » قراءات : **الأولى** : بتحقيق الهمزتين ، **الثانية** : بإسقاط إحداهما ، وهذه قراءة نافع ، **الثالثة** : بإبدال **الثانية** ألفاً : والأمر واحد الأمور ، أي الشأن المقدر الأزلي المتضمن إهلاكهم وقد سبق انجاء الله تعالى الأنبياء واتباعهم برحمة الله لهم وعكسهم الكفار .

« **وأخذت الذين ظلموا الصيحة** » . أي أخذت قوم شُعيب الظالمين ، والصيحة مصدر صاح يصيح ، والمراد صيحة الملك بهم ، وقد ذكر الله لإهلاك قوم شُعيب ثلاثة أمور :

الأول : الصيحة ، كما هنا .

الثاني : الرجفة ، كما قال تعالى : « **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** »(٢) .

---

(١) التوبة : ٥٢ .   (٢) الأعراف : ٩١ .

الثالث : الظلة ، كما قال تعالى : « **فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة** »[1] .

ولهذا يرد هنا سؤال ، وهو أن يُقال : كيف اجتمعت هذه الأمور كلها عليهم ؟

والجواب أن المُفسرين على قسمين :

منهم من يقول : إن شُعيباً لم يرسل إلى أُمة واحدة ، وأهل الأيكة غير أهل مدين ، فأرسل إلى الأُمتين معاً ، وعلى هذا فالصيحة والرجفة وقعتا لأهل مدين ، وعذاب يوم الظلة وقع لأصحاب الأيكة ، والظلة كل ما ارتفع ، ومنه قوله تعالى : « **وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة** »[2] .

ومنهم من يقول : إن الأيكة ومدين كلها أُمة واحدة ، ولا مانع من وقوع ذلك كله بهم ، فيكون صاح بهم المَلَك ، فتزعزعت بهم الأرض من الصيحة ، فرجفت بهم ، ثم جاءت الظلة فأمطرت عليهم النار .

وهنا سؤال ، وهو ما وجه الفرق بين قوله تعالى في قوم صالح : « **وأخذ الذين ظلموا** » . بلا تاء ، وبين قوله هنا :« **وأخذت الذين ظلموا** » بالتاء ؟

والجواب : أن ذلك من التفنن في الكلام ، وهو جائز ، وله مجوزات :

الأول : الفصل بين الفاعل وفعله ، كما قال ابن مالك في الألفية :

وقد يبيح الفصل ترك التاء في ... نحو أتي القاضي بنت الواقف

الثاني : كون الفاعل ليس مؤنثاً حقيقياً ،ولا ضميراً لمؤنث ، والتاء إنما تلزم فيهما ، كما قال ابن مالك في الألفية :

وإنما تلزم فعل مضمر ... متصل أو مفهم ذات حر

« **فأصبحوا في ديارهم جاثمين** » ، ديار جمع دار ، أصل يائها واو بدليل

---

(١) الشعراء : ١٨٩ . (٢) الأعراف : ١٧١ .

تصغيرها على دويرة ، والجثوم الانكباب على الوجه ، أي أكبتهم الصيحة على وجوههم موتى .

« **كأن لم يغنوا فيها** » . كأن مخففة من الثقيلة ، اسمها ضمير شأن محذوف والجملة بعدها خبر ، أي كأنه الأمر والشأن ، قال ابن مالك في الألفية :

وخففت كأن أيضاً فنوى منصوبها ....

ومعنى « **يغنوا** » يقيموا ، أي كأنهم لم يقيموا فيها ولم يسكنوها .

« **ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود** » . ألا للاستفتاح ، وسبق الكلام عليها[١] والبُعد الهلاك ، أي هلاكاً لقوم شُعيب كهلاك قوم صالح ، وهم ثمود ، لاشتراكهم في العلة ، وهي الكفر بالله وتكذيب رُسُله .

---

(١) في تفسير الآية : ٦٨ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ
قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾
وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

١٠ـ موقف فرعون ملئه من دعوة موسى وعاقبتهم في الدنيا والآخرة

قوله تعالى : « **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسُلطان مبين** » .

صيغة الجمع في قوله : « **أرسلنا** » للتعظيم ، والآيات المعجزات ، وهي تسع ، كما قال تعالى : « **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات** »[1] . وقال تعالى : « **وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين** »[2] .

وقال تعالى ذاكراً بعض تلك الآيات : « **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات** »[3] .

وقد ذكرها الله تعالى في آيات كثيرة .

والسلطان الحجة الواضحة التي لا تدع لبساً ، المبين البين الواضح ، كالعصا التي تكون ثعباناً ، واليد التي تكون بيضاء بلا برص ، كأنها قطعة من الشمس .

واختلف في « **فرعون**» فقيل اسم عجمي ، وقيل عربي ، وزنه فِعْلَول ، من تفرعن يتفرعن ، إذا كان ذا مكر شديد ودهاء ، وعلى هذا يرد إشكال ، وهو : ما المانع له من الصرف ، وهو مذكر غير عجمي ؟ .

---

(١) الاسراء : ١٠١ . (٢) النمل : ١٢ . (٣) الأعراف : ١٣٣ .

والجواب أن بناء فِعْلَول مشابه للأسماء الأعجمية ، والمشابه للشيء قد يأخذ حكمه .

« إلى فرعون وملائه » .

الملأ الأشراف والسادة ، فهم أخص من الجماعة ، لأن غيرهم تبع لهم .

« فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد » .

ادعى فرعون أنه إلٰههم من دون الله ، كما قال تعالى عنه : « **وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلٰه غيري** »[1] . وقال : « **فقال أنا ربكم الأعلى** »[2] .

ووصف ذلك بأنه رُشد ، كما قال تعالى : « **قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد** »[3] . وأظهر لقومه أن ذلك هو الدين الذي يجب أن يتمسكوا به وأنه خائف أن يبدله موسى بدعواه الرسالة . كما قال تعالى عنه : « **وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يُبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد** »[4] .

فهذا هو أمر فرعون الذي دعا إليه قومه ، وكانوا ضعفاء عقول ، يتبعون ما يقول لهم ويأمرهم به مع وضوح ضلاله وفساده لخفة عقولهم ، كما قال تعالى : « **فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين** »[5] . أي دعاهم إلى ضلال فاستجابوا له وتركوا أمر الله تعالى ، ولهذا نفى الله عن فرعون ما أثبته هو لقومه ، فقال تعالى : « **وما أمر فرعون برشيد** » .

يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود » .

هذا كالتعليل لنفي الرشاد عن أمر فرعون ، لأنه لو كان فيه رُشد لما كان القائد لقومه وأتباعه إلى جهنم ، وفي قدم لغات :

الأولى : قَدَمَ يَقْدُم ، ككرم يكرم ، ومنه قوله تعالى : « **حتى عاد كالعرجون القديم** »[6] .

---

(١) القصص : ٣٨ . (٢) النازعات : ٢٣ . (٣) غافر : ٢٩ .
(٤) غافر : ٢٦ . (٥) الزخرف : ٥٤ . (٦) يس : ٣٩ .

الثانية : قدِم يَقْدَم كفرح يفرح ، إذا جاء من سفره .

الثالثة : قَدَم يَقدُم ، كنصر ينصر إذا مشى أمام قومه ومنه قوله تعالى هنا : « **يقدم قومه** » ، ومنه قول العباس :

تحت اللوامع والضحاك يقدمنا   كما مشى الليث في غاباته خضر

وهذا إنما كان لفرعون جزاء وفاقاً ، فإنه كان يرأس قومه في الكفر ، فصار إمامهم إلى النار يقودهم إليها .

ومعنى « **فأوردهم النار** » أدخلهم فيها .

والنار ألفها بدل من الواو ، أصلها نَوَر ، بدليل تصغيرها على نويرة ، ورد الواو عند تضعيف فعلها ، فيُقال : تنورت ، كما قال امرؤا القيس :

تنورتها من أذرعات وأهلها   بيثرب أدنى دارها نظر عال

قيل : وهي من الارتفاع ، أصلها من نارت الظبية إذا ارتفعت جافلة ، كما قال الشاعر :

فتنورت نارها من بعيد   بخزاز هيهات عافستك السلاء

و « **بئس** » لانشاء الذم ، وهي فعل ماض ، وشذ من زعم أنها اسم ، لدخول حرف الجر عليها في قول بعضهم : « **على بئس العير** » لأن الكلام على تقدير قول محذوف ، أي على عير مقول فيه : بئس ..

و « **الورد** » الشيء الذي يُورَد ، وهو كالقِتْل بمعنى المقتول و « **المورود** » كالتأكيد له .

« **وأتبعوا في هذه لعنة** » الإشارة إلى الدنيا المفهومة من السياق ، بدليل قوله تعالى في قوم هود : « **وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة** »[1] . أي جعلت تابعة لهم كما يتبع الظل صاحبه ، وهذا من الخزى العظيم الذي يلازمهم في كلا الدارين ، فهم كما قيل :

---

(١) سبقت برقم : ٦٠ .

وكنت إذا نزلت بلاد قوم رحلت بخزية وتركت عارا

ولهذا قال تعالى : « **ويوم القيامة** » أي كذلك أتبعوا اللعنة يوم القيامة ، وإنما سمى هذا اليوم بيوم القيامة ، لما ذكر الله من أن الناس يقومون فيه لربهم ، كما قال تعالى : « **يوم يقوم الناس لرب العالمين** »(١) .

ومجيء التاء في آخره جائز وكثير ، لأن الأجوف الواوي الذي مصدره على فِعَال يكثر فيه ذلك ، كالحياكة والخياطة والحيازة .

(٢) وكما أن الله لعنهم في الدارين لعنة ملازمة لهم حيثما حلوا وأينما ارتحلوا طرداً وإبعاداً من رحمته ، فكذلك يلعنهم اللاعنون من عباده ، كما بينها الله تعالى في آيات أُخرى ، فقال جل وعلا في الكفار عموماً : « **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين** »(٣) .

وقوله : « **ويوم القيامة** » عطف على قوله : « **في هذه** » ، وإنما نصب لأنه مضمن معنى في ، التي إن وُجدت مع الظرف لفظاً جرته ، وإن لم توجد لفظاً نصب ، كما قال ابن مالك في الألفية :

الظرف وقت أو مكان ضمنا في باطراد كهنا امكث أزمنا

وقوله تعالى : « **بئس الرفد المرفود** » بئس فعل جامد لإنشاء الذم ، والرفد العطاء والإعانة ، فيُقال : رفدته إذا أعطيته وأعنته .

كما قال طرفة :

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد

والمرفود الموهوب المعان ، فكأنه جعل اللعنة عطاء وإعانة لهم ، وهذا أسلوب عربي ، جار على غرار قوله تعالى : « **وإن يستغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه بِئس الشراب وساءت مرتفقا** »(٤) .

---

(١) سورة المطففين : ٦ .
(٢) من هنا بدأت المحاضرة الرابعة والعشرون في ١٣/٨/١٣٨٤هـ .
(٣) البقرة : ١٦١ .
(٤) الكهف : ٢٩ .

وهنا سؤال لطالب العلم ، وهو أن يُقال : كيف يطلق على اللعنة عطاء ، وهي طرد وإبعـاد ؟والجواب أنه ليس لهم غير اللّعنة شيء يعطونه وقد أطلق على الماء الحار الذي يمزق أمعاءهم أنهم عندما استغاثوا أغيثوا به ، ولا فرق بين الإعانة والإغاثة والعطاء ، وهو أسلوب عربي كما سبق ، ومن أمثلته في القرآن غير ما تقدم قوله تعالى : « **إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذابٍ أليم** »[1] . وقوله تعالى : « **ذق إنك أنت العزيز الكريم** »[2] .

والبلاغيون يطلقون على مثل هذا أنه استعارة عنادية ، ومعناها المضادة والمناقضة ، والعلاقة فيها المناقصة بين الأصل والفرع ، وهي قسمان : تهكمية كما في هذه الآيات ، وتلميحية ، ومن أمثلتها أن يُقال للبخيل : هذا أجود من حاتم ، ليُضحَك عليه ، ومن التهكمية قول الشاعر :

وخيل قد دلفت لها بخيل تحيـة بينهم ضرب وجيـع

وبعضهم يقول : الرفد بالفتح الإناء ، وبالكسر الشراب الذي فيه ، وهذا ـ وإن كان استحسنه بعضهم ـ مستبعد ، والأول أظهر .

والمخصوصَ بالذم محذوف والتقدير : رفدهم ، وهو اللعنة .

(١) آل عمران : ٢١ .

(٢) الدخان : ٤٩ .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ
مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾
وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ
أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ
ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا
نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ
إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي
ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ
﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾
فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ
ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ﴿١٠٩﴾
وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ
سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ
﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ

خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ
إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ
لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ
ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ
﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا
كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ
فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ
رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾
وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ
﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ
عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ
ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ
﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ
فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

١١ - العبرة من قصص الأنبياء ومواقف قومهم منهم

قوله تعالى : « **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك** » . الأنباء جمع نبأ ، وهو الخبر الذي له شأن ، والأفعال من صيغ جمع القلة ، ولكن الأصوليين في مبحث العموم نصوا على أن النحويين لم يحققوا في ذلك لإطلاقهم أن تلك الضيغ ـــ أعني صيغ جموع القلة ـــ تدل على القلة مطلقاً ، والتحقيق أنها تدل على القلة في حال كونها منكرة ، وأما إذا أضيفت إلى معرفة ، أو دخلت عليها أل الاستغراقية فإنها تعم .

و « **القرى** » تطلق على الأبنية وعلى الساكنين بها ، ومعنى « **نقصه عليك** » نخبرك به إخباراً مفصلاً .

« **منها قائم وحصيد** » الضمير في « **منها** » يعود إلى القرى ، أي من تلك القرى قائم ومنها حصيد ، والحصيد فعيل بمعنى مفعول ، أي محصود ، شبهت بالزرع في ذلك .

ومعنى : « **منها قائم** » أي من القرى ما هو باق أثره وبناؤه ولم ينطمس ، وقوله : « **حصيد** » أي ومنها متلاش منطمس الأثر ، وقيل القائم بعض القرى المسكونة ، والحصيد القرى التي خربت ، وإذا أريد التعبير عن بقاء شيء وفناء آخر عبر عنه بقائم وحصيد ، تشبيهاً بالزرع ، قال الشاعر :

والناس في قسم المنية بعضهم   كالزرع منه قائم وحصيد

ومن الآثار التي تدخل تحت : « **حصيد** » **آثار قوم نوح** ..

« **وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم** » . أي ذلك الهلاك الذي استأصل القرى الظالمة ، كعذاب قوم نوح بالغرق ، وقوم هود بالريح ، وقوم صالح

بالصيحة ، وقوم لوط بقلب ديارهم ورميهم بالحجارة ، وقوم شُعيب بالرجفة والصيحة والظلة ، كل ذلك لم نفعله بهم ظُلماً منا ، بل هم الذين عرضوا أنفسهم لسخط الله وعذابه ، حيث كفروا بربهم وكذبوا رُسُله ، فاستوجبوا العذاب والسخط بظُلمهم .

« **فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء** » .

لما كان الكفار الظالمون يتمردون على ربهم ويزعمون مع ذلك أن آلهتهم ستنصرهم وتدفع عنهم الضر وتجلب لهم النفع جزاهم الله جزاء وفاقاً ، ولهذا لما يحيط بهم عذابه وينزل بهم سخطه لا يغني عنهم شيء مما كانوا ينزلونه منزلة الإله الخالق في صرف العبادة له من دون الله تعالى .

و « **أغنت** » من الغناء بالفتح وهو النفع ، أي ما نفعت .

والآلهة جمع إله ، وأصله أأْلِهَة ، قلبت الهمزة الثانية ألفاً لتجانس الفتحة قبلها ، كما قال ابن مالك في الألفية :

ومدا ابدل ثاني الهمزين من كِلْمة إن يسكن كآثر وائتمن

وهذه الصيغة من جموع القلة ، وقد سبق أن صيغ جموع القلة إنما تدل على القلة إذا كانت منكرة ، والصيغة هنا مضافة إلى معرفة فتعم ، أي كل آلهتهم التي كانوا يعبدونها .

ومعنى : « **يدعون** » يعبدون ، وحذف العائد إلى الموصول ، وهو مفعول يدعون ، والأصل : يدعونها ، وحذف مثل هذا جائز لأنه منصوب بالفعل ، كما عقده ابن مالك في الخُلاصة بقوله :

.... والحذف عندهم كثير منجلى
في عائد متصل إن انتصب بفعل أو وصف كمن نرجو يهب

« **من دون الله** » أي غيره « **من شيء** » أي شيئاً ، وإنما زيدت « **من** » قبل النكرة المنفية للتنصيص على عموم النفي .

« **لما جاء أمر ربك** » لما ظرف بمعنى حين ، والأمر الشأن فهو واحد الأمور ، أي حين جاء شأنه وحكمه وقضاؤه .

« **وما زادوهم غير تتبيب** » الواو ــ فاعل زاد ــ عبارة عن الآلهة ، وهنا قد يسأل طالب العلم سؤالاً ، وهو : لم عبر بالواو عن الآلهة ، وهي مختصة بالعُقلاء ؟

والجواب : أنها جعلت للأصنام نظراً لمجارات أذهان الكُفار حيث لم يتنبهوا لكونها جمادات فعبدوها من دون الله .

والتتبيب من التباب ، وهو الهلاك ، يُقال : تبا لفلان أي هلاكاً وخسراناً ، وتبه الله أهلكه وخسره .

(وهنا سُئل الشيخ ألا يستغنى عن هذا الجواب بكون الآلهة قد تكون من العُقلاء ؟) فقال : إن الأكثر من المعبودات جمادات ، ثم هذا الجواب إن تأتى في هذه الآية لم يتأت في مثل قوله تعالى : « **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون** »(١) . فإن المراد بها الأصنام ولو كان المراد بها عقلاء لأجاب الكفار : نعم لهم ، مع أنه ينكر عليهم ذلك ، وقد عبر عنهم بالواو كما ترى .

ومن إطلاق التباب بمعنى الهلاك والخسران قوله تعالى : « **وما كيد فرعون إلا في تباب** »(٢) .

« **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة** » . أي مثل ذلك الأخذ الشديد العظيم الهائل المستأصل الذي أخذ به قوم نوح وقوم هود وقوم لوط وقوم صالح وقوم شُعيب ، أخذ ربك إذا أخذ القرى ، وأخذ مصدر مضاف إلى فاعله ، ومفعوله محذوف ، أي الظالمين المتمردين ، والمراد بالقرى أهلها الظالمون ، وجملة : « **وهي ظالمة** » في محل نصب حال .

(١) الأعراف : ١٩٤ ، ١٩٥ .   (٢) غافر : ٣٧ .

« **إن أخذه أليم شديد** » . أي شديد النكال .

وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد »(١) .

فالله سبحانه وتعالى يُمهل الظالمين ولا يُهملهم ، كما قال تعالى : « **ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار** »(٢) .

« **إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة** » .

الإشارة إلى ما ذكر من أخذه للقرى الظالمة ، ويدخل فيه أخذه لفرعون دخولاً أولياً لقربه في الذكر والسياق ، وقد أخذه الله أخذاً شديداً حيث أغرقه في البحر ، أي إن في ذلك الأخذ لعبرة عظيمة ، يعتبر ويتعظ وينزجر بها من عنده عقل يخاف عذاب الآخرة ، وهي عبرة لكل الناس إذا تفكروا فيها ، وإنما خص الخائفين لأنهم هم المنتفعون ، وقد خصهم بالتذكير في قوله تعالى : « **فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** »(٣) . وقال تعالى : « **إنما أنت منذر من يخشاها** »(٤) . وقال تعالى : « **إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرةٍ وأجرٍ كريمٍ** »(٥) .

وقد أبهم الله تعالى ما صرح به هنا من أن المراد بالخوف خوف عذاب ذلك اليوم ، قد أبهمه في سورة النازعات في قوله تعالى : « **إن في ذلك لعبرة لمن يخشى** »(٦) . فالمحذوف في سورة النازعات هو ما صرح به هنا ، والتقدير : يخشى عذاب الآخرة ، كما أشار إلى ذلك في سورة الذاريات بقوله : « **وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين**(٧) .

---

(١) البخاري (٥/٢١٤) ومسلم (٤/١٩٩٧) .
(٢) إبراهيم : ٤٢ .
(٣) ق : ٤٥ .
(٤) النازعات : ٤٥ .
(٥) يس : ١١ .
(٦) النازعات : ٢٦ .
(٧) الذاريات : ٣٧ ، ٣٨ .

« ذلك يوم مجموع له الناس » .

الإشارة إلى زمن العذاب المحذر منه المخوف منه ، المشار له بالآخرة ، ونُكّر « **يوم** » تهويلاً وتعظيماً ، أي شديد عصيب ، واللام في قوله : « **له** » فسرها بعضهم بأنها بمعنى في ، وقال بعضهم : إنها للتعليل ، أي لأجله ، وقوله : « **مجموع** » نعت لـ « **يوم** » ، و « **الناس** » نائب فاعل مجموع ، والمعنى : إن الله تعالى يجمع فيه الأولين والآخرين في صعيد واحد ، ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي ، قال تعالى : « **قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم** »(١) . وقال تعالى : « **الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً** »(٢) . وذلك هو الحشر الذي ذكر الله تعالى أنه لا ينجو منه أحد ، كما قال تعالى : « **ويوم نُسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نُغادر منهم أحداً** »(٣) . وقال تعالى : « **ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاءُ قدير** »(٤) .

« **وذلك يوم مشهود** » . أي(٥) محضور ، يشهده الملائكة والخلائق كلهم ، كما قال تعالى : « **كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً وجاء ربك والملك صفاً صفاً** »(٦) . وقال تعالى : « **ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين** »(٧) .

والذين يخافون عذاب الآخرة الذي حذر الله منه في هذه الآيات وغيرها إنما هم العلماء ، كما نص تعالى على قصر الخوف منه عليهم ، فقال : « **إنما يخش الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور** »(٨) .

وكلما كان العبد أكثر علماً بالله كان أكثر خوفاً منه ، وأعظم خشية من

---

(١) الواقعة : ٤٩ ، ٥٠ . (٢) النساء : ٨٧ .
(٣) الكهف : ٤٧ . (٤) الشورى : ٢٩ .
(٥) من هنا بدأت المحاضرة الخامسة والعشرون في ١٦/٨/١٣٨٤هـ .
(٦) الفجر : ٢١ — ٢٢ . (٧) سورة المطففين : ٥ — ٦ .
(٨) فاطر : ٢٨ .

عقابه ، وقد سبق أن سبب تخصيص كون تلك العبر التي قصها الله في هذه السورة آية بالخائفين ، أنهم ينتفعون بها ، وإلا فهي آية للأسود والأحمر ، ومثل هذا تخصيص كون القرآن هدى للمؤمنين ، مع أنه هدى لهم وغيرهم ، كما قال تعالى : « **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين** »(١) .

فالقرآن صالح للناس كلهم ولكن المنتفع الحقيقي به هم المؤمنون ، لذلك خصهم الله بأنه هدى ورحمة لهم . وأما أعداء الله الكفار فلا يزدادون به إلا بُعداً ، لعدم إيمانهم به ، كما قال تعالى : « **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاءٌ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمى أولئك يُنادون من مكان بعيد** »(٢) . وقال تعالى : « **وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكُفراً** »(٣) . وقال تعالى : « **وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون** »(٤) . وغير ذلك من الآيات .

فهذه الآيات تُبين أن من طلب الهُدى هداه الله وزاده إيماناً ومن ابتعد عن الله زادته آيات القرآن شراً على شره .

وأصل الناس من الأرض ، والأرض متفاوتة في النفع إذ انزل بها المطر ، وكذلك الناس ، وقد قال الله تعالى في الأرض : « **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نُصرف الآيات لقوم يشكرون** »(٥) .

فكما أن المطر يخرج الثمار وينبت الأشجار وغيرها من عجائب جنات الأرض وبساتينها فكذلك نور الإيمان والقرآن يوجد الهداية في القلوب الطيبة الطاهرة ، كما يدل لهذا حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقية ، قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير ، وكانت منها

(١) يونس : ٥٧ . (٢) فصلت : ٤٤ .
(٣) المائدة : ٦٤ . (٤) التوبة : ١٢٥ .
(٥) الأعراف : ٥٨ .

أجادب ، أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أُخرى إنما هي قيعان ، لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً ، فذلك مثل من فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »[1] .

قوله تعالى : « **وما نؤخره إلا لأجل معدود** » . أي ما أخرنا ذلك اليوم إلا لأجل ، أي لوقت ، « معدود » أي محدود مضبوط في غاية الدقة ، كما قال تعالى : « **قد جعل الله لكل شيء قدراً** »[2] . وفي هذا رد على تكذيب الكفار بذلك اليوم واستعجالهم له ، كما قال تعالى : « **ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون** »[3] .

فالأجل الأمد ، والمعدود المحسوب بإتقان لا يزيد ولا ينقص — ويعبر بالمعدود في لغة العرب عن الشيء القليل ، كما قال تعالى في ثمن يوسف : « **وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين** »[4] . ولا شك في قُرب الساعة كما دل على ذلك القرآن في آيات كثيرة ، كما في قوله تعالى : « **وما يدريك لعل الساعة قريب** »[5] . وقال تعالى : « **اقتربت الساعة وانشق القمر** »[6] .

« **يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهُم شقي وسعيد** » .

في يأتي قراءتان : إثبات الياء في الوصل وإسقاطها في الوقف ، وإسقاطها في الوصل والوقف . وهي تحذف ويكتفَى عنها بالكسرة ، ومنه قول الشاعر :

(كفَّاك كفٌّ ما تُلِيـــق دِرهماً جُوداً) وأُخرى تعط (بالسيف الدِّما)[7]

كما أن الواو كذلك تحذف ويكتفَى عنها بالضم ، كما في قوله تعالى : « **سندع الزبانية** »[8] .

---

(١) صحيح البخاري (١/٢٨) وصحيح مسلم (٤/١٧٨٧) .
(٢) الطلاق : ٣ . (٣) الحج : ٤٧ . (٤) يوسف : ٢٠ . (٥) الشورى : ١٧ . (٦) القمر : ١
(٧) لم أدرك مع الشيخ إلا محل الشاهد : وأخرى تعط ، وقد وجدت البيت في تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/١١٦) لابن جرير الطبري ، والبحر المحيط لابن حيان (٥/٢٦٢) .
(٨) العلق : ١٨ .

« **لا تكلم** » أصله : تتكلم ، حذفت منه إحدى التائين على حد قول ابن مالك في الخُلاصة :

وما بتائين ابتدى قد يقتصر فيـه على تا كتـبين الـعبر

وللنحويين خلاف في : هل المحذوفة هي التاء الأولى التي هي حرف المضارعة أو الثانية التي هي تاء الفعل الذي على وزن تفعل ؟ فمن حذف الأولى قال : إن الثانية لهاشبه أصالة ، لأنها موجودة في نفس الكلمة قبل دخول حرف المضارعة ، ومن حذف الثانية ، قال : إن حرف المضارعة إنما جيء به لمعنى ، فلا يسوغ حذفه . (قال الشيخ) : وأنا أقول : الله تعالى أعلم : فإن مثل هذا أشبه شيء بحلم الأبكم[1] .

والمراد أنه في ذلك اليوم لا يتكلم أحد بدون إذن المولى جل وعلا لشدة الخوف منه ، قال تعالى : « **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً** »[2] . ولا يتكلم في ذلك اليوم إلا المأذون له من الله تعالى كما هو واضح من آية هود هذه ، وكما في قوله تعالى : « **يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً** »[3] .

وهنا يرد إشكالات :

أولاً : أنه تعالى هنا أثبت أنهم يتكلمون بالإذن ، وقد نفى في آية أُخرى نطقهم والإذن لهم ، كما قال تعالى : « **هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون** »[4] .

ثانياً : أنه قال في سورة النبأ : « **إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً** » . فقيد كلامهم بأمرين ، وهما الإذن وقول الصواب .

والجواب : أن يوم القيامة يوم طويل ، كما قال تعالى : « **ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون** »[5] . ومواقفه متعددة ، ومواطنه كثيرة ،

---

(١) يقصد أنه لا توجد قرينة يمكن الاستدلال بها على تعين المحذوف . كما أن الأبكم لا قدرة له على حكاية حلمه .(٢) طه : ١٠٨ . (٣) النبأ : ٣٨ . (٤) المرسلات : ٣٥ ، ٣٦ .(٥) السجدة : ٥ .

فالمثبت يمكن أن يكون في موطن ، والمنفي في موطن آخر ، كالحوادث التي تقع في عمر الإنسان الطويل ، فالفعل الواقع في اليوم يصدق بأوله وآخره ووسطه ، فالكافرون في بعض المواطن ، لا يؤذن لهم إلا بقول الصواب فقط كما نصت عليه آية النبأ ، وتارة يتكلمون بالصواب وبغير الصواب ، بإذن الله ، كما قال تعالى : عنهم : « **الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون** »[١] . وقال تعالى : « **ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين** »[٢] . وقال تعالى : « **ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين** »[٣] .

ووقوع الفعل في مطلق الظرف لا يلزم منه أن يستغرق كل الوقت ، ولا يتحقق التناقض بين القضيتين إلا في اتحاد الزمن ، والظرفية الزمانية والمكانية تقتضي جزء فقط .

« **فمنهم شقي وسعيد** » .

فمنهم أي الناس الذين ذكروا في قوله : « **ذلك يوم مجموع له الناس** » . والشقي على فعيل ، أصل لامه واو بدليل قولهم : الشقوة ، كما في قوله تعالى : « **قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا** »[٤] .

والشقي من كتب عليه الشقاء أزلاً عند الله تعالى ، فإنه جل وعلا قدر مقادير الخلق قبل أن يوجدوا ، وصرّف مشيئاتهم وأعمالهم إلى ما كتب ، ولما سأل بعض أصحاب الرسول ﷺ عن العمل ، أهو خطة مدبرة قد فرغ منها أم هو أنف ، قال ﷺ : « **لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير** » . قيل له : ففيم يعمل العاملون ؟ قال : « كل ميسر لما خلق له »[٥] .

(وسُئل الشيخ هنا ، فقيل له : يبقى الإشكال بين قوله ﷺ : « رفعت

---

(١) النحل : ٢٨ .
(٢) غافر : ٧٣ ، ٧٤ .
(٣) الأنعام : ٢٣ .
(٤) المؤمنون : ١٠٦ .
(٥) الحديث في صحيح مسلم (٢٠٤٠/٤ ـ ٢٠٤١) .

الصحف وجفت الأقلام ، وبين قوله ﷺ في حديث آخر : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » . فالحديث الأول يدل على سبق القدر وأن الإنسان لابد عامل بما كتب في الأزل ، وهذا يدل أن الإنسان قد يعمل عمل أهل النار ، ثم يسبق عليه الكتاب فيتحول إلى عمل أهل الجنة أو العكس ، فأجاب فضيلته قائلاً) : هذا الإشكال تزيله زيادة في الحديث الأخير ، وهي في الصحيح بلفظ : « إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار ، فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة »[1] .

فقد يبدو الرجل عاملاً عمل أهل الجنة وهو في الواقع من أهل النار على ما سبق به الكتاب في الأزل ، وقد يبدو عاملاً عمل أهل النار وهو في الواقع من أهل الجنة على ما سبق به الكتاب في الأزل ، فلا منافاة .

« **فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق** » . أي كتبت عليهم الشقاوة الأزلية ، قيل : المراد الشقاء الأكبر ، فالمراد بهم الكافرون ، وقيل يشمل الشقائين : الأكبر والأصغر ، فيدخل في ذلك عصاة المؤمنين ، وقوله : « **ففي النار** » أي فهم في النار .

والمقرر عند سيبويه أن « **أما** » مضمنة معنى أداة الشرط وفعله ، ولا يكون جوابها صالحاً لأن يجاب به الشرط وحده ، بل لابد من الفاء ، والتقدير : مهما يكن من شيء ، وقد أشار إلى هذا ابن مالك في الألفية بقوله :

أما كمهما يك من شيء وفا   لتلو تلوها وجوباً ألفا

ونار الآخرة لو شددت نار الدنيا إلى منتاها ، لكانت نار الآخرة أشد منها بسبعين ضعفاً ، وهي مسودة مظلمة يحطم بعضها بعضاً ، وألف نار أصلها واو ،

(١) الحديث الأخير في صحيح البخاري (١٨٨/٨) ومسلم (٢٠٣٦/٤) والزيادة في مسلم (٢٠٤٢/٤) .

بدليل تصغيرها على نويرة على حد قول ابن مالك في الألفية :

واردد لأصل ثانياً ليناً قلب   فقيمة صير قويمة تصب

وبدليل تضعيفها ، فإنه كالتصغير يرد الأشياء إلى أصلها ، وقد مضى شاهده[١] .

والزفير من زفر ، وهو في الأصل ارتفاع النفس بقوة ، ومنه قول الشاعر :

وحملت زفرات الضحى فأطقتها   ومالي بزفرات العشى يدان

وقول الآخر :

....   وزفرات البازل العجعاج

والشهيق ترديد النفس في الصدر ، ويُفرق العلماء بينهما بنهاق الحمار ، فالزفير هو ما يحصل في أول نهاقه ، حيث يصيح بقوة والشهيق في آخره ، فإنه يردده في صدره[٢] .

وقيل فيهما — أي في الزفير والشهيق — غير هذا ، ولكن هذا أظهر التفاسير ، وهذا يدل على أن أصواتهم مزعجة لشدة ما يحصل لهم من العذاب .

« **خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك** » .

« **خالدين** » حال ، و « **ما** » مصدرية ظرفية ، أي مدة ديمومة السموات والأرض .

وفي هذه الآية إشكالان :

الأول : تقييد الخلود بديمومة السموات والأرض .

---

(١) في تفسير الآية : ٩٨ « فأوردهم النار » .

(٢) لم أجد شاهداً فيما كتبت عن الشيخ ، ولعله فاتني ، لأن الغالب عليه الاستشهاد ، وقد ذكر ابن جرير في تفسيره (١١٦/١٢) شاهداً لذلك من قول رؤبة بن العجاج ، وهو :

حشرج في الجوف سحيلاً أو شهق   حتى يقال ناهق وما نهق

الثاني : الاستثناء في قوله : « **إلا ما شاء ربك** » .

والجواب : على الإشكال الأول من وجهين :

الوجه الأول : أن ذلك جار على عادة العرب ، إذا أرادوا أمراً مؤبداً ، قالوا : هو واقع ما دامت السموات والأرض ، أي أبداً بلا انقطاع ، ومثله قولهم : ما طلع نجم ..

الوجه الثاني : أنه لابد من مكان لأهل الجنة ومكان لأهل النار في الآخرة ، كما أنه لابد من شيء يظل هؤلاء وآخر يظل أولئك ، فما يقلهم يُسمى أرضاً ، وما يظلهم يُسمى سماء ، فالمراد مدة ديمومة السموات والأرض ، أي سموات الآخرة وأرضها ، أما هذه الأرض وهذه السماء ــ أي أرض الدنيا وسماؤها ــ فقد نص الله تعالى على تغييرها وتبديلها ، كما قال تعالى : « **يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار** »[1] .

أما الجواب على الاشكال الثاني :

فإنا نذكر أولاً الأدلة المتعارضة ، ثم نجيب على ذلك .

فقد دلت ثلاث آيات في القرآن على هذا المعنى ، وهو استثناء خلود أهل النار .

الآية الأولى : هي هذه التي عندنا في هذه السورة .

الثانية : في سورة الأنعام ، وهي قوله تعالى : « **قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم** »[2] .

الثالثة : في سورة النبأ ، وهي قوله تعالى : « **لابثين فيها أحقاباً** »[3] . و « **أحقاباً** » ظرف منكر يفهم منه أنه ينتهي في وقت ما .

هذه الآيات دالة على الاستثناء في خلود أهل النار .

أما الأدلة على الخلود الأبدي ، فستأتي من خلال الجواب إن شاء الله .

---

(١) إبراهيم : ٤٨ . (٢) الأنعام : ١٢٨ . (٣) النبأ : ٢٣ .

والجواب الحق أن أهل النار الكفرة خالدون فيها خلوداً لا انقطاع له البتة ، والاستثناء بالمشيئة كما صرح به في أهل النار صرح به كذلك في أهل الجنة ، مع أنه لا يقول أحد ممن يقول بانقطاع النار بانقطاع الجنة ، كما قال تعالى هنا في سورة هود : « **خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاءً غير مجذوذٍ** » .

وهذه المشيئة مجملة لم نعرف ما أخرجته ، والأدلة المنفصلة وضحت أن المشيئة اقتضت الخلود الأبدي ، كما قال تعالى في أهل الجنة : « **إن هذا لرزقنا ما له من نفاد** »(١) . وقال تعالى : « **ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** »(٢) . وقال تعالى : « **إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون** »(٣) . وقال تعالى : « **والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً** »(٤) . وقال تعالى : « **خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون** »(٥) . وقال تعالى : « **مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً** »(٦) .

والفعل بعد « **كلما** » يتكرر بتكررها ، فمن ادعى خبوة للنار نهائية تفنى بها ليس بعده سعير ، يرد عليه بهذه الآية .

ولو قيل للعبد : كلما جاء أحد أكرمه لزمه ذلك ولاحق له أن يعتذر بأنه لم يفهم التكرار .

وقد زعم ابن القيم ، رحمه الله أن النار تفني عندما ناقش الأدلة في كتابه : « **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح** » وأيد رأيه بأن الله تعالى لا يخلف الميعاد ، بخلاف الوعيد فإنه لم يأت ما يدل على أنه لا يخلفه ، وخلف الوعيد من الصفات المحمودة ، كما قال الشاعر :

وإني وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

---

(١) ص : ٥٤ . (٢) النحل : ٩٦ . (٣) الزخرف : ٧٤ ـــ ٧٥ .
(٤) الفرقان : ٦٥ ، أي دائماً ملازماً لأهله . (٥) البقرة : ١٦٢ ، آل عمران : ٨٨ .
(٦) الاسراء : ٩٧ .

وكأن ابن القيم في أثناء كلامه يتحدى من يقول : إن الله أخبر أنه لا يخلف وعيده[1] .

وما قاله مردود من وجوه :

الوجه الأول : أنا لو تمسكنا بما ذكر لجاز أن يُقال : لا يدخل النار كافر ، لجواز إخلاف الإيعاد ، وهذا خلاف ما دلت عليه النصوص وما فهمه العلماء .

الثاني : أننا لا نسلم أنه ليس في كتاب الله ما يدل على أنه لا يخلف وعيده بالنسبة للكفار ، بل صرحت الأدلة بلزومه ، كما قال تعالى : « **قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد ما يُبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد** »[2] . فقد صرح أنه لا يبدل قوله ، وذلك هو وعيده كما هو ظاهر ، وقال تعالى : « **كل كذب الرُسُل فحق وعيد** »[3] . أي ثبت ووجب ، والفاء للتعليل ، فكل مكذب لابد أن يحق عليه ذلك وقال تعالى : « **إن كل إلا كذب الرُسُل فحق عِقاب** »[4] .

والوعيد الذي يجوز إخلافه هو وعيد عصاة المؤمنين المذنبين ، كما قال تعالى : « **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً** »[5] .

هذا الجواب كله في الاستثناء ، وبقى أن يُقال : كيف يُعبر عن شيء لا انقضاء له بـ « **أحقاباً** » وهو منكر يفهم منه أنه ينقضي وقتاً ما ؟

والجواب : قد أوضحه الله تمام الإيضاح في سورة (ص) وخير ما يُفسر به القرآن القرآن ، فالأحقاب في آية النبأ متعلقة بما بعدها ، وهو أنهم في تلك الأحقاب لا يذوقون إلا الحميم والغساق ، ثم بعد أن تنتهي تلك الأحقاب يُشَكَّلُ لهم العذاب من غيرهما ، أشكالاً لا نهاية لها ، والدليل على أن المراد ما ذكرنا قوله تعالى في سورة (ص) : « **هذا فليذوقوه حميم وغساقٌ وآخر من شكله أزواج** »[6] . فالأحقاب التي في النبأ لا يقع فيها إلا الحميم والغساق ، ولا يقع

---

(١) بدأ ابن القيم رحمه الله الكلام على أبدية النار ودوامها من ص ٢٤٨ إلى ص ٢٧٤ من كتاب حادي الأرواح ، نشر دار الكتب العلمية ــ بيروت .

(٢) ق : ٢٨ ــ ٢٩ . (٣) ق : ١٤ . (٤) ص : ١٤ . (٥) النساء : ٤٨ . (٦) ص : ٥٧ ، ٥٨ .

فيها غيرهما ، وإذا قلنا بانتهاء تلك الأحقاب تنتهي النار ، يبقى ما ذكر في سورة (ص) لا ظرف له وهو خلاف القرآن ، فظهر أن الأحقاب ظرف للحميم والغساق ، وأنه بعد انتهاء تلك الأحقاب تأتي ألوان أُخرى من العذاب[1] .

---

(١) ذكر فضيلة شيخنا المفسر ، رحمه الله أن ابن القيم ، رحمه الله زعم فناء النار وذكر شيئاً مما استدل به على ذلك ورد على ذلك الاستدلال ، وهو رد قوي لا مراء فيه .

ولكني أحب أن أنبه ــ إنصافاً لابن القيم رحمه الله ــ أنه لم يجزم بفناء النار ، وإنما ساق أدلة القائلين بذلك موضحاً أوجه استدلالهم ، ومن عادته ، رحمه الله أنه إذا ذكر اختلاف العلماء بين أدلتهم ووجهها حتى كأنه هو صاحب القول ، وإن كان في الواقع لم يجزم به ، أو كان على خلافه ، وهذا واضح في مناقشاته ، كما في كتابه زاد المعاد ، وكتابه إعلا الموقعين عن رب العالمين ، ومن أظهر ذلك مناقشاته لحكم تارك الصلاة في كتاب القيم : كتاب الصلاة .

والذي يدل على عدم قوله بفناء النار أمران :

الأمر الأول : بيانه موقفه من تلك الآراء في فناء النار في آخر الباب المتعلق ببحث كلام العلماء في أبدية الجنة والنار ، فقد قال ما نصه : « فإن قيل : فإلى أين انتهى قدمكم في هذه المسألة العظيمة الشأن ، التي هي أكبر من الدنيا بأضعاف مضاعفة ؟ قيل إلى قوله تبارك وتعالى : « **إن ربك فعال لما يريد** » (وهي تكملة الآية التي لا زال شيخنا المفسر بصدد تفسيرها) وإلى هنا انتهى قدم أمير المؤمنين علي بن أبن طالب ، رضي الله عنه ، حيث ذكر دخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، وما يلقاه هؤلاء وهؤلاء ، وقال : ثم يفعل الله بعد ذلك ما يشاء ، بل وإلى هنا انتهت أقدام الخلائق ، وما ذكرنا في هذه المسألة ، بل في الكتاب كله من صواب فمن الله سبحانه ، وهو المانّ به ، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريء منه ، وهو عند لسان كل قائل وقلبه وقصده ، والله اعلم « انتهى ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ من كتابه » حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح . والذي يظهر من كلامه هذا أنه لم يجزم بشيء في هذا الأمر ، بل وَكَلَ المسألة إلى الفعال لما يريد .

الأمر الثاني : أنه رحمه الله صرح في كتابه « الوابل الصيب شرح الكلم الطيب » أن النار كالجنة لا تفنى ، وأن النار التي تفنى هي النار التي يعذب الله فيها عصاة المؤمنين الذين لا يخلدون في النار ، وهذا نص كلامه رحمه الله : « ولما كان الناس على ثلاث طبقات : طيب لا يشيبه خبث ، وخبيث لا طيب فيه ، وآخرون فيهم خبث وطيب ، كانت دورهم ثلاثة : دار الطيب المحض ، ودار الخبيث المحض ، وهاتان الداران لا تفتنيان ، ودار لمن معه خبث وطيب ، وهي الدار التي تفني ، وهي دار العصاة ، فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحد ، فإذا عذبوا بقدر جزائهم أخرجوا من النار ، فأُدخلوا الجنة ، ولا يبقى إلا دار الطيب المحض ودار الخبث المحض » انتهى من مجموعة الحديث التي طبعت بمطابع الرياض سنة ١٣٨٩ صفحة ٦٣٩ ، وبهذا يعلم أن ابن القيم قطع بعدم فناء النار ، وأن كلامه الذي فيه احتمال في كتاب حادي الأرواح يجب أن يفسر بكلامه الصريح المبين في كتاب الوابل الصيب ، ولا شك أن فضيلة شيخنا المفسر لو اطلع على هذا النص في الوابل الصيب لأخذ به في مذهب ابن القيم ، لأنه صاحب أضواء البيان الذي فسر القرآن بالقرآن ، وكلام الناس يفسر بعضه بعضاً . والله أعلم .

وهنا ترد شبهة فلسفية ، يقول الملحدون : لا شك أن ربكم في غاية الإنصاف والعدل ، ولكن يشكل عليه الجواب على هذا السؤال ، وهو : كيف يكون عصيان الكافر في مدة قليلة جداً ، وعذابه يستمر إلى ما لا نهاية ، مع أن مقتضى العدل أن يعذب بقدر ما عصى ؟ فأين الإنصاف وأين العدل ؟! .

والجواب : أن سبب هذا الاستمرار هو ملازمة الخبث لذلك الكافر دائماً وعدم مفارقته له في أي حال من الأحوال ، فهو منطو عليه لا يزول ، وباستمرار السبب الذي هو الخبث استمر المسبب الذي هو العذاب ، والدليل على استمرار خبثه قوله تعالى : « **ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون** »[1] .

فبديمومة السبب الذي هو الكفر ، دام المسبب الذي هو العذاب .

تكلمنا[2] على نماذج من الكلام على هذه الآية ، وذكرنا معها آيتي الأنعام والنبأ ، وبينا وجه إزالة الإشكال عن الآيات وانسجامهامع الأدلة على تخليد الكفار وأنه لا انقطاع لعذابهم .

والآن نذكر الأوجه التي يحمل عليها الاستثناء في قوله تعالى : « **إلا ما شاء ربك** » .

أولاً : أن « **ما** » بمعنى : « **مَنْ** » أي إلا من شاء الله عدم خلوده من الأشقياء ، وهم العصاة من المؤمنين الذين كانت لهم كبائر لم يتوبوا منها ، فهم بهذا الاعتبار أشقياء ، ومن المعلوم أنه لا يرد النار إلا شقي في الجملة ، والشقاوة التي في الأزل لا تنافي بينها وبين هذا ، فإن الشقاوة قسمان : مؤبدة دائمة ومؤقتة منقطعة ، وهذه من الشقاوة المنقطعة ، غاية ما في الباب أن « **ما** » أطلقت مراداً بها : « **من** » ، وذلك موجود في اللغة وفي القرآن ، كما قال تعالى : « **فانكحوا ما طاب لكم من النساء** »[3] . وقال تعالى : « **والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين** »[4] .

---

(١) الأنعام : ٢٧ ــ ٢٨ .
(١) من هنا بدأت المحاضرة السادسة والعشرون في ١٣٨٤/٨/١٨هـ .
(٢) النساء : ٣ .
(٣) المؤمنون : ٥ ــ ٦ .

وما روى عن بعض السلف أن النار تفني في وقت من الأوقات يتعين حمله على هذه الطبقة التي دلت الأدلة فيها أن العصاة من الموحدين يخرجون منها[1] .

فقد ثبت أن ناساً يخرجون من النار بعد ما صاروا فحماً[2] . وبهذا الوجه قال الضحاك وخالد بن معدان ، والمعنى : إلا من شاء الله عدم خلوده في النار ، ممن عذب وهو على التوحيد .

كما قال ﷺ : « ثم تحل الشفاعة ، ويشفعون حتى يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه مثقال ذرة من إيمان »[3] .

ومن إطلاق : « **ما** » مراداً بها : « **مَنْ** » قوله تعالى : « **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء** »[4] .

وفي بعض الأحاديث : « سبحان ما سخركن لنا » .

ثانياً : أن المراد بالاستثناء المدة التي بين خروجهم من القبور ، وبين انتهائهم إلى مصيرهم ، ذكره ابن جرير وغير واحد ، وفيه بعد .

ثالثاً : أن المستثنى بعض الأوقات التي يخرجون فيها من النار ليعذبوا بألوان من العذاب أخرى ، كالزمهرير والحميم ، كما قال تعالى : « **يطوفون بينها وبين حميم آن** »[5] . فالاستثناء من الخلود بهذا الاعتبار .

رابعاً : أن الاستثناء في الموضعين مجمل لم يوضح فيه ما تعلقت به المشيئة فإن اللفظ مبهم ، والنصوص الأخرى صرحت بأن مشيئة الله اقتضت الخلود الأبدي ، فيؤخذ بما هو ظاهر ، فهو كأي نص فيه إجمال بين ووضح في موضع آخر ، مثاله قوله تعالى في سورة المائدة : « **أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يُتلى**

---

(١) ويدخل في ذلك حمل كلام ابن القيم الذي أشار إليه الشيخ قبل دخولاً أوّليًّا لتصريحه به كما مضى .

(٢) يشير الشيخ إلى ما رواه مسلم عن أبي معبد ، قال : قال رسول الله ﷺ « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فإنهم لا يموتون ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم .. فأماتهم إماتة ، حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة ، فجيئ بهم ضبائر ضبائر ــ أي جماعات ــ فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الْحِبّة تكون في حميل السيل » . مسلم (١٧٣٢١٧٢/١) .

(٣) راجع صحيح البخاري (١٧٣/٨) وصحيح مسلم (١٨٢/١ ــ ١٨٤) .

(٤) النساء : ٢٢ .

(٥) الرحمن : ٤٤ .

عليكم »[1] . وضح بقوله تعالى : « **حُرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب** »[2] . فكما أن « **ما يُتلى** » مبهم بين بقوله : « **حُرمت عليكم الميتة** » فكذلك : « **إلا ما شاء ربك** » مبهم بين بقوله : « **كلما خبت زدناهم سعيراً** »[3] . وغيرها من الآيات .

خامساً : أن : « **إلا** » بمعنى غير ، وهذا الوجه ممكن هنا في آية هود ، ولكنه لا يمكن في سورة الأنعام في قوله : « **إلا ما شاء الله** »[4] .

سادساً : أن الاستثناء من قوله : « **وأما الذين شقوا ففي النار** » . « **إلا ما شاء ربك** » . أي ما شاء الله من زحزحة بعضهم عن النار ، وهذا غير وجيه ، لأنه لا يطلق الشقي إلى على من يدخل النار .

سابعاً : أن إلا بمعنى الواو ، أي وما شاء ربك من الزيادة ، وفي إتيان إلا بمعنى الواو خلاف ، وقد قال مالك : أنها تأتي بمعنى الواو في العقود دون الإقرارات ، فلو قال : بعت داري بألف إلا ثوباً يلزمه فوق الألف ثوب ، ولو قال : عندي ألف إلا ثوباً تسقط قيمة الثوب (ولم يرتض الشيخ قول الشوكاني إن إلا بمعنى الكاف)[5] .

ثامناً : إن هذا الاستثناء الذي ندب إليه الشرع في كل كلام وهو كالقول في « **إن** » التي يعلق بها ما يعلم وقوعه يقيناً مثل قوله تعالى : « **لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين** »[6] . ونحو قوله ﷺ في دعاء زيارة القبور : « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون »[7] .

---

(1) المائدة : ١ . (2) المائدة : ٣ . (3) الاسراء : ٩٧ .

(4) الأنعام : ١٢٨ (والمعنى أنه تعالى لما قال : « **خالدين فيها ما دامت السموات والأرض** » فهم منه أنهم يكونون في النار في جميع مدة بقاء السموات والأرض في الدنيا ، ثم قال : سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود الدائم فذكر أولاً في خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه ثم زاد عليه الدوام الذي لا آخر له) ا.هـ . التفسير الكبير للفخر الرازي (١٨/٦٥) .

(5) فتح القدير (٢/٥٠٠) . (6) الفتح : ٢٧ .

(7) مسلم (٢/٦٦٩) .

والحكمة في هذا التعليق تعليم الخلق والتشريع لهم بأن لا يتكلموا عن المستقبل إلا مقيدين كلامهم بمشيئة الله الذي له الأمر كله ، كما قال تعالى : « **ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله** »(١) .

وأقرب هذه الأقوال : القول الأول ، ويكون المراد بالذين شقوا ما يشمل الأشقياء مطلقاً ، وهم الكفار ، والأشقياء مؤقتاً وهم عصاة المؤمنين ، فيكون من الألفاظ المشككة .

ويلي هذا القول القول بأن التقييد بالمشيئة لا يستلزم الانقطاع ، وإنما نبه به على إسناد كل الأمور إليه تعالى ، وهو القول الثامن ، أو أنه مجمل بينة الآيات الأخرى ، وهو القول الثاني ، ويدخل في مثل قوله تعالى : « **منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأُخر متشابهات** »(٢) . والمحكمات تبين المتشابهات .

« **إن ربك فعال لما يريد** » .

« **فعال** » صيغة مبالغة ، والعائد إلى الموصول محذوف ، أي يُريده ، وهو جائز ، لأنه فضلة لا يضر حذفه ، كما قال ابن مالك في الألفية :

وحذف فضلةٍ أجز إن لم يضر كحذف ما سيق جواباً أو حصر

ولأنه منصوب بفعل والعائد المنصوب بفعل يجوز حذفه ، وكذا بالوصف وإليه أشار ابن مالك في الألفية بقوله :

.... والحذف عندهم كثير منجلي
في عائد متصل إن انتصب بفعل او وصف كمن نرجو يهب

والمعنى : لا راد لقضائه تعالى ، بل كل ما أراد فِعْله فَعَله ، فهو غالب على أمره لا يغالبه أحد ، وليس كالملوك الذين يعارَضون فيغلبون .

« **وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ** » .

---

(١) الكهف : ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) آل عمران : ٧ .

في قوله : « **سعدوا** » قراءتان سبعيتان :

الأولى : بفتح السين على البناء للفاعل ، ولا إشكال على هذه القراءة .

الثانية : بضم السين بالبناء للمفعول ، وعليها يستشكل بعضهم ذلك ، لأن سعد لا يتعدى بنفسه ، والصحيح أنه يتعدى بنفسه بدليل هذه القراءة السبعية الصحيحة ، وبدليل صياغة اسم المفعول منه تاماً ، كقولهم : مسعود ، فعلى قراءة ضم السين يكون المراد أسعدهم الله ، وعلى القراءة الأولى يكون المعنى صاروا سعداء ، والجنة في اللغة البستان ، كما قال الشاعر :

كأن عينيّ في غرثي مقتلة　　من النواضح تسقى جنة سحقا

وقد أطلق ذلك في القرآن الكريم ، كما قال تعالى : « **إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين** »(١) . وهي بستان في أطراف اليمن .

وهي في اصطلاح الشرع : دار كرامة الله لعباده المؤمنين المعدة لأوليائه ، فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، قال بعضهم ، هي نهر مطرد وشجرة مثمرة ، وغرفة عالية وزوجة حسناء .

و « **خالدين** » ماكثين ، وقوله : « **ما دامت السموات والأرض** » . مضى الكلام على ذلك في الآية التي قبلها .

وإنما جاء قوله تعالى : « **إلا ما شاء ربك** » لأن كل شيء بمشيئته ، ولما كان ذلك قد يوهم الانقطاع قال : « **عطاء غير مجذوذ** » .

والعطاء اسم مصدر من أعطى ، فكان قياسه الإعطاء ، وهو مفعول مطلق ، أي أعطاهم عطاء ، وقيل هو متعلق بالكون المحذوف ، أي مستقرون في الجنة في حال كون ذلك عطاء والأول أظهر .

والمجذوذ من جذه إذا قطعه ، أي غير مقطوع ، وهذا نص ظاهر في عدم انقطاع نعيم أهل الجنة ، كما قال تعالى : « **إن هذا لرزقنا ما له من نفاد** »(٢) . وقال تعالى : « **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** »(٣) .

(١) القلم : ١٧ .　(٢) ص : ٥٤ .　(٣) النحل : ٩٦ .

وإنما عبر بالمشيئة ، لما مضى أو المراد استثناء المدة التي بين القيام من القبور والمصير إلى مأواهم ، وفي هذه الآيات من البديع ما يُسمى بالجمع والتفريق ، فإنه جمع أولاً في قوله : « **يوم يأت لا تكلم نفس** » . ثم فرق في قوله : « **فمنهم شقي وسعيد** » . ثم فصل كلا الفريقين على حدة .

« **فلاتك في مرية مما يعبد هؤلاء** » .

الفاء فاء الفصيحة أشعرت بجملة شرطية ، أي إن عرفت مصير هؤلاء ، أو مصير الخلائق ، وأنهم ينقسمون إلى هذين القسمين ، فلا تشك فيما يعبد أولئك الكفرة أنه كفر وضلال وباطل ووبال ، والخطاب للرسول ﷺ ، وهو من باب « إياك أعني واسمعي يا جارة » في قول الراجز :

يا أُخت خير البدو والحضاره ... كيف ترين في فتى فزاره

أصبح يهوى حرة معطاره ... إياك أعني واسمعي يا جاره

و « **تك** » مضارع تكون ، أصله : تكن ، والقاعدة أن نونها إذا سكنت للجزم يجوز حذفها ، كما قال ابن مالك في الألفية :

ومن مضارع لكان منجزم ... تحذف نون وهو حذف ما التزم

وبعض النحويين يخص الجواز بما إذا لم يل تكن أل ، والصحيح جواز ذلك بلا قيد ، والمراد : إذا عبدوا غير الله تعالى فلا يورثك فعلهم شكا في بطلان عبادتهم ومعبوداتهم ، وإن زعموا أنها تقربهم زُلفى وتشفع لهم عند الله .

« **ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل** » .

« **ما** » الأولى نافية ، و « **ما الثانية** » موصولة ، أي كالذي يعبده آباؤهم ، وقيل مصدرية ، أي كعبادة .. وقوله : « **من قبلُ** » . أي من قبلهم ، فحذف المضاف إليه لفظاً ونوى معناه .

« **وإنا لموفوهم نصيبهم** » . أصله موفيوهم ، حذفت الياء التي هي لام الكلمة ، فوزنه الآن مُفعُوهم ، وحذفت نون الجمع للإضافة ، على حد قول ابن مالك :

نوناً تلي الإعراب أو تنويناً   مما تضيف احذف كطور سينا

وهو مضاف إلى مفعوله الأول ، والمفعول الثاني نصيبهم والفاعل مستتر فيه .

« **غير منقوص** » بل هو كامل .

قوله تعالى :

« **ولقد آتينا موسى الكتاب** » .

اللام[1] موطئه للقسم ، أي والله لقد ، وفيه تأكيدات بليغة ، هي اللام ، والقسم المحذوف ، وقد ، وصيغة التعظيم في قوله : « **آتينا** » وظاهر الكلام أنه ابتدائي ، فليس هناك منكر أن الله أعطى موسى كتاباً حتى يؤكد له هذه التأكيدات ، فلم أكد الخبر ؟

والجواب أن الخبر في حد ذاته قد يكون ابتدائياً ، وليس المخاطب منكراً ولا متردداً ، ولكنه يعمل أعمال المنكر ، فينزل منزلته ، فيؤكد له الخبر ، ومنه قول الشاعر :

جاء شقيق عارضاً رُمحه   إن بني عمك فيهم رماح

والذين يكفرون بالقرآن أو بكتاب موسى هم كافرون بالجميع ، ولا شك أنه قد يكون هناك منكرون ، بدليل قوله تعالى : « **فاختلف فيه** » فقد يكون منهم المنكر ، ومنهم المتردد ، ومنهم المصدق ، وهذا قد يكون عاملاً ، وقد يكون مخالفاً ، فيؤكد لذلك ، كما قيل :

كقولنا لمؤمن وقد فسق   يا أيها المؤمن إن الموت حق

« **فاختلف فيه** » الجار والمجرور نائب فاعل ، والأصل : فاختلف قومه فيه ، فلما حذف الفاعل أقيم المعمول مقامه وهو الجار والمجرور على حد قول ابن مالك في الألفية :

---

(١) من هنا بدأت المحاضرة السابعة والعشرون في ١٣٨٤/٨/٢٠هـ .

وقابل من ظرف أو من مصدر أو حرف جر بنيا بة حَرِي
ولا ينوب بعض هذى إن وجد في اللفظ مفعول به وقد يرد

ولا يوجد هنا مفعول به ، فإنَّ « اختلف » لازم تعدى إلى المعمول بحرف الجر ، على حد قول ابن مالك في الألفية :

وعدم لازماً بحرف جر ....

والمعنى : اختلف قومه فيه ، منهم المنكر ، ومنهم المصدق ، ومنهم العامل والتارك للعمل .

« **ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم** » .

أي لولا أن ربك قد حكم بتأجيل العذاب لعجله لهم ، والكلمة لا تطلق في القرآن إلا على الكلام المفيد ، وقول ابن مالك : « وكلمة بها كلام قد يؤم » بصيغة التقليل ، ليس المراد به اصطلاح القرآن واللغة ، بل المراد في الاصطلاح النحوي الخاص ، قال تعالى : « **حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً** »[١] . وقال تعالى : « **وتمت كلمةُ ربك الحُسنى على بني إسرائيل** »[٢] . يعني قوله تعالى : « **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين** »[٣] .

ومعنى الآية : لولا كلمة سبقت ، أي سبقها كائن في علم الله وقضائه الأزلي ، وذلك بتحديد العذاب وتأخيره إلى يوم القيامة ، لولا ذلك لعجله الله تعالى ، كما قال تعالى : « **وما نؤخره إلا لأجل معدود** »[٤] .

« **لقضى بينهم** » . أي لقضى الله تعالى بينهم ، وفي هذا إشارة إلى ما صرح به في سورة الأنعام ، إذ يفهم من الآية هنا أن النبي ﷺ يستعجل الانتقام منهم ، حيث إنه ذكر أنه لولا المانع مما تريدون لنفذناه ، وهو ما نص عليه في الأنعام بقوله : « **قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقُضِيَ الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين** »[٥] .

---

(١) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ . (٢) الأعراف ١٣٧ . (٣) القصص : ٥ .
(٤) الآية : ١٠٤ من هذه السورة . (٥) الأنعام : ٥٨ .

والذي كانوا يستعجلون به ـــ وهو المفهوم من آية هود هذه المصرح به في آية الأنعام ـــ هو العذاب ، كما صرح الله بذلك عنهم في سورة ص بقوله تعالى : « **وقالوا ربنا عجل لنا قِطَّنَا قبل يوم الحساب** »[1] .

والقط كتاب الملك بالجائزة ، كما قال الشاعر :

ولا الملك النُعمان حين لقيته بغبطته يعطي القطوط ويأفق

ومعنى : يأفق ، يفضل بعض الناس على بعض .

وقال تعالى : « **ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** »[2] .

وقد صرح الله تعالى بأن ما يستعجل بِهِ الكفار لو كان بيده ﷺ لعجل به ، مع أنه ثبت في الصحيح أنه لما جاء ملك الجبال وقال للرسول ﷺ : « إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك ، فما شئت ؟ إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين »[3] . فقال له رسول الله ﷺ : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً »[4] . فما وجه الجمع بين ما دلت عليه الآيات وبين ما دل عليه هذا الحديث ؟

والجواب هو ما ذكره ابن كثير[5] وبعض العلماء أن لكل مقام مقالاً ، وبين مقام تمكنه ومقام استعجاله فرق ظاهر ، فمقام الآية يُعبر عن وقت استعجاله ﷺ بالعذاب حينما تمردوا فلو مكن منه في هذا الوقت لأوقعه بهم ، أما مقام مجيء الملك إليه فكان مقام أمل ورجاء في هدايتهم ، ولذلك دخلته الشفقة عليهم . وظاهر الآية أن تأخير ذلك عن الكفار لأنه بيد الله وليس بأيدي الرُسُل منه شيء ، كما قال

---

(١) ص : ١٦ . (٢) العنكبوت : ٥٣ ، ٥٤ . (٣) جبلا مكة : أبو قبيس والذي يقابله .
(٤) البخاري (٨٣/٤) ومسلم (١٤٢٠/٣ ـــ ١٤٢١) .
(٥) تفسير القرآن العظيم (١٣٧/٢) وهذا نص ما قاله ابن كثير : بعد أن ذكر وجه الأشكال بين آية الأنعام : ٥٨ والحديث ، قال : « فالجواب والله أعلم أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم ، وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم ، بل عرضه عليه ملك الجبال .. فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق » .

تعالى : « **وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المُبطلون** »(١) .

واللام في قوله : « **لقضى** » جواب لولا .

« **وإنهم لفي شك منه مريب** » . أي قوم موسى في شك من التوراة أو قوم محمد ﷺ في شك من القرآن ، ولا شك أنهم كلهم ، قوم موسى وقوم محمد ﷺ ، منهم الشاك ومنهم المصدق .

والشك في أصل اللغة يطلق على الظن وما دونه ، والتفرقة بين الشك والظن والوهم اصطلاح للفقهاء ، فيقولون : إن كان الاعتقاد كاملا فهو اعتقاد صحيح ، كاعتقاد المسلمين حدوث العالم ، وإلا فاعتقاد فاسد كاعتقاد الفلاسفة عدم حدوث العالم ، وإن كان غير كامل ، فإن كان الاعتقاد ساريا فهو الشك ، وإن كان غالبا فهو الظن ، وإن كان الباقي عن الاعتقاد أكثر فهو الوهم .

أما القرآن فيطلق الشك ويشمل الظن ، كما يطلق الظن ويشمل الشك كما قال تعالى : « **وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغني من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون**(٢) » .

والشك هنا عدم اليقين ، يصدق على الشك الاصطلاحي وعلى الظن .

والضمير في قوله : « **منه** » يعود إلى كتاب موسى ، إن كان المراد بالضمير في قوله : « **وإنهم** » قومه ، أو يعود إلى القرآن ، إن كان الضمير يعود لقوم الرسول ﷺ .

والمريب اسم فاعل أراب ، وهو نعت لشك ، أي موقع في الريبة ، وأصل الريبة في اللغة الأزعاج والإقلاق ، ومنه قول :

---

(١) غافر : ٧٨ .

(٢) يونس : ٣٦ .

وكنت إذا ما جئت ليلي تفرقعت وقدرا بنى منها الغداة سفـورها

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ ، وهو في طريقه إلى الحج فإذا ظبي حاقف[1] في ظل فيه سهم ، فأمر رجلا أن يقف عنده لا يَرِيبه أحد من الناس حتى يجاوزه »[2] .

ومن ذلك قوله ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، وإن الكذب ريبة »[3] .

قوله تعالى :

« وإنَّ كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير » .

في[4] هذه الآية قراءات ، وهي من أصعب الآيات في توجيه القراءات ، وكلها سبعية .

فقرأ بعضهم بتشديد « **إنّ** » و « **لَمّا** » معاً .

وقرأ بعضهم بتخفيفهما .

وقرأ بعضهم بتخفيف « **إن** » وتشديد « **لما** » .

وقرأ بعضهم بتشديد « **إن** » وتخفيف « **لما** » .

والكلام على « **لما** » من حيث هي أنها تأتي على خمسة أنواع :

النوع الأول : أنها نافية جازمة للفعل المضارع ، كقوله تعالى : **« بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله »**[5] .

وهي حرف نفي بلا خلاف ، وهي مشددة .

---

(١) أي واقف منحن رأسه بين يديه .

(٢) الموطأ : (٣٥١/١) والنسائي (١٤٣/٥ ــ ١٤٤) .

(٣) الترمذي : (٦٦٨/٤) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٤) من هنا بدأت المحاضرة الثامنة والعشرون في ١٣٨٤/٨/٢٣هـ .

(٥) يونس : ٣٩ .

النوع الثاني : مشددة أيضاً ، وتأتي بعد إنْ النافية في لغة هذيل ، وهي حرف إثبات بلا خلاف كذلك .

النوع الثالث : مجيئها رابطة لجملة بجملة ، وفيها خلاف فعند بعضهم هي حرف لعدم عود الضمير إليها ، وعند بعضهم هي ظرف بمعنى حين تضمنت معنى الشرط ، قالوا : ولا يلزم من عدم عود الضمير إليها عدم اسميتها ، فإن الظرفية قد فهمت منها .

النوع الرابع : إتيانها مركبة من ثلاث كلمات : **الأولى** : لام الابتداء . **والثانية** : مِنْ ، **والثالثة** : ما ، والأصل : لَمِنْ ما ، فحذفت نون من ، وحركت الميم الأولى بالفتح ثم أدغمت في ما ، فصارت : لما .

النوع الخامس : لما المركبة من حرفين ، وهي اللغزية ، كما في قول الشاعر :

لما رأيت أبا يزيد مقاتلاً أدَعَ القتال وأترك الهيجاء

والأصل : لن أدع القتال ففصل بين لن والفعل المضارع

الذي هو : أدع بما الظرفية المصدرية ، ثم أدغمت نون لن في ما .

توجيه القراءات .

أولاً : تخفيفهما تكون « **إن** » مخففة من الثقيلة ، عملت فنصبت « **كلا** » ، وهي ، وإن كان الأكثر على إهمالها ، فلا يخرج إعمالها بقلة عن الفصاحة ، على حد قول ابن مالك في الألفية :

وخففت إنّ فقل العمل وتلزم اللام إذا ما تهمل

ولام لما هي التي تأتي بعد إن المكسورة ، كما قال ابن مالك :

وبعد ذات الكسر تصحب الخبر لام ابتداء نحو إني لوزر

وما مزيدة للتوكيد ، فصلت بين اللام ومحلها الذي هو « **يوفينهم** » لأنه هو الخبر ، ثم أعيدت اللام في الخبر توكيداً فيكون في تعدد هذه التوكيدات زجراً للمخاطبين ، ليحاسبوا أنفسهم .

ثانياً : بتشديد « **إنّ** » وتخفيف « **لَمَا** » يكون « **كلاًّ** » اسم « **إن** » كما مر في المخففة ، واللام لام إن ، وما زيدت للتوكيد ، وخبر إن ليوفينهم ، فصلت ما بين اللام وبينه ، ثم زيدت اللام الثانية تأكيداً ، أو تكون ما بمعنى : **مَنْ** أو نكرة تامة بمعنى : **خَلْق** ، ويصح هذا في الأولى أيضاً .

ثالثاً : التشديد فيهما ، وفيها ثلاثة توجيهات :

الأول : أن « **لما** » هي المركبة من ثلاث كلمات ، وهي لام الابتداء ، ومِن ، وما ، والأصل لَمِن ما ، ذكره ابن هشام في المغني ، وهو بعيد[1] .

الوجه الثاني : أن « **لَمّا** » بمعنى إلا ، وهو جائز عند القائلين به ، أي مجيء إلا في الإثبات ، وهو بعيد أيضاً ، لأن إلا لا تأتي إلا بعد النفي ، فكذلك لما إذ حلت محلها .

الوجه الثالث : أن ما هي المؤكدة ، وشددت إشباعاً ، وهذا أبعد التوجيهات .

رابعاً : تخفيف « **إنْ** » وتشديد « **لَمَّا** » فإن نافية ، ولما بمعنى إلا ، أي وما كلا إلا ، ولكن يشكل على هذا أن ما لا تنصب ، بل ترفع ، وإنْ مثلها ، لأنها بمعناها ، ولهذا اضطر بعضهم ، أن يخرجه على أن كلا منصوب بقوله : « **ليوفينهم** » . وبعضهم أجرى الوجه الأول في القسم الثالث ، أي إن الأصل لمن ما ، والله تعالى أعلم .

والإشكال المستحكم إنما هو عند ما تشدد « **لما** » أما إذا خففت فلا إشكال[2] .

« **ليوفينهم ربك أعمالهم** » .

يقال[3] في اللغة : وفاه الشيء أي أعطاه وافياً ، أي يوفيهم أعمالهم التي

---

(١) المغنى (٣١٢/١) طبع لاهور .

(٢) راجع كتاب : « البحر المحيط » لابن حيان الأندلسي (٢٦٦/٥) وما بعدها .

(٣) من هنا بدأت المحاضرة التاسعة والعشرون في ١٣٨٤/٨/٢٥هـ .

ويبدو في المحاضرة السابقة قلة الصفحات بسبب صعوبة اعراب جملة : « وإن كلا لما » الذي كثر فيه نقاش الطلبة لفضيلة الشيخ واستفساراتهم .

عملوها في الدنيا كاملة ، كما قال تعالى : « **وإنما توفون أجوركم يوم القيامة** »[1] .

يوفي الله الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة بمثلها ، وهذا الفعل « **وفى** » يتعدى إلى مفعولين ، وهما ــ هنا ــ الضمير في قوله « **ليوفينهم** » وهو المفعول الأول ، و « **أعمالهم** » وهو المفعول الثاني .

والأعمال التي يؤاخذ بها الإنسان أربعة أنواع :

الأول : أفعال الجوارح ، كالسرقة والزنا ، وما أشبههما من كل ما يباشره بجوارحه .

الثاني : فعل اللسان الذي هو القول ، وهو فعل بدليل قوله تعالى : « **يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون** »[2] .

الثالث : العزم المصمم ، وهو فعل قلبي من الأعمال الموفاة ، بدليل حديث أبي بكرة المتفق عليه ، أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار** » . فقلت : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه »[3] .

ومراد السائل : ما حقيقة الذنب الذي بسببه دخل النار ، مع أنه مقتول وليس بقاتل ، فبين له الرسول ﷺ أنه العزم المصمم « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » .

الرابع : الترك ، والتحقيق أن الترك فعل ، لأنه كف النفس وصدها عن الوقوع في الشيء ، كما قال الراجز :

.... وترك فعل في صحيح المذهب

فمن ترك الصلاة فقد فعل ما يستحق به النار ، لأنه لم يكف نفسه عن

(١) آل عمران : ١٨٥ . (٢) الأنعام : ١١٢ .

(٣) البخاري (١/١٣) ومسلم (٤/٢٢١٣ ــ ٢٢١٤) .

تركها ، ومن همَّ بمحرم ثم كف عنه لله ، وفاه الله أجره ودخل به الجنة ، كما قال تعالى : « **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى** »(١) .

ومن الأدلة على أن الترك فعل قوله تعالى في سورة المائدة : « **لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السُحت لبئس ما كانوا يصنعون** »(٢) . والصنع أخص من العمل ، فسمى تركهم للنهي صنعاً ، وينبني على كون الترك فعلاً أو ليس بفعل مسائل كثيرة في الفروع ، كمن نسي بستان أيتام فلم يسقه لهم حتى ضاع وهو مُكلف به ، فعلى القول بأنه فعل يؤاخذ به ، وعلى القول أنه ليس بفعل لا يؤاخذ به .

« **إنه بما يعملون خبير** » .

هذا هو الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم الذي يذكره الله في كل صفحة من صفحات كتابه الكريم ، وقد تكلمنا عليه مراراً ، وضربنا له المثال الذي يضربه العلماء لهذا الواعظ بالملك الجبار الذي سيافه واقف أمامه ، وسيفه يقطر دماً ، وهو معروف بشدة البطش ، وأمامه محارمه ــ بناته وجواريه ــ فهل يجرؤ والحالة هذه أن يلتفت أحد إلى محارمه بحضرته ، فضلاً عن أن يمد يده أو يخطو برجله ؟ لا والله .

والخبرة في اللغة أخص من مطلق العلم ، فكل خبرة علم ، وليس كل علم خبرة ، والعرب لا تكاد تطلق هذه المادة : « **الخبرة** » إلا على العلم بما فيه خفاء ، وعلى هذا يصح أن يُقال : أنا عالم أن الواحد نصف الاثنين ، والسماء فوقنا والأرض تحتنا ، والنار حارة ولا يصح أن يُقال : أنا خبير بذلك .

فالخبير هو العالم المطلع على خفايا الأمور ، ولهذا يُقال : على الخبير بها سقطت ، قال تعالى : « **ولا يُنبئك مثل خبير** »(٣) .

وقال تعالى : « **فاسأل به خبيراً** »(٤) . وقال هنا : « **إنه بما يعملون خبير** » .

---

(١) النازعات : ٤٠ ، ٤١ . (٢) المائدة : ٦٣ . (٣) فاطر : ١٤ . (٤) الفرقان : ٥٩ .

وهو معروف في كلام العرب ، ولذلك قال الشاعر :

خبير بنو لهب فلا تك ملغيا   مقالة لهبي إذا الطير مرت

فالله عز وجل خبير ، أي مطلع على خفايا الأمور والنيات وخواطر القلوب ، لأن السر عنده تعالى كالعلانية لا يخفى عليه شيء .

قوله تعالى :

« **فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير** » .

هذه الآية عظيمة جداً ، والاستقامة ضد الاعوجاج ، وأصل وزن استقم : استفعل ، فحذفت العين التي أصلها واو ، بعد أن أعلت على القاعدة المعروفة التي عقدها ابن مالك في الألفية بقوله :

لساكن صح انقل التحريك من   ذي لين آت عين فعل كأبن

والوزن الآن بعد أن حذفت العين : اسْتَفِلْ .

والعرب تقول : قَوّم الرُّمحَ إذا جعله مستقيماً ، ومنه قوله تعالى : « **اهدنا الصراط المستقيم** »(١) .

والمراد : اعتدل يا محمد أنت ومن آمن بك ورجع من الكفر إلى الإيمان ، على الطريق الحق ، بدون إفراط ولا تفريط .

وقوله : « **كما أمرت** » أي استقم استقامة مطابقة للأمر وميزان الاستقامة مطابقة أعمال الإنسان للأوامر والنواهي ، ولهذا يوصف الصراط بالاستقامة ، كما يوصف العامل بذلك ، كما قال تعالى : « **إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم** »(٢) .

وهذه الآية العظيمة يقول المفسرون : هي التي شيبت الرسول ﷺ ، والأحاديث الواردة في ذلك لا تخلو من مقال .

والمراد بأمر الرسول ﷺ بالاستقامة دوامه عليها ، أو أنه خوطب تشريعاً لأمته ، ولكن الوجه الأول أولى ، لقوله بعد ذلك : « **ومن تاب معك** » .

---

(١) الفاتحة : ٦ .   (٢) التكوير : ٢٧ ، ٢٨ .

ومن أمثلة ما خوطب به الرسول ﷺ ، والمراد أمته قوله تعالى : « **لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** »[1] . وقوله تعالى : « **ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً** »[2] . وقد أمر الرسول ﷺ أُمته بذلك ، كما أمرهم الله بها بقوله ﷺ : « **قل آمنت بالله ثم استقم** »[3] .

وقوله : « **ومن تاب معك** » معطوف على الفاعل الذي هو الضمير المستتر في قوله : « **فاستقم** » ، والعطف على الضمير المرفوع المتصل يجوز بمسوغين : **أحدهما** : أن يعطف عليه بعد أن يؤكد بضمير منفصل .

الثاني : أن يفصل بين الضمير المرفوع والمعطوف بفاصل ، كما هو الحال هنا ، فإنه قد فصل بينهما بقوله : « **كما أمرت** » وقد عقد ذلك ابن مالك في قوله :

وإن على ضمير رفع متصل عطفت فافصل بالضمير المنفصل
أو فاصل ما ....

والمعنى : فاستقيموا كلكم بلا تفريط ولا إفراط ، بل على مطابقة الأوامر والله تعالى هو الملك الحق لا يقبل التقرب إليه إلا بنفس ما شرع — ولهذا يغضب على من يتقرب إليه بغير ما شرعه هو تعالى ، كما قال تعالى : « **أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله** »[4] .

ولا يزيد المتقرب بغير ما شرعه الله تعالى إلا بُعداً ، والزيادة في العبادة كالنقصان ، ويضرب مثلاً لذلك بالعضو الذي يصيبه الورم حتى يصير في غاية من التجسم ، فإنه يكون نقصاناً في الواقع وعيباً ، ومما يدل على أن الزيادة في الدين ضلال ما لو بالغ أحد في التقرب إلى الله ، فزاد في صلاة الصبح ركعة أو ركعتين ، فهي بهذه الزيادة باطلة وهو آثم باجماع المسلمين .

---

(١) الزمر : ٦٥ . (٢) الإنسان : ٢٤ .

(٣) الحديث في صحيح مسلم (٦٥/١) من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه ، قال : قلت : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » .

(٤) الشورى : ٢١ .

وأصل الطغيان مجاوزة الحد ، فكل ما جاوز حده يُقال له : طاغ : قال تعالى : « **إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية** »[1] .

« **ولا تطغـوا** » .

هذا دليل واضح أن الطاغي ليس بمستقيم ، وأن الطغيان ليس باستقامة ، لأنه تعالى نهى عنه بعد أن أمر بها .

والإنسان ضعيف مُدَبَّر حد الله له له حدوداً لا يتعداها ، كما قال الرسول ﷺ : « وحد حدوداً فلا تعتدوها »[2] ، فإذا تمرد على خالقه وخرج عما حده الله له ، بزيادة أو نقصان ، فقد جاوز حدهُ .

أي لا تجاوزوا ما حد الله لكم ، فما حلله حللوه ، وما حرمه فحرموه .

« **إنه بما تعملون بصير** » . كرر الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم ، أي يرى أعمالكم ، خفيها وجليلها ، لا يخفى عليه شيء ، كما قال تعالى : « **فلنقصن عليهم بعلمٍ وما كنا غائبين** »[3] . وقال تعالى : « **يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيءٍ شهيدٌ** »[4] .

« **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون** » .

الركون إلى الأمر الطمأنينة والسكون إليه ، يُقال : راكن إلى كذا أي ساكن إليه ، وأصله من الاعتماد ، يُقال : رَكِنَت الخشبة إلى الجدار ، أي اعتمدت ، والمراد : لا تميلوا وتسكنوا إليهم ، لأن كل من مال قلبه إلى شيء يُقال : سكن إليه ، كما قال تعالى : « **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها** »[5] .

---

(١) الحاقة : ١١ .

(٢) الدارقطني ، وهو الحديث الثلاثون في الأربعين النووية ، راجع : جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص ٢٤٢) وما بعدها .

(٣) الأعراف : ٧ . (٤) المجادلة : ٦ . (٥) الروم : ٢١ .

والظُلم وضع الشيء في غير موضعه في أصل اللغة ، وقد جاء بمعنى النقص ، في قوله تعالى : « **كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً** »[1] . أي ولم تنقص ، وقال بعض العلماء : إن هذه الآية لم تخرج الظُلم المذكور عن معناه اللغوي ، لأن القائم على البستان ، يصرف فيه نفقات كثيرة ، ويتعب فيه تعباً باهظاً ، والمطابق لتلك الغرامة وذلك التعب ، أن يأتي البستان بما صرفه فيه صاحبه وزيادة ، فإذا لم يأت بحقه فقد خَسّره ، وإذا خسره فقد وضع الأمر في غير موضعه .

وركن يتعدى باللام وإلى ، وتعديه بإلى أكثر ، ويشمل ذلك قول ابن مالك :

وعـد لازمــاً بحرف جر ....

وفي ركن ثلاث لغات :

الأولى : رَكَنَ يَركَن ، بفتح الكاف في الماضي والمضارع ، وهذه على غير قياس .

الثانية : رَكَن يركُن ، كنصر ينصر .

الثالثة : رَكِن يركَن ، كعلم يعلم ، وهاتان على القياس .

لما[2] أمر الله تعالى نبيه ﷺ وأتباعه المؤمنين بالاستقامة المطابقة للأمر عطف عليها أفراداً داخلة فيها ، من عطف الخاص على العام تنبيهاً على عظم شأنها ، فذكر من المنهيات التي لا تتحقق الاستقامة بدون تركها : الركون إلى الذين ظلموا والطغيان ، ومن المأمورات إقامة الصلاة ، وقد تقرر في فن المعاني أن عطف الخاص على العام أو العكس من الإطناب المقبول ، إذا كان في ذلك أهمية .

والفاء في قوله : « **فتمسكم النار** » سببية ، والمعنى أن المنهي عنه قبل الفاء سبب لما بعد الفاء ، فالركون إلى الظالمين سبب لمس النار ، والفعل في قوله : « **تمسكم** » منصوب بأن مضمرة بعد الفاء على حد قول ابن مالك في الألفية :

---

(١) الكهف : ٣٣ .

(٢) من هنا تبدأ المحاضرة الثلاثون في ١٣٨٤/٨/٢٧هـ .

وبعد فا جواب نفي أو طلب محضين أن وسترها حتم نصب

والمعنى : فيتسبب ركونكم إلى الظلمة في مس النار إياكم .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن من مال إلى الظلمة راضياً بظُلمهم فالنار تمسه بحسب الظُلم الذي ركن إلى صاحبه ، وقد بين الرسول ﷺ أن الركون إلى الظلمة يحصل بالرضا بظُلمهم ومتابعتهم عليه ، أما من خالفهم أو كره ظُلمهم ولم يتابعهم عليه فليس راكناً إليهم ، كما في حديث أم سلمة ، رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « إنه يستعمل عليكم أُمراء ، فتعرفون وتنكرون فمن كره فقد برىء ، ومن أنكر فقد سلم ، ولكن من رضى وتابع »[1] . أي رضى ظُلم السلاطين وتابعهم على ذلك .

فلا يجوز للمسلم الركون إلى الظُلم بل يجب عليه تغييرهُ ، فينكره حسب طاقته : بيده إن استطاع ، وإلا فبلسانه ، وإلا فآخر المراتب وهي البغض بالقلب والابتعاد وعدم إظهار الرضى بالمنكر .

ويدخل في مضمون هذا النهي أعوان الظلمة الذين يساعدونهم على أخذ حقوق الناس وانتهاك حُرماتهم ، وينفذون لهم أوامرهم على حسب رغباتهم ، والله عز وجل يقول : « **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** »[2] .

« **وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون** » .

جملة « **وما لكم** » في محل نصب على الحال مربوطة بالواو ، لأن الجملة الحالية ، إما أن تربط بالواو أو بالضمير أو بهما معاً ، كما عقده ابن مالك في الألفية بقوله :

وجملة الحال سوى ما قد ما بواو أو بمضمر أو بهما

وعليه فالجملة حال من الضمير المنصوب في قوله : « **فتمسكم** » . أي تمسكم في حال كونكم لا أولياء لكم .

(1) مسلم (٣/١٤٨٠ – ١٤٨١) . (2) المائدة : ٢ .

ومعنى : « **من دون الله** » . أي غيره .

والولى فعيل من الولاية ، وهو كل من ينعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويجعله يواليك به .

وقوله : « **ثم لا تنصرون** » .

اعلم أن مدلول مادة « **نصر** » اللغوي لا يجوز تطبيقه على كثير من الآيات القرآنية ، لأن معناها في اللغة إعانة المظلوم ، ولا يمكن أن يكون هؤلاء الذين يصفهم الله بأنهم لا ينصرون ، أن يكونوا مظلومين من قبله تعالى ، فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة ، ولذا ترى المفسرين يعدلون عن المعنى اللغوي إلى عبارة : « **المنع** » فيصير المعنى : لا يمنعهم أحد عن الوقوع في العذاب ، فالمراد مطلق إعانة ، لا إعانة خاصة بالمظلومين .

وبين النصير والولي عموم وخصوص من وجه ، يجتمعان في صورة وينفرد كل واحد منهما في أخرى ، فيجتمعان في القرابة ، كالأخوة وأبناء الأعمام القادرين على النصر ، وينفرد النصير في الأجنبي القوي المناصر الذي يسخره الله لنصر أجنبي عنه ، ليس بينه وبينه سبب ولا نسب ، وينفرد الولي في الأقرباء إذا كانوا ضُعفاء لا يستطيعون النصر لقَريبهم .

وهذه الآية الكريمة تُشير إلى أن كل الصداقات والصلات الدنيوية ، إذا لم تكن على أساس طاعة الله تعالى ، أنها غير نافعة ، بل هي وبال ، كما قال تعالى : « **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** »[1] . وقال تعالى : « **وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين** »[2] .

وقال تعالى : « **وقفوهم إنهم مسؤلون ما لكم لا تناصرون** »[3] .

(وهنا سُئل شيخنا المفسر ، رحمه الله عن فائدة الترتيب بثم في قوله : « **ثم لا تنصرون** » ؟ فقال :) مما لا شك فيه أن المخذول الذي لا يحصل على مناصرة في وقت ، قد يكون منتظراً للنصر في وقت آخر وهؤلاء قد يكون الأمر

---

(١) الزخرف : ٦٧ . (٢) العنكبوت : ٢٥ . (٣) الصافات : ٢٤ ــ ٢٥ .

عندهم كذلك ، فيأسهم الله تعالى بأنه لا يؤمل لهم النصر ولو انتظروا آلاف السنين .

والتعبير بالمس للإشعار بتمكن الملامسة .

قوله تعالى :

« **وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** » .

هذا الأمر داخل في الأمر بالاستقامة ، كما مر ، وإنما عطف عليه تنويهاً بشأن الصلاة ، وإقامة الشيء الإتيان به على وجه التمام والكمال ، يُقال : أقاموا الحرب إذا جاؤا بها على الوجه اللازم ، وأقام الصلاة ، إذا جاء بها على وجه التمام والكمال ، بأن أدى شروطها وأركانها وحركاتها وسكناتها وأذكارها كاملة .

والمراد بالصلاة هنا : الصلوات الخمس على التحقيق .

وقوله : « **طرفي النهار** » ظرف ، لأن ما أضيف إلى الظرف ظرف كما قرر في القاعدة النحوية ، وفي المراد بطرفي النهار أقوال ، والأظهر أن المراد بهما النصف الأول والنصف الثاني ، فصلاة الصبح في الطرف الأول من النصف الأول ، وصلاة الظهر في أول الطرف الثاني ، وصلاة العصر في آخر الطرف الثاني ، فيشمل ثلاث صلوات ، وبعضهم يورد إشكالاً على هذا الوجه ، وذلك أن الظهر ليست في طرف ، وإنما هي في الوسط ، والذي يزيل الإشكال ما ذكرنا من أنها في الطرف الأول من الصنف الثاني .

القول الثاني : أن المراد العصر والصبح ، لأنهما الطرفان المعقولان ، والصحيح أن هذه من الآيات المشيرة إلى أوقات الصلاة فهي كقوله تعالى : « **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون** »[1] .

أي سبحوا له ، أي صلوا في وقت المساء ، وهو المغرب والعشاء ، ووقت

(١) الشعراء : ٩٠ .

الإصباح ، وهو صلاة الفجر ، ووقت العشى ، وهو الظهر والعصر .

وقال بعض المفسرين : إن هذا كان قبل وجوب الصلاة المكتوبة ليلة الإسراء والمعراج ، والتحقيق أنها في شأن الصلوات الخمس ، لأنه ، وإن كانت السورة مكية ، فالآية هذه مدنية بدون شك .

وقوله : « **وزلفا من الليل** » المراد المغرب والعشاء ، والزلف أصلها الساعات التي يُقارب بعضها بعضاً ، ومنه قوله تعالى : « **وأزلفت الجنة للمتقين** »(١) . أي قرُبت ، وقوله تعالى : « **وأزلفنا ثم الآخرين** »(٢) . أي قربناهم للغرق ، وقوله تعالى : « **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلفى** »(٣) . أي قُربى ، ولهذا سُميت مزدلفة بهذا الاسم .

وقد ثبت أن هذه الآية نزلت في ذلك الرجل الصحابي الأنصاري الذي كان يبيع التمر ، فجاءته امرأة تشتري منه تمراً ، فقال لها : إن عندي في البيت تمراً أحسن من هذا ، فذهبت معه ، ففعل معها ما لا ينبغي(٤) فجاء إلى الرسول ﷺ ، فأخبره بذلك تائباً فنزلت فيه هذه الآية : « **أقم الصلاة** » إلى آخرها ، فكفّر الله تعالى عنه تلك المعصية بالصلاة ، وهي عامة له ولغيره في صغائر الذنوب .

والصلاة من الأعمال المهمة المكفرة للذنوب ، وقد ضرب لها الرسول ﷺ مثلاً بالنهر الجاري على باب الشخص ، وهو يغتسل فيه خمس مرات كل يوم ، فإنه لا يبقى عليه بعد ذلك وسخ(٥) .

---

(١) الشعراء : ٩٠ .

(٢) الشعراء : ٦٤ .

(٣) الزمر : ٣ .

(٤) قبّلَها كما هو صريح في الحديث ، وهذا نصه : عن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة ، فأتى النبي ﷺ ، فذكر ذلك له ، فنزلت : « **أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** » . قال : فقال الرجل : أَلِي هذه يا رسول الله ! قال : « لمن عمل بها من أُمتي » . البخاري (٢١٤/٥) ومسلم (٢١١٦/٤) . أما كونها جاءت تبايعه في تمر فراجع ذلك في تفسير ابن كثير (٤٦٣/٢) .

(٥) راجع صحيح البخاري (١٣٤/١) وصحيح مسلم (٤٦٢/١) وما بعدها .

قد سبق[1] سبب نزول هذه الآية ، وأنها آية مدنية في سورة مكية ، لأن سورة هود من السور المكية بالإجماع .

ويؤخذ من سبب نزول هذه الآية قاعدة أصولية ، وهي : أن العبرة بعموم الألفاظ ، لا بخصوص الأسباب ، والحديث الذي بين السبب فيه نص ظاهر في ذلك ، فإن الرجل الصحابي لما نزلت الآية بشأنه ، سأل رسول الله ﷺ : أَلِي هذه يا رسول الله ؟ . أي خاصة بي ، لأنني أنا السبب ، أو يعم حكمها لعموم اللفظ ، فأجابه الرسول ﷺ : « لمن عمل بها من أُمتي » . أي إن العبرة بعموم لفظ السيئات والحسنات ، وقد سبق الكلام على طرفي النهار وترجيح أن هذه الآية من الآيات التي تُشير إلى أوقات الصلاة التي بينتها السُنَّة تفصيلاً ، وأن ما اختاره ابن كثير من أن المراد بطرفي النهار ركعتان في الفجر وركعتان في العصر ، وزلفاً من الليل قيام الليل ، وأن ذلك كان قبل فرض الصلوات الخمس ، ليس براجح ، بل الراجح ما ذكرنا ، لأن الآية كما قدمنا مدينة نزلت بشأن الصحابي (بائع التمر) وغاية ما في الأمر أنه إذا لم يرد به الصلوات الخمس بعينها ، أي بخصوصها ، فلا أقل من دخولها في ذلك دخولاً أولياً .

كيف وقد ضرب الرسول ﷺ مثلاً لها بنهر جار على باب أحد يغتسل فيه خمس مرات ، فلا يبقى فيه شيء من وسخ[2] .

ويؤخذ من هذه الآية أن المواظب على الصلوات بخشوع وأداء لما يلزم فيها تكفر عنه صلاته الذنوب الصغائر ، ولا يُنافي هذا قوله تعالى : « **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نُكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً** »[3] . لأن المصلي حقاً لابد أن يكون مجتنباً للكبائر ، وسبق الكلام على معنى الزلف لغة وشرعاً ، وسبق الاستشهاد لذلك .

والحسنات من الحسن ، وهو ضد القبح ، والحسنة في الشرع الخصلة القيمة المستحسنة من حيث الأمر بها وما يترتب عليها من الجزاء الطيب كالصلوات .

---

(١) من هنا بدأت المحاضرة الواحدة والثلاثون في ١٣٨٤/٩/١هـ وكان دخول شهر رمضان حينئذ في فصل الشتاء .

(٢) سبق قريباً ذكر تخريج الحديث .

(٣) النساء : ٣١ .

والسيئات جمع سيئة ، وأصلها سيْوِئة ، فوزنها فيعله ، وإنما اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء على حد قول ابن مالك :

إن يسكن السابق من واو ويا واتصلا ومن عروض عريا
فياء الواو اقلبن مدغما وشذ معطى غير ما قد رسما

والسيئة في الشرع هي الخصلة التي تسيء صاحبها إذا رآها في صحائفه يوم القيامة ، كتقبيل الأجنبية الذي نزلت بسببه هذه الآية .

ووجه إذهاب الحسنة السيئة أنها إذا وضعت في كفة الميزان رجحت ، فكأنها تمحوها ، والسيئات لا تذهب الحسنات إلا إذا كانت السيئة الكبرى ، وهي الشرك ، كما قال تعالى : « **ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** »[1] .

والذكرى مصدر مؤنث بألف التأنيث المقصورة لفظاً .

والإشارة إلى ما ذكر في السورة كلها ، أو إلى ما ذكر من إقام الصلاة وأنها تكفر بعض الذنوب ، والذكرى تطلق على الموعظة ، والوعظ هو الكلام الذي تلين به القلوب ، ويكثر في القرآن إطلاق الوعظ مراداً به الأوامر والنواهي ، وهو قد يُشكل عند طالب العلم الذي يفهم أن الوعظ هو الكلام المرقق للقلوب بالوعد والوعيد المُجرد عن الأمر والنهي .

ومن أمثلة ما أطلق فيه الوعظ على الأوامر والنواهي قوله تعالى في سورة البقرة : « **ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر** »[2] . بعد قوله تعالى في الطلاق والرجعة : « **وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف** »[2] .

---

(١) الزمر : ٦٥ ، والحسنة التي لا تحبط مطلقاً ــ إلا بالشرك ــ هي الإيمان الذي لابد لصاحبه من دخول الجنة مهما كانت خطاياه غير الشرك .

(٢) البقرة : ٢٣٢ .

وقال تعالى في سورة الطلاق : « **فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر** »(١) . وهو أكثر إطلاق القرآن الكريم .

والذي يزيل الإشكال أن من أعظم المواعظ التي تلين لها القلوب المؤمنة الأوامر والنواهي ، فإن المؤمن يطمع فيما أمر الله به في ثواب أُخروي عظيم ، كما يخاف من ارتكاب ما نهى عنه أن يُعاقب عقاباً شديداً ، وذلك وعظ ولا شك .

ويضرب لهذا مثل ــ ولله المثل الأعلى ــ بما إذا كان في البلاد ملك شديد البطش ، يصدر أوامر شديدة ونواهي أكيدة ، فإن الناس يخشونه من مخالفة الأمر والنهي ، فيسارعون إلى امتثال الأمر طلباً لارضائه واجتناب النهي هرباً من سخطه وإغضابه .

والذاكرين اسم فاعل ، جمع الذاكر ، وهو متعد ، مفعوله محذوف أي الذاكرين الله .

وقد جرت عادة القرآن أن يخص المنتفع به دون غيره ، غالباً ، لأن الذي لم يستفد ينزل منزلة من لم يذكر ولم يوعظ ، كما قال تعالى : « **إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم** »(٢) . وقال تعالى : « **إنما أنت منذر من يخشاها** »(٣) . وقال تعالى : « **فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** »(٤) . مع أن الله تعالى صرح بعموم نذارته كما قال تعالى : « **تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** »(٥) . وإنما يخص المتقين كما مضى ، لأنهم هم الذين ينتفعون به ، فهو لهم رحمة وحجة ، وعلى غيرهم وبال لإعراضهم عنه ، فهو مفتاح الجنة للعاملين ومفتاح النار للمعرضين ، كما قال تعالى : « **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم**

---

(١) الطلاق : ٢ .
(٢) يس : ١١ .
(٣) النازعات : ٤٥ .
(٤) ق : ٤٥ .
(٥) الفرقان : ١ .

عمى »[١] . وقال تعالى : « **ونُنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً** »[٢] .

وقال تعالى : « **وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون** »[٣]

« **واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** » .

الصبر في اللغة حبس النفس ، ومادته تأتي متعدية ولازمة ، يُقال صبر زيد ، وصبر نفسه ، ومن تعديه في القرآن قوله تعالى : « **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم** »[٤] . ومن لغة العرب قول الشاعر :

فصبرت عارفة بذلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع

وهو في الاصطلاح خصلة عظيمة شاملة لكل خصال الإيمان ، فإنه يكون صبراً عن المعصية مع شدة الشهوة إليها ، وعلى الطاعة ، وعلى المصائب عند الصدمة الأولى ، والصبر على الموت عند اللقاء في سبيل الله ، فهو حبس النفس على جميع المكاره إرضاء لله .

وقد نوه الله بشأن الصبر تنويهاً عظيماً ، رافعاً لقدره حيث جعل أجره غير معروف للناس مثل بقية الأعمال ، كما قال تعالى : « **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** »[٥] .

ومن الصابرين الصائمون ، وقد قال الله تعالى في شأنهم في حديث قدسي صحيح : « الصيام لي وأنا أجزي به والحسنة بعشر أمثالها »[٦] .

ونبه تعالى في سورة فصلت أن الصبر خصلة عظيمة لا يعطاها إلا من عظم حظه عند الله تعالى ، كما قال جل وعلا : « **وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** »[٧] .

---

(١) فصلت : ٤٤ . (٢) الاسراء : ٨٢ . (٣) التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥ . (٤) الكهف : ٢٨ .
(٥) الزمر : ١٠ . (٦) البخاري (٢/٢٢٦) . (٧) فصلت : ٣٥ .

والمراد من الآية : اصبر يا محمد على ما ينالك من المشقات في تبليغ رسالة الله كأذى المشركين لك .

والأجر جزاء العمل ، والإحسان الإتيان بالعمل حسناً ، بأن يكون مطابقاً للأمـــر .

والضياع الاضمحلال والخراب ، والمراد : إن الله لا يضيع جزاء صبرك يا مُحمد ، وقد تقدم أن الصبر خصلة عظيمة شاملة لكل خصال الإيمان .

وقد بين الرسول ﷺ معنى الإحسان بياناً شافياً في حديث جبريل ، حيث قال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] .

وقد يطلق الأجر في القرآن أيضاً على جزاء الاستمتاع بالنساء ، لأنه يشبه المنافع التي يعطي الأجير أجره عليها ، ومنه قوله تعالى : « **فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن** »[2] . وقال تعالى : « **إذا آتيتموهن أجورهن** »[3] .

قوله تعالى :

« **فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين** » .

لولا تأتي لمعان كثيرة ، فتأتي حرف امتناع لوجود ، وليس هذه محل بحثنا هنا ، وتأتي للتحضيض ، وهو الطلب بحث وشدة ، يُقال : حضه إذا حثه ، مثل قوله تعالى : « **وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين** »[4] . أي يارب أطلبك طلباً حثيثاً شديداً أن تؤخرني ، وهذه لها حالتان :

الأولى : أن يكون المطلوب بها الذي وقع الحث عليه مما يمكن تداركه ، نحو قوله تعالى : « **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين** » **الآية**[5] . وهذه للحض والطلب بلا خلاف .

---

(١) البخاري (٦/٢٠) ومسلم (١/٣٦ ــ ٣٧) .
(٢) النساء ٢٤ .
(٣) المائدة : ٥ .
(٤) المنافقون : ١٠ .
(٥) التوبة : ١٢٢ .

الثانية : أن يأتي الخطاب بها في وقت لا يمكن فيه تدارك المطلوب لفوات الفرصة ، ومنه قوله تعالى : « **لولا إذ سمعتوه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين** »[1] .

ومنه ما في هذه الآية : « **فلولا كان من القرون** » **الآية** ، فإن المطلوب بها مما لا يمكن تداركه ، وعلى هذا يرد الإشكال ، وهو : كيف يطلب بحث وشدة ما لا يمكن تداركه لفوات وقته ؟

والجواب أن « **لولا** » في هذه الحالة تنقلب دلالتها من الحث والطلب إلى التوبيخ والتنديم ، فيوبخ المُخاطب بها ويحمل على أن يندم ، وهذا منطبق على أهل الإفك انطباقاً ظاهراً ، غير أن الإشكال في هذه الآية لا يزال قائماً من جهة أن التوبيخ والتنديم في حق القرون الأولى قد فات أيضاً ، لأن الآية ليست خطاباً لهم ، فكيف يُقال ذلك في حقهم ؟

والجواب أن المقصود توبيخ غيرهم وتنديم غيرهم إن فوتوا الفرصة كما فوتها من سبقهم ، فكأنه يخبر المخاطبين أن مآلهم هو مآل أهل القرون الأولى .

والمراد بالبقية الدين ، وإنما أطلق على الدين بقية ، لأنه عمل باق ، بخلاف غيره من الأعمال ، فإنها تضمحل ، كما قال تعالى : « **المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً** »[2] .

(وسُئل شيخنا المفسر عن جواب لولا ، فقال) : ليس لها جواب لأنها لطلب الفعل ، وليست للربط .

و « **أولو** » معناه[3] أصحاب ، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه ، وهو في إعرابه ملحق بجمع المذكر السالم ، كما عقده ابن مالك بقوله في الألفية :

أولـو وعـالمون عليونـا وأرضو شذ ، والسنونـا

وبعض المُفسرين يقول إن البقية كناية عن الجودة ، والظاهر أنه غير

---

(١) النور : ١٢ . (٢) الكهف : ٤٦ .

(٣) من هنا بدأت المحاضرة الثانية والثلاثون في ١٣٨٤/٩/٣هـ .

مستقيم ، وأن الأولى تفسيرها بما قدمنا من أنها الدين والأعمال الصالحة ، فهي ضد الفناء ، لأن الإنسان له عملان : عمل سيء يرضى الشيطان ، وعمل صالح يرضى الله تعالى ، فالعمل السيء يفنى ويضمحل ، والعمل الصالح يبقى ويدوم ، وقد أطلق الله تعالى على الأعمال الصالحة بأنها باقيات ، كما قال تعالى : « **والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً** » . وخير ما يُفسر به القرآن القرآن .

فالمراد بقوله : « **أولو بقية** » أنهم أصحاب عمل صالح يبقى لهم ويدخر ثوابه ليوم القيامة ، جزاء أمرهم ونهيهم .

وجملة : « **ينهون** » يصح أن يكون محله الرفع على أنه نعت لقوله : « **أولوا** » ، ويجوز أن يكون حالاً فيكون محله النصب ، وعلى كلا الحالين ، فهو جملة ، إما نعت بها على حد قول ابن مالك في الألفية :

ونعتوا بجملة منكراً ... فأعطيت ما أعطيته خبراً

وإما وقعت حالاً على حد قوله أيضاً :

وموضع الحال تجيء جملةْ ... كجاء زيد وهو ناو رحلة

ولا يرد على كونها حالاً أن صاحبها نكرة ، لأنها قد أضيفت فخصصت ، وذلك من مسوغات مجيء الحال نكرة كما عقده ابن مالك في الألفية بقوله :

ولم ينكر غالباً ذو الحال إن ... لم يتأخر أو يُخصص أو يبن

من بعد نفي ....

والشاهد قوله : « **أو يُخصص** » .

ومعنى الآية أن القرون الأولى يستحقون التوبيخ والتقريع والتنديم لتتابعهم على الفساد ، ولعدم وجود أولى بقية منهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، هذا هو الذي يدل عليه حرف التحضيض الذي انقلب للدلالة على التوبيخ والتنديم ، ولذلك صح الاستثناء بعد الجملة بقوله تعالى : « **إلا قليلاً** » ولا داعي لما قاله بعضهم : إن حرف التحضيض المراد به النفي ، فإن التنديم والتقريع على

الشيء يدل على أنه لم يوجد من المخاطبين ، وهو كما سبق تحذير لهذه الأمة ، كما قال تعالى : « **لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب** »[1] .

« **إلا قليلاً ممن أنجينا منهم** » .

استثنى الله من القرون الماضية الذين دلت الجملة الأولى على عدم وجود أولى بقية منهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، استثنى تعالى قليلاً منهم كانوا متصفين بأنهم أولو بقية ، ينهون عن المنكر والفساد ، والتحقيق أن هذا القليل المستثنى لا يختص بأمة دون أخرى ، ففي كل أمة أولو بقية ، كما وقع ذلك في أهل السبت ، فإن طائفة منهم أمرت ونهت ، كما قال تعالى : « **وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون** »[2] . وكذلك الرجل الذي كان يكتم إيمانه من قوم فرعون ، فإنه قام بموعظة عظيمة جداً وعظ بها فرعون وقومه من أن يتعرضوا لموسى عليه السلام وقومه كما قص الله ذلك في سورة المؤمن »[3] .

ولا يصح تفسيراً الاستثناء بخصوص قوم يونس فقط ، كما ذهب إليه بعض المفسرين .

والمراد أن هذا القليل المستثنى كان ينهى عن الفساد في الأرض فلا يلحقهم هذا التوبيخ .

وفي هذا إشارة إلى أن صاحب البقية الناهي عن الفساد يكون فعله سبباً لنجاته .

والفساد يطلق على كل ما يسخط الله ، وإذا وقع في الأرض ما يسخط الله فإن العذاب والسخط يعم ، كما أسخط قوم نوح ربهم ، فعم الغرق ، كل أهل الأرض ، ممن لم يكونوا في السفينة ، ومنهم الحيوانات ، كما قال تعالى : « **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب** »[4] .

---

(١) يوسف : ١١١ .
(٢) الأعراف : ١٦٤ .
(٣) وهي سورة غافر من الآية : ٢٨ إلى الآية : ٤٥ منها .
(٤) الأنفال : ٢٥ .

« واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه » .

الترف النعمة ، والإتراف التنعيم ، وما موصولة ، وهنا إشكال ، وهو كيف يقع الاتباع على الترف وزهرة الحياة الدنيا ؟

والجواب : أن في الآية سراً لطيفاً ، يشير إلى أن زينة الدنيا هي السبب الذي أوقع الناس في البطر والصدود عن الله ، فكأنها بهذا الاعتبار متبوع لهم يتبعونه فلا يراعون إلا إياه ، وتركوا العمل للآخرة .

وقد جرت العادة أن أعداء الرُسُل ومناوئيهم هم المترفون ، كما قال تعالى : **« وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون »**[١] .

والسبب في ذلك أن المترف يكون عنده من المكانة والجاه بين قومه ما يجعله يستكبر أن ينزل عنهما ويتبع غيره ، بخلاف الفقراء والعامة ، فإنهم لا يردهم عن ذلك كبر ، وقد مضى أن أتباع نوح كانوا من عامة الناس ، وأن المترفين هم الذين عادوه وسموا أتباعه من غيرهم أراذل[٢] .

وكذلك قوم النبي ﷺ من كُفار قُريش طلبوا منه أن يطرد من آمن معه من الضعفاء ، ونهاه الله عن ذلك[٣] .

وأبو سُفيان لما سأله هرقل : أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم ، فقال هرقل : وكذلك أتباع الرُسُل هم من ضعفاء الناس[٤] .

فأتباع الرُسُل غالباً وأتباع الحق هم الفقراء ، وأعداء الرُسُل هم المترفون فمعنى الآية : أن إمامهم وقائدهم إلى الشر كانت النعمة ، وقد نص الله تعالى على أدوار الكفار ، وأنها ثلاثة :

أولاً : النكبات الدنيوية ، من مرض وفقر وإهلاك أموال وأوجاع وغيرها .

---

(١) سبأ : ٣٤ . (٢) راجع تفسير الآية : ٢٧ وما بعدها .

(٣) كما في قوله تعالى : « **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين** » . الأنعام : ٥٢ .

(٤) راجع صحيح البخاري (١/٥ ـــ ٧) .

ثانياً : استدراجهم بقلب تلك النكبات نعماً ، فينقلب المرض صحة والفقر غنى ، والجدب سعة ورغداً ، وغير ذلك ، ثم تكون النهاية غير ذلك .

ثالثاً : هلاك الاستئصال الذي لا يبقى معه إلا الصالحون الذين يتكبدون المشاق في سبيل الدعوة إلى الحق ، كما قال تعالى في سورة الأعراف : « **وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتةِ وهم لا يشعرون** »[١] .

وقال تعالى في سورة الأنعام : « **فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** »[٢] .

وكونهم اتبعوا ما أترفوا فيه لا غرابة فيه ، فإن كل ما يصد عن طاعة الله إلى طاعة الشيطان فهو متبوع ، أو بمنزلة المتبوع ، وقد سمى الله الهوى الذي يزين لصاحبه المعاصي ويقبح الحسنات والطاعات ، سماه إلٰهاً ، كما قال تعالى : « **أرأيت من اتخذ إلٰهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا** »[٣] .

والظُلم أكثر ما يطلق في القرآن الكريم مراداً به الشرك ، ويُسمى به الكفار وهم ــ هنا ــ الذين نُدِّموا ووبخوا على كونهم ليسوا أهل بقية ولا ينهون عن الفساد في الأرض .

قال تعالى في إطلاق الظُلم على الكُفر والظالمين على الكافرين : « **والكافرون هم الظالمون** »[٤] . وقال تعالى : « **وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظُلم عظيم** »[٥] . وقال تعالى : « **ولا تدع من**

---

(١) الأعراف : ٩٤ ، ٩٥ ، وفي هاتين الآيتين الدوران : الأول والثاني كما هو واضح .
(٢) الأنعام : ٤٣ ــ ٤٥ وفي هذه الآيات الاستدراج وعذاب الاستئصال .
(٣) الفرقان : ٤٣ . (٤) البقرة : ٢٥٤ .
(٥) لقمان : ١٣ .

دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين »[١] .
وقال : « **وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** »[٢] .

وقوله تعالى : « **وكانوا مجرمين** » . أي في اتباعهم الشهوات والدنيا والإعراض عن الله وعن طاعته ، الإجرام ارتكاب الجريمة ، وهي الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه التنكيل الشديد ، وهذا الفعل يأتي رُباعياً كما هنا ، فإن اسم فاعله من أجرم يجرم فهو مجرم ، ومنه قوله تعالى : « **إن الذين أجرموا** »[٣] .
ومن إتيان جرم ثلاثياً قوله تعالى : « **ولا يجرمنكم** »[٤] ، ومنه قول الشاعر :

ونـنصر مولانا ونعلـم أنـه ... كما الناس مجروم عليه وجارم

قوله تعالى :

« **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** » .

اللام في قوله : « **ليهلك** » لام الجحود ، والمضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً ، كما قال ابن مالك في الألفية :

وبين لا ولام جر التزم ... إظهار أن ناصبة ، وإن عُدم
لا فأن اعمل مظهرا أو مضمرا ... وبعد نفي كان حتماً أضمرا

(وذكر الشيخ بيتاً فيه ضبط لام الجحود ، فقال) : وقد ضبط بعضهم لام الجحود بقوله :

وكل لام قبلهـا ما كانـــا ... أو لم يكن فللجحود بانا

والمراد بالقرى أهلها ، والقرية تستعمل في اللغة وفي القرآن مراداً بها الأبنية تارة ، والساكنين تارة أُخرى ، وكل منهما أسلوب عربي ، وإنما غلب استعماله في الأبنية .

فمن إطلاق القرية مراداً بها الأبنية قوله تعالى : « **فانطلقا حتى إذا أتيا أهل**

---

(١) يونس : ١٠٦ . (٢) البقرة : ٥٧ . (٣) سورة المطففين : ٢٩ . المائدة : ٢ .

قرية استطعما أهلها »[1] . والبلاغيون يقدرونه هنا على حذف مضاف ، أي أهل القرى ، فهو من مجاز الحذف ، على حد قول ابن مالك في الألفية :

وما يلي المضاف يأتي خلفاً عنه في الإعراب إذا ما حذفا

والأولى ما قدمناه ، فلا حاجة إلى تقدير أو حذف[2] .

وفي المراد بالظُلم المنفي في قوله : « **بظلم** » وجهان :

الأول : ــ وهو الظاهر الحق ــ أن النفي متجه لوقوعه من الله تعالى ، يبين ذلك التصريح بنفيه عنه تعالى في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : « **وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** »[3] . وقوله تعالى : « **إن الله لا يظلم مثقال ذرة** »[4] . وقوله تعالى : « **إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون** »[5] .

وجملة : « **وأهلها مصلحون** » في محل نصب على الحال ، أي والحال أن أهلها مصلحون ، وهذا يدل أنه تعالى إذا أطيع لا يهلك من أطاعه ، لأن الإهلاك ، مع عدم موجبه ظُلم ، والظُلم منتف عنه .

والمنفى[6] لا يدل العقل على إمكانه ، فهو الغني سبحانه لذاته وصفاته ، ولا يجيز العقل أن يتخلف شيء من مقتضيات صفاته .

والباء على هذا الوجه باء التلبس ، أي وما كان ربك ليهلك القرى في حال كونه متلبساً بظُلم ، وسبق أن نفى الظلم عنه لا يدل على إمكانه ، فهو تعالى ينفي عن نفسه المستحيل ، ولا يُقال : إن نفيه له يدل على إمكانه منه ، قال تعالى : « **وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** »[7] . وقال تعالى : « **ما أُريد منهم من رزق وما أُريد أن يطعمون** »[8] .

(١) الكهف : ٧٧ .

(٢) جرى فضيلة شيخنا المفسر على رأيه في نفي المجاز وله رسالة مستقلة في ذلك بعنوان : منع المجاز فيما نزل للتعبد والإعجاز .

(٣) العنكبوت : ٤٠ . (٤) النساء : ٤٠ . (٥) يونس : ٤٤ .

(٦) من هنا بدأت المحاضرة الثالثة والثلاثون في ١٣٨٤/٩/٥هـ .

(٧) البقرة : ٥٧ . (٨) الذاريات : ٥٧ .

الوجه الثاني ــ ويظهر لي سقوطه ، وإن قال به بعض أهل العلم واختاره ــ أن المراد أنه تعالى لا يهلك أهل القرى بظُلمهم وحده وهو الكُفر به جل وعلا بل لا يهلكهم إلا بعد أن يقع منهم الإفساد في الأرض بالتعدي على الناس وغير ذلك من المعاصي المجتمعة من الطغيان ، كما وقع من قوم شُعيب ، من نقص المكيال والميزان وقعودهم للناس في الطُرقات لأخذ المكوس ، كما قيل :

ولو بغى جبل يوماً على جبل   لاندك منه أعاليه وأسفله

وهذا الوجه ــ كما قدمنا ــ في غاية السقوط ، فإنه لا شيء أفسد وأكبر طغياناً من الظُلم الذي هو الشرك .

والمعنى على الوجه الأول أنهم إذا كانوا مطيعين الله سبحانه فإهلاكهم ظُلم ، لأنه إيقاع للشيء في غير موضعه ، فهو لا يهلكهم وهم مطيعون ربهم تعالى .

وعلى الوجه الثاني يكون معنى قوله : « **مصلحون** » . أي في ذات بينهم ، لا يتظالمون ولا يتعدى أحد على أحد ، وإن كان الشرك واقعاً منهم ، وليس هذا بشيء كما مضى ، فإنه لا يمكن أن يُسمى المشرك الكافر مصلحاً ، فلا صلاح مع الكفر بالله تعالى .

وإنما جر القائلين بهذا الوجه الثاني فهمهم أن نفي الظُلم عن الله يدل على إمكان وقوعه منه ، وقد قدمنا أن ذلك لا يدل على إمكان وقوعه ، بدليل أنه تعالى نفى عن نفسه المستحيل .

قوله تعالى :

« **ولو شاء ربك لجعل الناس أُمة واحدة ولا يزالون مختلفين** » . تقرر في فن المعاني أن فعل المشيئة المعلق بأداة شرط يحذف مفعوله دائماً ، اكتفاء بجزائه الذي يدل على ذلك المفعول المحذوف ، لأن في ذكرهما جميعاً تكراراً لا حاجة إليه ، والتقدير هنا : ولو شاء ربك جعل الناس أُمة واحدة ، وقد تتبعنا القرآن العظيم والشواهد العربية ، فلم نجد لفعل المشيئة المعلق بأداة شرط مفعولاً يُذكر إلا إذا كان مصدراً مسبوكاً من أنْ وصلتها ، كقوله تعالى : « **لو أردنا أن نتخذ**

هواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين »[1] . ولو جاء به على الأصل الجاري من حذف المفعول لقال : لو أردنا لاتخذنا لهواً ، وقوله تعالى : « **لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء** »[2] . ولو جاء به على الأصل الجاري لقال : لو أراد الله لاصطفى مما يخلق ما يشاء .

ومن شواهده العربية قول الشاعر :

ولو شئت أن أبكي دماً لبكيته   عليك ولكن ساحة الصبر أوسع

ومعنى الآية : لو أراد الله أن يكون الناس متفقين على دين واحد مستقيم صواب لجعلهم كذلك ، ولكن لم يرد ذلك ، فلم يجعلهم متفقين ، وهذا التفسير هو الصحيح الذي يجب اعتماده ، لكثرة وروده في القرآن كذلك ، كما قال تعالى : « **ولو شئنا لآتينا كل نفسٍ هُداها** »[3] . وقال تعالى : « **ولو شاء الله ما أشركوا** »[4] .

وقال تعالى : « **ولو شاء الله لجمعهم على الهدى** »[5] . وقال تعالى : « **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً** »[6] .

وقد سبق الكلام على إطلاقات الأمة ، والمراد هنا : جماعة واحدة تعتنق عقيدة واحدة وديناً واحداً .

« **ولا يزالون مختلفين** » . يزال مضارع زال التي هي من أخوات كان ، وتعمل بشرط اعتمادها على نفي أو شبه نفي ، والشرط موجود هنا ، وهو اعتمادها على النفي ، وهو « **لا** » فالواو الدال على جماعة الذكور اسمها ، وقوله « **مختلفين** » جمع مذكر سالم خبرها ، منصوب بالياء ، أي لا يزالون مختلفين في الملل والأديان ، فمنهم من هو على حق ، ومنهم من هو على باطل .

وهنا يرد إشكال يسأل عنه طالب العلم ، وهو : ما المانع من جعل الناس أمة واحدة ، إما مهتدين على دين واحد ، وإما كفاراً كلهم ، وما الحكمة في جعلهم مختلفين ؟ .

---

(١) الأنبياء : ١٧ . (٢) الزمر : ٤ . (٣) السجدة : ١٣ .
(٤) الأنعام : ١٠٧ . (٥) الأنعام : ٣٥ . (٦) يونس : ٩٩ .

والجواب أن رب السموات والأرض غني غنىً مطلقاً بذاته خلق الخلق لتظهر فيهم أسرار أسمائه وصفاته ، وعلامات مُلكه وسلطنته وقهره ، ومن صفاته تعالى ما يدل على الرحمة والرأفة والشفقة ، ومنها ما يدل على العزة والقهر والجبروت والغلبة ، فلو جعل الناس كلهم مهتدين لما ظهر للخلق كمال الإنصاف والعدل ، ولما ظهر للناس شدة قهره وجبروته ولو جعلهم كلهم كفاراً لما ظهر للناس آثار رحمته ورأفته وعطفه وجوده وإحسانه ، ولهذا هدى الله تعالى قوماً وطبعهم على الطيب من الأعمال وصرف نياتهم إلى ما سبق به الأزل لهم من الخير ، لتظهر فيهم آثار أسمائه الدالة على الرحمة وغيرها من صفات الإحسان والجود والكرم ، وخلق آخرين وطبعهم على الخبث وصرف نياتهم إلى ما كتب لهم في الأزل وفي سابق علمه من الشقاء ، لتظهر فيهم آثار قدرته وشدة بطشه وكمال عدله وإنصافه .

والحب إذا تجرد من الخوف ، ربما تجرأ المحب على ما لا ينبغي لعدم خوفه من المحبوب ، كما أن الخوف المحض ، لو تجرد من الحب لربما كان المطيع إنما أطاع خوفاً منه لا حباً في ذلك ، وكلاهما لا يليق بالله عز وجل ، وباجتماعهما تظهر في بعض خلقه آثار بعض صفاته ، وفي بعضهم الآخر آثار بعض صفاته الأخرى .

« **إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** » .

أي إلا هؤلاء فإنهم لا يختلفون ، فالاختلاف متداخل في الأُمم والطوائف ، فاليهود مثلاً انقسموا إلى واحدة وسبعين فرقة ، والنصارى انقسمت إلى اثنتين وسبعين فرقة ، وأُمة محمد ﷺ انقسمت إلى ثلاث وسبعين فرقة .

والأُمة المرحومة تكون على دين واحد لا تختلف ، كما قال تعالى : « **إن الدين عند الله الإسلام** » **الآية**[1] . قال تعالى : « **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** »[2] .

ولما ذكر الرسول ﷺ افتراق اليهود والنصارى وهذه الأُمة ذكر أن الناجية

---

(١) آل عمران : ٩ .
(٢) آل عمران : ٨٥ .

هي واحدة ، وهي التي تكون على ما كان عليه هو ﷺ وأصحابه ، رضي الله عنهم[1] .

فمن خرج عنهم هلك ، وليس من المرحومين الذين استثناهم الله تعالى .

وبهذه الآية وأمثالها يحمل بعض العُلماء على أئمة الإسلام ، لكونهم اختلفوا في بعض المسائل ، فيقول هؤلاء : إن الاختلاف ليس فيه رحمة بل فيه شقاء ، ومن الآيات التي يستدلون بها قوله تعالى : « **إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء** » **الآية**[2] .

وهذا غلط فاحش من الذين يقولون هذا القول في أئمة الدين وتلاعب بكتاب الله تعالى ووضع آياته في غير موضعها ، بل تلاعب بدين الله عز وجل ، لأن الاختلاف المذموم هو الاختلاف في الأساس والجوهر الذي يكون في أصول الدين ، وأما الفروع التي هي موضع للاجتهاد وتؤخذ بالاستنباط فلا دخل لها في هذا ، ويدل لهذا ما ثبت في صحيح البخاري أن الرسول ﷺ أمر منادياً أن يُنادي في الناس أن لا يصلوا العصر إلا في بني قُريظة ، فذهبوا ، ولما حان وقت صلاة العصر وهم في الطريق اختلفوا ، ففهم بعضهم أن مراد الرسول ﷺ الحث على الإسراع ، لا ترك الصلاة في وقتها ، فصلوا في الطريق ، وفهم آخرون أن لا تصلي العصر إلا في بني قُريظة ولو خرج وقتها وقالوا : إن الذي أمرنا بالصلاة هو رسول الله ﷺ ولو قال لنا اتركوها إلى الأبد لتركناها ، وقد نهانا عن الصلاة حتى نصل إلى بني قُريظة ، فلم يصلوا في الطريق بل صلوها في بني قُريظة وقد غابت الشمس ، بل غاب الشفق .

ففرقة منهم يعتبرون سلفاً للظاهرية ــ وإن كانوا أسمى وأعلى ، وهم الذين لم يصلوا إلا في بني قُريظة ، والفرقة الأُخرى تعتبر سلفاً لأئمة الفقه والاستنباط الذين ينقبون عن المعاني المرادة من الألفاظ ، ولم يؤنب الرسول ﷺ هؤلاء

---

(١) راجع روايات الحديث الذي أشار إليه فضيلة شيخنا المفسر رحمه الله في سنن الترمذي (٥/٢٥ ــ ٢٧) وسنن أبي داود (٥/٤ ــ ٦) .

(٢) الأنعام : ١٥٩ ، وقد أطال الكلام على هذه الآية محمد رشيد رضا في تفسير المنار ، وأشار إلى آراء العلماء في هذا الصدد فراجعه (٨/٢١٣) وما بعدها .

ولا أولئك ، بل رأى أن كل طائفة قد أدت ما عليها مما فهمت من أمره ﷺ .

فهؤلاء[1] قد سمعوا النص من الرسول ﷺ مباشرة ، واختلفوا فيه على حسب ما أعطيت كل طائفة من الفهم عن رسول الله ﷺ ، ومما لا شك فيه أنهم اختلفوا اختلافاً متناقضاً ، لأن إحدى الطائفتين صلت في الوقت ، والأُخرى صلت في خارج الوقت ، فالأولى على وجود والأخرى على عدم ، والنسبة بين الطائفتين من نسبة النقيض إلى نقيضه ، كما قيل :

سارت مشرقة وسرت مغربا شتان بين مشرق ومغرب

ومع ذلك اجتمعوا عند الصادق المصدوق ﷺ في الأيام التي ينزل عليه الملك فيها بالوحي من السماء ، وأقر كل طائفة على ما فهمت ، وهو لا يقر على باطل[2] .

وفي هذا دليل واضح في الرد على بعض المتنطعين الذين يحملون على الأئمة ، ويطبقون هذه الآية وأمثالها عليهم ، ويقولون نفي الرحمة عن المختلفين يدل على أنهم ضلال ، وغالب هؤلاء المتحاملين تشبعوا بفكرة محمد بن حزم التي يتحامل فيها على العُلماء ، وهو وإن كان عالماً جليلاً ، فإنه أخطأ في استدلاله على الأئمة بتلك النصوص ، وقد دلت الشريعة الإسلامية أن للضلال أصلين ، وأن للحق أصلاً واحداً ، هو الوسط بين ذينك الأصلين .

فالأصلان اللذان ينشأ عنهما الضلال هما :

١ ــ **الإفراط** : كما حدث من النصارى ، بالنسبة لعيسى عليه السلام ، حيث قالوا : المسيح ابن الله ، أو الله ، أو ثالث ثلاثة ، وكما وقع من اليهود حيث قالوا : عزيز ابن الله ، وكما وقع في القدرية ــ منكري القدر ــ من الإفراط في أفعال العبد ، حيث جعلوا العبد مستقلاً بكل ما يفعل ، وليس ذلك بمشيئة الله ولا قــدره .

---

(١) من هنا بدأت المحاضرة الرابعة والثلاثون في ١٣٨٤/٩/٨هـ .

(٢) راجع قصة اختلاف الصحابة هذه في صحيح البخاري (٥/٥٠) ، وصحيح مسلم (١٣٩١/٣) إلا أنه في مسلم : « لا يصلين أحد الظهر » بدل العصر ، وراجع فتح الباري (٤٠٧/٧) وما بعدها .

٢ ــ **التفريط** : كما فعل اليهود بالنسبة لعيسى عليه السلام ، حيث قالوا إنه ابن زنا ، وأنكروا نبوته ، وكما وقع من الجبرية ، حيث زعموا أن العبد لا فعل له ، بل هو مجبور من قبل الله ، لا مشيئة له في حركة ولا سكون .

أما الأصل ــ الذي هو الوسط بين الإفراط والتفريط ــ الذي ينبني عليه الحق ، فهو ترك إفراط المُفْرِطين ، وتفريط المفَرّطين ، فإن الحق بينهما ، كما اعتقد المسلمون أن عيسى عليه السلام عبد الله ــ لا الله ولا ابن الله ولا ثالث ثلاثة ــ ورسوله ــ فأقروا برسالته ــ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ــ لا ولد زنا كما زعم اليهود عليهم لعائن الله .

وكما اعتقدوا أن العبد فاعل حقيقة ، وفعله ومشيئته تابعان لمشيئة الله ، لا يفعل إلا ما شاء الله ، كما قال تعالى : « **وما تشاؤن إلا أن يشاء الله رب العالمين** »[١] .

فأثبت أن للعباد مشيئة تابعة لمشيئته التي يصرف بها مشيئة العبد إلى ما يطابق ما سبق به الأزل .

إذا عرفت هذه الأصول الثلاثة ، وأن الأولين منهما عنهما نشأ الضلال ، وأن الثالث هو الذي ينبني عليه الحق ، فاعلم أن الناس في الأئمة الفقهاء الإسلاميين رحمهم الله ثلاثة أقسام :

قسم أفرط فيهم حتى لو جيء بآية محكمة من كتاب الله تعالى أو حديث ثابت عن رسول الله ﷺ ، لم يُعارضه نص من النصوص ، وهو يدل على خلاف ما نص عليه إمامه ، لم يقبله ، بل يعرض عنه إعراضاً كلياً ، ويقول : أنا تابع للإمام الفلاني ، فلا آخذ إلا بما نص عليه ، وأهل هذا القسم قوم ضلال ، ولو كان الأئمة أحياء لتبرؤا منهم ، فهم منهم براء ، وقد حذروا رحمهم الله من أن يأخذ أحد برأيهم بلا دليل ، فضلاً عن أن يكون مخالفاً للدليل .

وقسم فرّط في حقهم ، رحمهم الله فحكموا عليهم بأنهم ضالون وأن أقوالهم

---

(١) التكوير : ٢٩ .

ضالة ، ولم يراعوا لهم حرمة ، ولا لما بذلوا من جهود في سبيل الدين والشريعة الإسلامية ، فالأولون شابهوا النصارى الذين أطروا في عيسى عليه السلام واليهود الذين أطروا في عزير ، وهؤلاء شابهوا اليهود الذين فرطو في عيسى كما مضى .

وقسم اعتدلوا ، وهم الوسط بين المفرطين والمفرطين ، فعرفوا للأئمة فضلهم ، ولم يهضموهم حقهم ، ولم يجعلوا أقوالهم بمنزلة قول الشارع ، بل رأوا أنهم مجتهدون ، واصابتهم أكثر من خطئهم ، كما قال الإمام مالك ، رحمه الله : كل كلام راد ومردود إلا كلام صاحب هذا القبر ﷺ .

فهم رحمهم الله قد يخطئون ، ولكن عن اجتهاد ، لا يذمون عليه بل يثبت لهم مع الخطأ أجر الاجتهاد ، ومع الصواب أجر الاجتهاد وأجر الإصابة ، وفيما مضى من قصة الصحابة الذين انتدبهم الرسول ﷺ إلى بني قُريظة الدليل الواضح على أن المختلفين قد يكون كل منهما على هدى ، وقد دلت النصوص على أن للعالم أن يجتهد ويبذل وسعه ، فإن وفق فبها ونعمت وله أجران وإن أخطأ غفر له خطؤه وأُجِر على اجتهاده ، كما ثبت في الحديث : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد » أو كما قال ﷺ(١) .

ويروي عن الحسن البصري ، رحمه الله أنه قال : لولا آية في كتاب الله لأشفقت على المجتهدين ، وهي قوله تعالى : « **وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكُلاً آتينا حُكماً وعلماً** »(٢) . فبين أن داود وسليمان حكما في الحرث وأنه تعالى فهم سليمان الحكم وسكت عن داود ، فدل على أنه لم يفهم الحكم ، وما ذلك إلا لأنه باجتهاد منه ، إذ لو كان بوحي لم يخطيء ، فاجتهد كل منهما وأصاب واحد ، ولم يصب الثاني ، ثم قال تعالى : « **وكُلاً آتينا حُكماً وعلماً** » ، فأثنى على سليمان في حكمه ، كما أثنى على داود في علمه واجتهاده .

وقد ثبت في الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) انظر نص الحديث في صحيح البخاري (١٥٧/٨) ومسلم (١٣٤٢/٣) .
(٢) الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩ .

« مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً فجعل الفراش وهذه الدواب تقع في النار ، وقال : « كانت امرأتان معهما ابناهما ، فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت صاحبتها : إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك ، فتحاكما إلى داود ، فقضى به للكبرى ، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام ، فأخبرتاه ، فقال ائتوني بالسكين أشقه بينهما ، فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله ، هو ابنها ، فقضى به للصغرى »[1] .

ويذكر في التأريخ أن امرأة جميلة في زمن داود وسليمان عليهما السلام جاءها أربعة نفر يريدون أن يفعلوا بها ما لا ينبغي ، فمنعت نفسها ، فاشتوروا أن يرموها عند داود ، فجاؤا إليه وقالوا له : إن هذه المرأة تُربي لها كلباً وتُمكنه من نفسها ، وكان في شريعتهم أن المرأة إذا مكنت الكلب من نفسها تُرجم ، فرجمها داود عليه السلام ، بناء على شهادتهم ، فلما علم سليمان عليه السلام بذلك ، وكان يلعب مع الصبيان ، فأحضر خمسة ممن كانوا معه ، وسمى أحدهم باسم المرأة ، وسمى الأربعة الباقين ، كل واحد باسم أحد الشهود ، فقال للأربعة : ما تقولون ؟ فقالوا : إنها مكنت الكلب من نفسها ، فأمر بهم فأخذوا متفرقين ، ثم طلب كل واحد منهم على حدة ، فسأله ما لون الكلب ؟ ، فقال الأول : أبيض ، وقال الثاني : أسود ، وقال الثالث : أحمر ، وقال الرابع : أغبر ، فقال : ارموهم فإنهم قتلوها ظُلماً ، فعلم أبوه داود بذلك ، فأرسل من فوره أن يؤتى بالأربعة الذين شهدوا على المرأة قبل أن يطلعوا على ما حدث من سُليمان ، ففرقوا ثم جيء بهم كل واحد على حدة ، فاستجوبهم عن صفة الكلب فاختلفوا فيه ، فأمر بهم فقتلوا جميعاً[2] .

ويذكر في تأريخ علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن رجلاً غنياً سافر مع قوم فقراء ، ثم رجع الفقراء أغنياء والغني غير موجود ، فقام أخو الغني يُطالبهم عند عمر ويقول : إن أخي سافر

---

(١) البخاري (١٣٦/٤) ومسلم (١٣٤٤/٣) وقد نقلت الحديث نصاً من صحيح البخاري لفوات بعض ألفاظه عليّ عندما كنت أكتبه عن الشيخ .

(٢) ذكر القصة ابن كثير ، رحمه الله في تفسيره : (١٨٧/٣) .

معهم وهو غني وهم فقراء ، فرجعوا هم أغنياء ، وليس أخي معهم ــ ولعل أخاه مات ــ فطلب منه البينة فلم يجد ، فأمر له باليمين ، فطلب منه أن يحيله وإياهم على عليّ ، فأحالهم ، فأمر بهم عليّ ففرقوهم ، فطلب الأول منهم ، فسأله فأنكر ، فطلب الثاني ، فقال عندما أقبل : الله أكبر قد ظهر الحق ، فظن أن صاحبه أقر ، فاعترف ، وهكذا فعل الثالث .. حتى أقروا كلهم ، وهذا حكم عقلي وفراسة ظاهرة[1] .

فليس في قوله تعالى : « **إلا من رحم ربك** » . الذي هو استثناء من قوله تعالى : « **ولا يزالون مختلفين** » دليل لمن تكلم في الأئمة الفقهاء رحمهم الله ، لأن الاختلاف الذي تنفي الرحمة عن صاحبه ليس هو من قبيل ما اختلف فيه الأئمة ، رحمهم الله ، فإنهم إنما اختلفوا في المسائل الفرعية التي تؤخذ من نصوص للمجتهد فيها مجال في الإيراد والإصدار ، كما أن الأنبياء عليهم السلام دينهم واحد ، ويختلفون في تفاصيل الشرائع ، كما قال النبي ﷺ : « إنا معاشر الأنبياء أولاد علات » . أي أبناء أمهات مختلفة « وديننا واحد »[2] أي الأصل واحد وهو التوحيد والدعوة إلى الله ، فالأئمة متفقون في الأصول ، مختلفون في بعض الفروع على حسب ظهور الدليل عند كل واحد منهم[3] .

ولا يرد على ما ذكر أن الطائفة التي على الحق مختلفة أيضاً فيما بينها ومع غيرها لأن الخلاف يتداخل ، فاليهود مثلاً ، مختلفون مع النصارى ، وكل من طائفة اليهود وطائفة النصارى فرق كثيرة تختلف هذه عن هذه ، وأمة محمد ﷺ أيضاً مختلفة في الجملة مع غيرها ، وهي كذلك فرق في ذاتها ، ومنها فرقة

---

(١) ذكر القصة ابن القيم رحمه الله في كتابه : الطرق الحكمية في السياسة الشرعية (ص ٤٩) وما بعدها ، ولكنه ذكر أن القاض في المسألة هو شريح وأن الذي اشتكى هو ابن الغني ، فلعلي وهمت أو أن القصة رويت حسب ما ذكر الشيخ في مصدر آخر .

(٢) سبق تخريج الحديث ، وذكر نصه عند تفسير الآية : ٥٩ من هذه السورة .

(٣) قد يقال : فرق بين اختلاف الأنبياء في الشرائع ، لأن شريعة كل نبي وحي من الله بخلاف الأئمة فإن اختلافهم ناتج عن اجتهاد كل منهم ، ولكن هذا الفرق لا يؤثر ، لأن الاجتهاد في الفقه الإسلامي مأذون فيه شرعاً مأجور عليه في حال الاصابة وحال الخطأ وما كان مأذوناً فيه شرعاً لا يمكن أن تنفي الرحمة عمن أذن له فيه .

لا تختلف في الحق ، وهي التي رحمها الله ، وهذا لا يُنافيه اختلافها في بعض الفروع ، كما مر في قصة الصحابة الذين انتدبهم الرسول ﷺ إلى بني قُريظة .

« **ولذلك خلقهم** » .

التحقيق أن الاشارة راجعة إلى الاختلاف ، لا إلى قوله : « **إلا من رحم ربك** » . كما ذهب إليه بعض المُفسرين ، أي خلقهم لأن يختلفوا إلى مؤمن وكافر وبر وفاجر وشقي وسعيد ، ليصرف كلاً إلى ما كتب له في الأزل ، ولتظهر فيهم آثار صفات الله تعالى وأسمائه ، من رحمة ورضا وثواب للمطيعين ، وقهر وجبروت وشدة عذاب للعاصين ، كما قال تعالى : « **فريق في الجنة وفريق في السعير** »(١) . وقال تعالى : « **هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن** »(٢) .

فهو سبحانه قد كتب على كل واحد من الناس ما هو واقع به من شقاء أو سعادة ، وخير أو شر ، قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة(٣) .

وهنا سؤال مستحكم ، وهو : أن الله تعالى صرح في هذه الآية أنه تعالى خلقهم للاختلاف ليكون فريق منهم في الجنة وفريق في السعير ، وصرح في سورة الذاريات أنه إنما خلقهم لعبادته ، كما قال تعالى : « **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** »(٤) . فما وجه المعنى في ذلك وظاهره التعارض ؟

والجواب : أن الإرادة نوعان : كونية قدرية ، وهي مشيئة الله وقوع الشيء أو عدم وقوعه ، وإرادة شرعية دينية ، بحيث يطلب المراد باعتبار الشرع ، بحيث لو أدى الإنسان ما أُريد منه شرعاً أثيب ، وإن لم يؤد ذلك استحق العقاب والنكال والعذاب .

والإرادة الشرعية لا تستلزم الإرادة الكونية القدرية ، لأن النفوذ وعدمه يتعلق بالإرادة القدرية ، ولا يتعلق ذلك بالإرادة الشرعية ، فالشيء الذي يُراد إرادة شرعية مطلوب شرعاً ودينا ، لكن قد يريده الله كوناً وقد لا يريده كوناً وقدراً ، فلا يقع .

(١) الشورى : ٧ (٢) التغابن : ٢ (٣) راجع صحيح مسلم (٤/٢٠٤٢–٢٠٤٤) . (٤) الذاريات : ٥٦ .

إذا عرفت هذا فاعلم أن قوله تعالى هنا في سورة هود : « **ولذلك خلقهم** » . أي أراد ذلك منهم قدراً عند وجودهم ، فوجد كما أراد الله ، كما قال تعالى : « **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** »(١) . وقال تعالى : « **ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها** »(٢) . وقال تعالى : « **ولو شاء الله لجمعهم على الهدى** »(٣) .

أما الآية التي في سورة الذاريات « **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** » فاللام فيها تدل على إرادة ، وهذه الإرادة هي الدينية الشرعية ، ولا يلزم من كونها أريدت شرعاً أن تكون مرادة كوناً وقدراً ، فمعنى : « **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** » . أي ما خلقتهم إلا لأطلب منهم على ألسنة رُسُلي العبادة ، يوضحه قوله تعالى في سورة الملك : « **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** »(٤) .

وإحسان العمل أخص من مطلق العبادة المذكورة في قوله : « **إلا ليعبدون** » . ومعنى الآية : ليطلب ذلك منكم شرعاً ، ويوفق من شاء ، يوضحه قوله تعالى : « **وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله** »(٥) . فقوله : « **إلا ليطاع** » يدل على أن ذلك إرادة شرعية ، وقوله : « **بإذن الله** » يدل على الإرادة الكونية ، فالطاعة مطلوبة شرعاً ، ولكنها لا تقع إلا إذا أرادها الله قدراً .

فالدعوة عامة ، والتوفيق خاص .

وذهب بعض المُفسرين أن المراد بقوله : « **ولذلك خلقهم** » أنه خلقهم حُنفاء فاجتالتهم الشياطين ، ولكن الصواب ما ذكرنا بدليل قوله قبل ذلك : « **ولو شاء ربك لجعل الناس أُمة واحدة** » وقوله بعد ذلك : « **وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** » .

التمام ضد النقصان ، أي صارت تامة لا نقص فيها ولا تخلف ، بل هي نافذة على أحسن الوجوه .

---

(١) يس : ٨٢ . (٢) السجدة : ١٣ . (٣) الأنعام : ٣٥ . (٤) الملك : ٢ . (٥) النساء : ٦٤ .

والكلمة في القرآن لا تطلق إلا على الكلام المفيد ، فما قاله ابن مالك « وكلمة بها كلام قد يؤم » المشعر بالقلة ، كما هي قاعدته في الألفية إذا جاء بقد مع المضارع ، ليس المراد في اصطلاح القرآن ، فإنه مطرد فيما ذكرنا(١) .

والصحيح أن الكلمة التي تمت هي ما ذكر بعدها ، وهو قوله تعالى : « **لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** » وثبت في بعض الأحاديث أن النار لا يزال الله يلقي فيها وتقول : هل من مزيد ، فيضع رب العزة قدمه عليها ، فتقول : قط قط(٢) وهذه صفة لله تعالى لائقة بجلاله تثبت كغيرها على أساس التنزيه .

والمراد بالجنة الشيطان وأتباعه ، والناس معروفون ، ورئيس أهل جهنم كلهم هو إبليس لعنه الله ، كما قال تعالى : « **فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون** »(٣) . وقال تعالى : « **لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين** »(٤) .

« **وكلا نقص عليك من أنباء الرُسُل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين** » .

أظهر الأقوال أن « **كلا** » مفعول مقدم لـ « **نقص** » و « **ما** » في قوله : « **ما نثبت** » بدل من « **أنباء** » ، فمحلها الخفض ، أو بدل من قوله : « **كلا** » فمحلها النصب .

والأنباء الأخبار التي لها شأن ، وقد مضى الكلام على ذلك(٥) . أي من أخبار الرُسُل الماضين .

ووجه تثبيت فؤاد الرسول ﷺ بذلك ، أنه ﷺ يكون مستاء مستوحشاً ، لكونه أتى قومه بكتاب سماوي عظيم ومعجزات تبهر العقول ، وعنده لقومه من الشفقة والعطف والرحمة ما يوجب عليهم أن يطيعوه ، ثم مع ذلك كله يناصبونه

(١) سبق للشيخ أن تكلم على ذلك في تفسير الآية رقم : ١١٠ .

(٢) راجع صحيح البخاري (٦/٤٧) ومسلم (٤/٢١٨٦) وما بعدها .

(٣) الشعراء : ٩٤ ، ٩٥ .   (٤) ص : ٨٥ .   (٥) في تفسير الآية رقم : ١٠٠ .

العداوة وهو يعلم عاقبتهم ونصيبهم عند الله من العذاب ، فيشق عليه ﷺ ذلك ، فيقص الله عليه من أنباء الرُسُل ليخبره أنهم وقع لهم مثل ما وقع له من قومهم فيرتاح لذلك ويستأنس ولا يستوحش ، لأن من أعظم ما يرتاح إليه الإنسان إذا كان متعباً في دعوته هو أن تذكر له أن مثله قد لاقى مثل ما لاقى هو وأن العاقبة كانت له على قومه ، فإنه يتسلى بذلك ويرتاح ويذهب عنه القلق الذي يؤلمه ، كما قال تعالى : « **وإن يكذبوك فقد كذبت رُسُل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور** »[1] . وقال تعالى : « **ما يُقال لك إلا ما قد قيل للرُسُل من قبلك** »[2] .

والإشارة في قوله : « **وجاءك في هذه الحق** » تعود إلى السورة . أي جاءك في هذه السورة ، وفي هذا منقبة عظيمة لسورة هود ، ولا يرد كون القرآن كله حقاً ، لأن المراد التنويه بشأن هذه السورة وبعضهم يفسر مرجع الضمر بالأنباء ، والأول أولى ، لأن الأنباء من الحق . وفي هذه السورة آيات عظيمة لا يستبعد معها أن تخص بقوله : « **وجاءك في هذه الحق** » ، ففيها قوله تعالى : « **فاستقم كما أمرت** » .

والوعظ هو الكلام الذي تلين به القلوب ، والذكرى مصدر بمعنى التذكير ، وهي بمعنى الموعظة ، ولا مانع من ورود ألفاظ مختلفة لمعنى واحد ، فالذكرى ـــ هنا ـــ توكيد .

وقوله : « **للمؤمنين** » متعلق بموعظة ، والقرآن ، وإن كان موعظة وذكرى لعموم الناس ، لكن خصوص المؤمنين هم الذين ينتفعون به ، ولذلك خصوا في عدة مواضع » . وقد سبق الكلام على هذا[3] .

« **وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون** » . أي قل للقسم الخبيث ، وهم المختلفون ، والأمر في قوله : « **اعملوا** » . للتهديد ، أي اعملوا على قدر تمكنكم من السوء ، يُقال : مكن إذا كان ذا تمكن ، أي

---

(١) فاطر : ٤ .　　(٢) فصلت : ٤٣ .　　(٣) عند تفسير الآية : ١١٤ .

ابذلوه في مساخط الله ، « **إنا عاملون** » أي على مكانتنا ، بما أقدرنا الله عليه ، مما يرضيه ، وسترون غب عملكم المخالف لنا .

« **وانتظروا إنا منتظرون** » .

أي انتظروا عاقبة أمرنا ، فإنا ننتظر عاقبة أمركم ، وهو النصر لنا والهزيمة لكم .

والانتظار[1] التربص والاستمهال ، أي تربصوا واستمهلوا بنا ، ونحن نتربص ونستمهل بكم ، وستجدون العاقبة الوخيمة كما أننا ــ إن شاء الله ــ سنجد العاقبة الحسنة .

« **ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون** » .

ختم الله هذه السورة الكريمة بهذه الخاتمة العظيمة ، فكأنه يقول : الذي يأمركم وينهاكم جدير بأن يُطاع فلا يُعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، لأنه متصف بصفات عظيمة تستوجب أن يفرد بالطاعة ، وأن لا يعصى له أمر ، فإنه يعلم السر وأخفى .

قال بعض المُفسرين : أي ويعلم شهادتهما ، ولا شك أنه عالم الغيب والشهادة ، فهو كقوله تعالى : « **وله ما سكن في الليل والنهار** »[2] . أي وما تحرك . وقوله تعالى : « **وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر** »[3] . **أي والبرد.**

والغيب مصدر أُريد به الذات ، أي ما غاب فيهما فهو تعالى مالك كل شيء عالم بكل شيء .

« **وإليه يرجع الأمر كله** » .

أي كل الأمور راجعة إليه تعالى ، ومن الأمور الراجعة إليه بنو آدم وأعمالهم ، فيجازي كلاً منهم بما يستحق من خير أو شر .

(١) من هنا بدأت المحاضرة الخامسة والثلاثون في ١٠/٩/١٣٨٤هـ .

(٢) الأنعام : ١٣ . (٣) النحل : ٨١ .

وفائدة الترتيب بالفاء في قوله تعالى : « **فاعبده** » الإشارة إلى نكتة ، وهو أنه لا ينبغي أن يعبد ويخضع ويذل إلا لمن اتصف بهذه الصفات العظيمة ، ومثله قوله تعالى : « **رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً** »(١) .

ويفهم من مفهوم المخالفة أن الجاهل الذي لا يعلم الغيب لا ينبغي أن يخضع له ، لأنه مربوب محتاج إلى الله تعالى ، وقد حقق الرسول ﷺ ما أمره به ربه ، فعبده وحده ، ودعا إلى ذلك ، وقد أمره الله تعالى بقوله : « **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** »(٢) .

وقد فعل الرسول ﷺ ما أمره به ربه ، فإنه لما كتب إلى هرقل عظيم الروم ، قال له في كتابه : « من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيِّين »(٣) . ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبدو إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقوا اشهدوا بأنا مسلمون »(٤) .

والتوكل على الله الثقة به وإسناد الأمور وتفويضها إليه مع تعاطي الأسباب ، لأن الله أمر بها ، ولابد مع تعاطيها من الثقة به بأنه لا يقع إلا ما أراد الله تعالى ، وكان يعقوب من أعلم الناس بربه وقد وصفه الله بالعلم فقال : « **وإنه لذو علم لما علمناه** »(٥) . ومع ذلك فقد أخذ بالأسباب مع الثقة بالله وتفويض أمره إليه ، حيث قال لبنيه : « **يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة** » . فهذا أخذ بالأسباب ، ثم قال : « **وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون** »(٦) . وهذا اعتماد على الله .

---

(١) المزمل : ٩ . (٢) آل عمران : ٦٤ . (٣) أي الفلاحين الذين يتبعونك .

(٤) البخاري (١/٥ ــ ٧) ومسلم (١٣٩٣/٣ ــ ١٣٩٧) .

(٥) يوسف : ٦٨ . (٦) يوسف : ٦٧ .

والغفلة تطلق على زوال العلم بالشيء ، أو تشاغل الإنسان عنه وقد نفى الله ذلك عن نفسه ، فهو تعالى إنما يمهل ولا يهمل ، كما قال تعالى : « **ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم اليوم تشخص فيه الأبصار** »[١] .

وفي قوله : « **يعملون** » قراءتان سبعيتان : بالياء التحتية والمراد تهديد الكفار ، وبالتاء الفوقية والمراد تحذير المُخاطبين من المسلمين وغيرهم[٢] .

(وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه)

(١) إبراهيم : ٤٢ .

(٢) إلى هنا انتهى ما كتبته عن فضيلة شيخنا المفسر الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي في تفسير سورة هود ، وكان الفراغ من ذلك في يوم الثلاثاء الموافق للعاشر من شهر رمضان المبارك عام ١٣٨٤هـ أي قبل وفاته بتسع سنوات تقريباً ، لأنه توفى في سنة ١٣٩٣هـ رحمه الله رحمةً واسعة .

وفرغت من كتابته وتبييضه وترتيبه في ١٤٠٥/٥/٢٧هـ أي بعد وفاته باثنتي عشرة سنة تقريباً .

المراجـــع

١ — القرآن الكريم .

٢ — بقية المراجع حسب أسبقية ذكرها في الكتاب :

١ — أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن — الشيخ محمد الأمين الشنقيطي — طبع الأمير أحمد بن عبد العزيز آل سعود .

٢ — صحيح البخاري — الإمام محمد بن إسماعيل البخاري — المكتبة الإسلامية — استنابول ، تركيا .

٣ — الجامع لأحكام القرآن — أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي — دار الكاتب العربي للطباعة والنشر — القاهرة .

٤ — أحكام القرآن — أبو بكر أحمد بن علي المعروف بالجصاص — دار الكتاب العربي — بيروت .

٥ — أحكام القرآن — أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي — دار المعرفة — بيروت .

٦ — جامع البيان عن تأويل آي القرآن — أبو جعفر محمد بن جرير الطبري — مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

٧ — تفسير القرآن العظيم — أبو الفدا إسماعيل بن كثير — طبع دار إحياء الكتب العربية — عيسى البابي وشركاه .

٨ — الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل — أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري — طبع : انتشارات آفتاب طهران .

٩ — المفردات — الراغب الأصفهاني .

١٠ — القاموس المحيط — مجد الدين الفيروز ابادي — مطبعة السعادة بمصر .

١١ — مذكرة أصول الفقه — الشيخ محمد الأمين الشنقيطي — طبع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

١٢ — دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب — الشيخ محمد الأمين الشنقيطي — تكملة أضواء البيان ، طبع الأمير أحمد بن عبد العزيز آل سعود .

١٣ — ترتيب لسان العرب . الأصل لابن منظور — يوسف خياط ، ونديم مرعشلي . دار لسان العرب .

١٤ — البرهان في علوم القرآن — بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي — دار إحياء الكتب العربية — عيسى البابي الحلبي وشركاه .

١٥ ــ التفسير الكبير ــ الفخر الرازي ــ دار الكتب العلمية طهران .

١٦ ــ التفسير الكبير ــ أبو عبد الله محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي ــ مكتبة ومطابع النصر الحديثة ــ الرياض .

١٧ ــ مغنى اللبيب عن كُتب الأعاريب ــ أبو محمد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري ــ دار نشر الكُتب الإسلامية ــ لاهور .

١٨ ــ صحيح مسلم ــ بترتيب محمد فؤاد عبد الباقي .

١٩ ــ شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك ــ تحقيق محمد عبد الحميد .

٢٠ ــ المساعد على تسهيل الفوائد ، لابن عقيل .

٢١ ــ فتح القدير ــ محمد بن علي الشوكاني ــ مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

٢٢ ــ تاريخ الخلفاء ــ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ــ مطبعة السعادة بمصر ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

٢٣ ــ سُنن الترمزي ــ أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي ــ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .

٢٤ ــ الحيوان ــ للجاحظ بتحقيق عبد السلام هارون ــ شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده .

٢٥ ــ العقد الفريد ــ أحمد بن محمد بن عبد ربه ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة .

٢٦ ــ مسند الإمام أحمد بن حنبل ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت .

٢٧ ــ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ــ محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت .

٢٨ ــ الوابل الطيب شرح الكلم الطيب (في مجموعة الحديث ــ مطابع الرياض) لابن القيم .

٢٩ ــ الموطأ ــ مالك بن أنس ــ ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي .

٣٠ ــ جامع العلوم والحكم ــ أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين ابن رجب ــ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

٣١ ــ تفسير المنار ــ السيد محمد رشيد رضا ــ مكتبة القاهرة .

٣٢ ــ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ــ محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ــ مطبعة السنّة المحمدية ــ القاهرة .

فهرس

	صفحة
مقدمة ابن الشيخ المفسر رحمه الله	٣
١ ـ المقدمة	٧
عملي في هذا التفسير وصلتي بالشيخ	١٥
٢ ـ تفسير المجموعة الأولى من آية : ١ ـ ١١	**٢٧ ـ ٥٨**

كلام العلماء فى كون البسملة آية فى كل سورة أم لا ؟ ـ الكلام على اسمي الله تعالى : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ـ كلام العلماء على الحروف المقطعة ـ معنى قوله تعالى : ﴿ أُحكمت آياته ﴾ ـ معنى قوله تعالى : ﴿ ثم فصلت ﴾ ـ معنى قوله تعالى : ﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ ـ تفسير قوله تعالى : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ ـ تفسير قوله تعالى : ﴿ إننى لكم منه نذير وبشير ﴾ ـ تفسير قوله تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ﴾ ـ معنى قوله تعالى : ﴿ يمتعكم ﴾ ـ معنى قوله تعالى : ﴿ ويؤتى كل ذى فضل فضله ﴾ ـ تفسير قوله تعالى : ﴿ وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ ـ تفسير قوله تعالى : ﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ ـ معنى قوله : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ ـ تفسير قوله تعالى : ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ﴾ الآية ـ تفسير قوله تعالى : ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ الآية ـ تفسير قوله تعالى : ﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴾ الآية ـ تفسير قوله تعالى : ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾ الآية ـ تفسير قوله تعالى : ﴿ ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ﴾ الآية ـ تفسير قوله تعالى : ﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ﴾ الآية ـ تفسير قوله تعالى : ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ الآية

صفحة

٣ ــ تفسير المجموعة الثانية من آية ١٢ ــ ٢٤ ٦١ ــ ٨٦

تفسير قوله تعالى : ﴿ فلعلك تارك بعض مايوحى إليك ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ ليس لهم فى الآخرة إلا النار ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ أفمن كان على بَيِّنة من ربه ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون ﴾ ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ مثل الفريقين ﴾ الآية

٤ ــ تفسير المجموعة الثالثة من آية : ٢٥ ــ ٣٥ ٨٩ ــ ١٠٨

تفسير قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ فقال الملأ الذين كفروا ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وياقوم لا أسألكم عليه مالا ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ ولا أقول لكم عندى خزائن ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ قالوا يانوح قد جادلتنا ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ إنما يأتيكم به الله إن شاء ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ ولا ينفعكم نصحى ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ الآية ــ

٥ ــ تفسير المجموعة الرابعة من آية : ٣٦ ــ ٤٩ ١١١ــ١٣٢

تفسير قوله تعالى : ﴿ وأوحى إلى نوح ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى :

صفحة

﴿ واصنع الفلك ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ ويصنع الفلك ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ فستعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أمرنا ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وقال اركبوا فيها ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وقيل يا أرض ابلعى ماءك ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ ونادى نوح ربه ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ قال يانوح إنه ليس من أهلك ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ قال رب إنى أعوذ بك أن أسالك ما ليس لي به علم ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ قيل يانوح اهبط بسلام ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ تلك من أنباء الغيب ﴾ الآية

٦ ــ تفسير المجموعة الخامسة من آية : ٥٠ ــ ٦٠ **١٣٥ــ١٥٤**

تفسير قوله تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ ياقوم لا أسألكم عليه أجرا ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وياقوم استغفروا ربكم ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ ياهود ما جئتنا ببينة ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ إن نقول الا اعتراك بعض ءَالهتنا بسوء ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ فكيدون جميعا ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ إنى توكت على الله ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ﴾ الآية

٧ ــ تفسير المجموعة السادسة من آية ٦١ ــ ٦٨ **١٥٧ــ١٧٢**

تفسير قوله تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة ﴾ الآية ــ تفسير قوله

صفحة

تعالى : ﴿ وياقوم هذه ناقة الله لكم آية ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ فعقروها ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ الآية

٨ ــ تفسير المجموعة السابعة من آية : ٦٩ ــ ٧٦ ١٧٥ــ١٨٦

تفسير قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وامرأته قائمة ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ قالت ياويلتى ءألد وأنا عجوز ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ الآية

٩ ــ المجموعة الثامنة من آية : ٧٧ ــ ٨٣ ١٨٩ــ٢٠٠

تفسير قوله تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ قال لو أن لى بكم قوة ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ قالوا يا لوط إنا رسل ربك ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى ﴿ فلما جاءَ أمرنا جعلنا عاليها سافلها ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ مسومة عند ربك ﴾ الآية

١٠ ــ المجموعة التاسعة من آية : ٨٤ ــ ٩٥ ٢٠٤ــ٢٣٢

تفسير قوله تعالى : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وياقوم أوفوا المكيال والميزان ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ بقية الله خيرٌ لكم ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ قال ياقوم أرأيتم

صفحة

إن كنت على بينة ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وياقوم لا يجرمنكم شقاق ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ قالوا يا شعيب مانفقه كثيرا ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ قال ياقوم أرهطي أعز عليكم من الله ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وياقوم اعملوا على مكانتكم ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا ﴾ ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ الآية

١١ــ المجموعة العاشرة من آية : ٩٦ ــ ٩٩ ٢٣٥ــ٢٤٠

تفسير قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ واتبعوا فى هذه لعنة ﴾ الآية

١٢ــ المجموعة الحادية عشرة من آية : ١٠٠ ــ ١٢٣ ٢٤٣ــ٣٠٨

تفسير قوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ فأما الذين شقوا ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وأما الذين سعدوا ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ فلولا كان من القرون أولوا بقية ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وما كان

ربك ليهلك القرى بظلم ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وقل للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ وانتظروا إنا منتظرون ﴾ الآية ــ تفسير قوله تعالى : ﴿ ولله غيب السموات والأرض ﴾ الآية

موافقة وزارة الإعلام

برقم ٧٤٩/م/٣/ بتاريخ ١٤٠٧/٧/٩ هـ

دار الأصفهاني للطباعة بجدة
رقم الترخيص ١٨ ص - ١٣٩٣/٤/٥هـ